صوارف فهم القرآن الكريم وعلاجها
دراسة موضوعية

إعداد

سامية عاهد محمد حرب

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد خازر المجالي

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في التفسير

كلية الدراسات العليا
الجامعـــة الأردنيـــة

آب، ٢٠٠٨

قرار لجنة المناقشة

الإهـــــــداء

إلى المسجد الأقصى الذي بشموخه ورباطة جأشه أكسبني قوة الإرادة والشموخ، والذي كان ولا يزال شعلة حق وينبوع هدى يدفعني لأحيى بالحق وأتوق إلى شهادة العلم والحق..

إلى روح والدي الذي كان لي القلب الخافق بحب العلم والحياة، والعقل المشرق بالأمل، والنور الذي يضيء لي ظلمة الطريق ويهديني سواء السبيل..

إلى والدتي التي يعجز اللسان عن إيفائها حقها وذكر فضلها، والتي أرضعتني لبان العزّ والكرامة والتميز والرضا..

إلى إخوتي وأخواتي وأفراد عائلتي..

إلى كل من علمني وأدبني في المدرسة والجامعة وسائر مراحل حياتي..

إلى من أكسبني مهارة الطباعة والحاسوب لإنجاز هذا العمل..

إلى أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، إلى كل من جاهد بلسانه ومداده وسيفه في سبيل إعلاء كلمة الحق..

إلى أخواتي في الله وأهل العلم والخير على كوكب الأرض أقدم هذا العمل راجية من الله تعالى القبول والسداد.

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده، لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،،،

فلا يشكر الله من لا يشكر الناس، يطيب لي في هذا المقام أن أتوجه بخالص شكري وامتناني لكل من أسهم في إنجاز هذا العمل والوصول به إلى ما وصل إليه، وعلى رأسهم المشرف الأستاذ الدكتور محمد خازر المجالي على ما قدم لي من توجيهات ومساعدة، فجزاه الله خير ما جزى تلميذة عن أستاذها، كما أشكر لجنة المناقشة الذين تكبّدوا عناء قراءة هذا البحث وبذلوا وسعهم في تقديم النصح والإرشاد، والتي تشكلت من :

١- الدكتور أحمد نوفل.

٢- الدكتور أحمد فريد.

٣- الأستاذ الدكتور شحادة العمري.

فجزاهم الله خيراً ونفع بهم أمة الإسلام وجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

ولا أنسى أولئك الجنود المجهولين المخلصين الذين لم يقصروا في مدّ يد العون وتقديم المساعدة المادية والمعنوية، حيث بذلوا وقتهم وجهدهم في سبيل متابعة إنجاز هذا العمل والذي أسال الله أن لا يحرمهم أجره وأن يتقبل منهم ما بذلوا وقدموا.

فهرس المحتويات

صوارف فهم القرآن الكريم وعلاجها دراسة موضوعية

إعداد

سامية عاهد محمد حرب

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد خازر المجالي

الملخص

تناولت هذه الدراسة الصوراف التي من شأنها أن تحول دون تدبر القرآن وفهمه انطلاقاً من كونه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة، صالحاً لكل زمان ومكان ولكل أفراد بني البشر.

و يمكن وصف هذه الدراسة بأنها موضوعية في الأعم الأغلب؛ حيث إنها اعتمدت على استقراء القرآن الكريم واستخلاص هذه الصوارف من الآيات التي ذكرتها أو أشارت إليها من قريب أو بعيد.

لقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل التمهيدي: وقد تناول فهم القرآن الكريم من حيث حثّ القرآن على تدبره وفهمه،وأسس الفهم النبوي للقرآن الكريم، وبعض المفاهيم والمداخل التي تخص الدراسة.

أما الفصل الأول: فقد تحدثت فيه الباحثة عن تلك الصوارف النابعة من ذات الكيان الإنساني عقدية كانت، أم نوازع نفسية، أم أخلاقاً و سلوكيات، أم تعلقت بمعارف الفرد ومنهجه في التعامل مع القرآن الكريم .

وقد جاء الفصل الثاني ليتناول بعض الصوراف النابعة من البيئة التي تحيط بالأفراد تعليمية كانت أم ثقافية، أم اجتماعية وفكرية، أم سياسية، فالإنسان ابن بيئته فلا بد له أن يتأثر بها. ولا تفوت الإشارة إلى أن كل صارف من هذه الصوارف اتبع بمقترحات للعلاج.

وقد توصلت الدراسة الى أن هنالك عوائق قد تحول دون فهم القرآن الكريم على الوجه المطلوب وتلك الموانع قد تخص الفرد من جهة وقد تخص بيئته بمختلف أشكالها من جهة أخرى.

وتوصي هذه الدراسة ببذل الوسع والطاقة لتقوية صلة الناس بكتاب ربهم بوصفه كتاب هداية ومنهج حياة، ولفت النظر إلى تلك الصوارف والتحذير منها، وتهيئة الجو المناسب ليتربى النشء على منهج القرآن الكريم من ينبوعه الصافي غير المكدر بشيء. كما توصي بتوجيه طاقات البحث والدراسة إلى تفسير القرآن وتوضيح منهجية التعامل معه وفق ما يحقق مقاصده ويسمو بأهله، ويقيم حكم الله في الأرض، ويعين الإنسان على تحقيق واجب الاستخلاف الملقى على عاتقه فيها.

المقــــدمــــــــــة

الحمد لله الرحمن الذي أنزل القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى العدنان محمد بن عبد الله هادي البشرية ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وعلى آله و صحبه ومن سار على دربه و اقتفى أثره من حملة رسالة القرآن الخالدة إلى يوم الدين، وبعد:

فقد أنزل الله القرآن ليتخذ دستوراً ومنهج حياة للأفراد والجماعات، وقوام حضارة للأمم ولا يتحقق ذلك إلا بفهم هذا الدستور بما يتناسب مع الواقع و المقصد الذي أراده و أنزله لأجله, من هنا جاءت هذه الدراسة تحت عنوان **(صوارف فهم للقرآن الكريم وعلاجها)** كما طرقها القرآن نفسه؛ لتجلي كيف عرض القرآن لهذه الصوارف التي تحول دون تدبره وفهمه، ووصف لها العلاج خاصة في ظل غياب المنهج الصحيح في تدبر القرآن وفهمه وغلبة النظرة الموضعية على النظرة الموضوعية في التعامل مع القرآن الكريم.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تعرض لجملة من الصوارف التي طالما شكلت و تشكل سداً يحول بين كثير من العلماء و العوام وبين تدبر القرآن وفهمه، كما أنها تعرض لوصف العلاج لهذه الصوارف حيث يصبح التعامل مع القران الكريم ذا انعكاس واقعي فعال انطلاقاً من قوله تعالى:

"إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ"(الإسراء:٩).

الدراسات السابقة:

لم أقف في حدود اطلاعي المحدود على مؤلفات تخصصت في هذا الموضوع وأفردته بالبحث والتأليف، إلا أنني وجدت إشارات إليه منثورة في ثنايا كتب وبحوث من أهمها:

١-كتب تفسير القرآن الكريم ومنها: مفاتيح الغيب للفخر الرازي، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، وغير ذلك.

٢-الكتب التي تحدثت في مناهج المفسرين وضوابط التعامل مع القرآن الكريم ومنها: كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وكتابا كيف نتعامل مع القرآن الكريم للأستاذ يوسف القرضاوي

ومحمد الغزالي، التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، التفسير أساسياته واتجاهاته للدكتور فضل حسن عباس، مفاتيح التعامل مع القرآن الكريم لصلاح الخالدي، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه للدكتور زياد الدغامين، وغير ذلك.

٣-الكتب التي تحدثت في منهجية التفكير ومنها: فصول في التفكير الموضوعي لعبد الكريم بكار، حول تشكيل العقل المسلم لعماد الدين خليل، أساليب الغزو الفكري لعلي جريشة، وغير ذلك.

٤-رسائل جامعية وبحوث متفرقة ومنها: الظلم في القرآن الكريم للدكتور جهاد نصيرات، مناهج التأليف في القصص القرآني واتجاهاته للدكتور سليمان الدقور، موقف الوحي من التعامل مع التراث الديني اليهودي للدكتور زياد الدغامين وغير ذلك.

منهج البحث:

يرتكز منهج البحث في هذه الدراسة على ما يلي:

١- استخدمت المناهج التالية خلال البحث وهي:

أ- المنهج الاستقرائي: ويتلخص في استقراء القرآن الكريم وجمع الآيات التي عرضت لصوارف فهمه أو أشارت إليها من طرف خفي.

ب- المنهج الوصفي: ويتلخص في تقسيم الدراسة إلى فصول احتوت عدة مباحث .

ت- المنهج الاستنباطي: ويقوم على استنباط الصوارف من الآيات والمصادر التي طرقتها وأشارت إليها.

ث- المنهج التحليلي:وذلك بتحليل الأفكار والتعمق في دراستها قدر الإمكان .

٢- يمكن وصف هذه الدراسة بأنها موضوعية في الأعم الأغلب بمعنى أنها تعتمد على آي القرآن الكريم، إلا إن الحرص على تمام الفائدة وعدم التمكن من الوصول إلى آيات قرآنية تدلل على بعض المفاهيم والأفكار المطروحة حاد بالدراسة عن مسارها الموضوعي في بعض الأحيان .

٣-الحرص على عزو كل نقل إلى مصدره وكل قول إلى قائله ورد الفضل إلى أهله .

خطة الرسالة :

اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى ثلاثة فصول كل منها يحتوي على ثلاثة مباحث ثم ألحقت بخاتمة وفهارس وذلك على النحو التالي :

١-الفصل التمهيدي: الدعوة إلى فهم القرآن وتدبره، ويشمل:

المبحث الأول : حث القرآن على تدبره وفهمه .

المبحث الثاني: منهج الفهم النبوي للقرآن الكريم .

المبحث الثالث: مفاهيم ومداخل للدراسة .

٢-الفصل الأول : صوارف نابعة من ذات الكيان الإنساني وعلاجها،ويشمل :

المبحث الأول: الصوارف العقدية .

المبحث الثاني: الصوارف النفسية والخلقية .

المبحث الثالث: الصوارف المعرفية والمنهجية .

٣- الفصل الثاني: صوارف نابعة من البيئة المحيطة وعلاجها،ويشمل :

المبحث الأول: أثر البيئة الثقافية والتعليمية في الصرف عن فهم القرآن الكريم .

المبحث الثاني: أثر البيئة الاجتماعية والفكرية في الصرف عن فهم القرآن الكريم .

المبحث الثالث : أثر البيئة السياسية في الصرف عن فهم القرآن الكريم .

٤- الخاتمة : وسأبين فيها ما أتوصل إليه من نتائج و توصيات إن شاء الله تعالى .

هذا وإن كل عمل بشري لا بد أن يعتريه نقص بالغاً ما بلغ فلا كمال إلا لله، ولو استقبلت من امري ما استدبرت لحرصت على أن يكون خيراً مما قدمت، والله أسأل أن يتقبل هذا العمل المتواضع ويجعله خالصاً لوجهه الكريم وينفع به من قرأه إلى يوم الدين، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وهو الهادي الى سواء السبيل .

الفصل التمهيدي

الدعوة إلى فهم القرآن وتدبره

أنزل الله القرآن ليكون دستوره الأمثل ورسالته الخالدة التي قدر لها أن تكون المرجع لمن أوكل له مهمّة الخلافة في الأرض وعمارتها والقيام بأمر الله فيها؛ لذلك كان حرياً بمن حمل تلك الرسالة وانتهج ذاك الدستور أن يجيل نظره فيه ليدرك مقاصده ومراميه، ويستنطق تعاليمه وتوجيهاته حتى يتسنى له فهمه ويكون ذاك الفهم باعثاً على العمل الدؤوب لترجمة القرآن وإحيائه في حياته، وعليه أن يتجاوز كل ما من شأنه أن يحول دون تدبره وفهمه وتمثله ويصرفه عن ينبوعه الصافي. وقبل الخوض في ما يمكن أن يحول بين أهل القرآن وكتابهم من صوارف الفهم تنبغي الإشارة إلى أمور ثلاثة:

الأول: كيف حث القرآن على تدبره وفهمه وأهمية ذلك.

الثاني: كيف ترجم الرسول محمد -ﷺ- ما نزل إليه من كتاب الله تعالى في حياته الفكرية والعملية؛ وذلك من خلال طرح النماذج للفهم النبوي للقرآن الكريم.

الثالث: دراسة قرآنية استقرائية توضح الألفاظ التي عبر بها القرآن عما يحمل معنى الصرف.

وسيتم عرض تلك الأفكار الثلاثة. في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول

حثُّ القرآن على تدبره وفهمه

من الطبيعي الدارج أن يكون الحث على استكناه شيء وفهمه والتأمل فيه صادر عن طرف خارج عن ذلك الشيء، فالمدرس يقول لتلاميذه –مثلاً–: عليكم بفهم ذلك الدرس، ومدرب الرياضة يقول: عليكم الإحاطة بقواعد تلك اللعبة، ولكن إذا كان الحث واستفزاز العقل إلى الإقبال والانهماك في التحليل والتدبر والتأمل نابعاً من ذات الشيء فذاك هو الأجمل والأوقع في النفس. وها هو القرآن بما حوى من آيات وسور كريمات قرآنية تحمل أنفس المعاني وأصدق الدلائل على ربانية مصدره يدعو إلى التدبر العميق الموصل إلى الفهم الصحيح الذي يأسر القلب والعقل، ويأخذ بالفكر فيكون باعثاً على العمل والتنفيذ وإحياء المعاني في واقع الفرد والمجتمع والأمة، وإذا أضيف إلى تلك الدعوة الشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية عن ذلك الكتاب، والإيمان بأهمية تدبره وفهمه بوصفهما وسيلة لتأخذ الرسالة مكانها، وتؤدي وظيفتها، فذلك باعث أقوى؛ لذا لم يكتف القرآن بالحث على تدبره بل أضاف إلى ذلك إشعار تاليه بأهمية تجنيد الوسائل وإعمال الآلات التي تعين عليه.

وتتلخص أهمية فهم القرآن وتدبره فيما يلي:

أولاً: الاستعانة على الحفظ: لا يخفى ما لاستظهار القرآن الكريم في قلوب أهله من الأهمية البالغة في فهم القرآن وتدبره، حيث إن الحفظ الدقيق هو الذي يصل بصاحبه إلى أن يستجمع آيات القرآن وسوره من أوله إلى منتهاه، فيدرك المتشابه اللفظي منه، والاختلاف في مفردات التعبير عن المقصد من آية إلى آية، ومن سورة إلى سورة، بل وفي القرآن كله، فما الفرق –مثلاً– بين قوله تعالى في سورة البقرة: "وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ"(البقرة:١٧٣)، وبين قوله تعالى في سورة المائدة: "وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ"(المائدة:٣)؟ وما الفرق بين التعبير بـ (جاء) في قصة سيدنا موسى –عليه السلام– الواردة في سورة النمل: "فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا"(النمل:٨)، والتعبير ب(أتى) في القصة ذاتها الواردة في سورتي طه والقصص: "فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ"(طه:١١)، "فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ" (القصص:٣٠).

كما لا يخفى- بالمقابل- ما لتدبر القرآن وفهمه من الأثر البالغ في العون على استظهار القرآن الكريم، إذ كيف يتصور أن يعي القرآن قلب لا يفهم ما تيسر له من معانيه أو يدرك ما يمكنه إدراكه من سياقه وروابطه والمناسبات بين آياته وسوره؟ وإن الخلط في خواتيم الآيات والمتشابه منها وغير ذلك من مظاهر عدم رسوخ القرآن في الذاكرة ناشئ بشكل كبير عن التقصير في إعمال الحواس والآلات التي تقوي ملكة التدبر الشامل والفهم الدقيق ذي الأثر البالغ في الحفظ الراسخ المتين. يشير الأستاذ يوسف القرضاوي إلى تميز أمة الإسلام بحفظ كتابها بقوله: (أمة متميزة بالحفظ، عرف ذلك في الشعر وغيره فكيف بكتابها المقدس؟ ساعد على ذلك سهولة القرآن وعذوبته والترغيب في حفظه، فحفظه من الأمة أعداد هائلة على مدار التاريخ. حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها، كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة) [١] ولا يمكن أن يتأتى ذلك الحفظ الدقيق ويتشكل ذلك المصحف المتحرك إلا من وعي وفهم وحسن تدبر، ولعل هذا ما قصده الأستاذ محمد الغزالي في اعتراضه على تغليب الاهتمام بحفظ القرآن وتدريس أحكام التجويد على حساب الاهتمام بالفهم الواقعي للقرآن الكريم، فهو لا يقلل من أهمية الحفظ والتجويد لكنه ينعى على أولئك الذين لا تتجاوز مداركهم حروف القرآن. [٢]

<u>ثانياً</u>: الاستعانة على تفسير القرآن الكريم:

هناك سؤال يطرح نفسه في هذا المقام مفاده: هل التفسير هو عين الفهم؟ للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من توضيح معنى كلا المصطلحين.

التفسير في اللغة: الإيضاح والبيان والكشف. قال في القاموس: (الفسر: الإبانة وكشف المغطى) [٣]

والتفسير اصطلاحاً: بيان كلام الله، إذ إنه العلم المبين لألفاظ القرآن و مفهوماته [٤].

أما الفهم فهو: علم الشيء وإدراكه والإحاطة بكلياته وجزئياته وسائر أبعاده. [٥]

---

[١]- القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط١، مؤسسة الرسالة، لبنان، ٢٠٠١م، ص٣٥.

[٢]- ينظر: الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، ط٣، دار الوفاء، المنصورة ١٩٩٢م، ص٢٧.

[٣]- الفيروز آبادي، أبو طاهر بن يعقوب، القاموس المحيط، اعتنى به حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان ٢٠٠٤، ص١٣٢٣ .

[٤]- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الأرقم، لبنان، ج ١، ص١٠.

[٥]- ينظر: ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، اعتنى به: محمد عوض و فاطمة أصلان، ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ٢٠٠١، باب الفاء، فصل الميم.

قال في اللسان: (الفهم: معرفتك الشيء بالقلب)[١]. واللافت أن كلا المصطلحين وردا مرة واحدة في كتاب الله فقد قال تعالى في عُرض الحديث عن موقف المشركين من الرسول والرسالة، واعتراضهم على نزول القرآن مفرقاً: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان:٣٣)، كما قال في سورة الأنبياء في شأن داوود وسليمان –عليهما السلام–: "فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ"(الأنبياء:٧٩)

وإن المتأمل في تعبير القرآن بلفظ التفسير يلاحظ أنه قصد الإيضاح والبيان البالغ الغاية في الحسن، أما الفهم فهو شمولية الاستيعاب للفكرة والإحاطة بها مع دقة التعبير عنها، تقول د.بنت الشاطئ: (يبدو أننا بحاجة إلى أن نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام، بين حق كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه بغير ذوي الدراية به، بعد أن شغلت الأمة بهذا الخلاف الطارئ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من يشاء)[٢].

إن من يقرأ المقولة السابقة والشروط التي وضعها المفسرون وأصحاب الاختصاص لمن يجند نفسه لتفسير القرآن الكريم يلمس التشدد الواضح والقيود الصارمة التي تقف حجر عثرة أمام من يريد تفسير القرآن، فهم يشترطون أن يكون موهوباً وعالماً بالأصول وفقيهاً وعالم لغة وغير ذلك[٣]، و لا يمكن أن تجتمع هذه الشروط في شخص واحد كما أن معظم هذه الشروط تعدّ غايات من تفسير القرآن لا آلات له؛ ذلك أن القرآن هو منبع الفقه والعقائد و الأصول وحتى اللغة في كثير من الأحيان، ولا يعني هذا أن يكون التفسير غير منضبط ومنبثق عن هوى نفس أو الإعجاب بفكرة، بل إن المفسر يجب أن يكون ذا دراية باللغة– بوصفها آلة فهم القرآن– وقواعد النحو والبلاغة، وقدرة على فهم السياق والتعبير عن المطلوب في ضوء ما يجلي مقاصد القرآن وكونه كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة، فلا يشترط إذاً أن يكون نحوياً نحريراً كسيبويه، ولا فقيهاً متمرساً كأبي حنيفة، بل يكفي أن يكون ذا غيرة على دينه وأمته وفهم لواقعه وطموح لمستقبل واعد بسواد الإسلام وسيادته في العالم، كما لا يشترط أن يفسر القرآن من أوله إلى آخره آية آية بل يقبل أن يكتب في تفسير آية أو جملة آيات

---

[١]– ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، باب الميم، فصل الفاء.

[٢]- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، دار المعارف، القاهرة، ص٣١٥، ٣٢٧.

[٣]- ينظر: الذهبي، التفسير و المفسرون، ج١، ص١٧٦–١٨٠.

أو حتى سورة تفسيراً واعياً عملياً حياً مفهوماً للجميع بعيداً عن الإغراق في العلوم الجامدة والمساجلات الفلسفية والكلامية.

من خلال توضيح معنى المصطلحين يتبين أن التفسير والفهم شيئان مختلفان وإن جمعتهما علاقة وثيقة، فكما أن الفهم وسيلة للتفسير فهو غاية منه، إذ لا يمكن توضيح المعاني والمفاهيم للعيان من قبل مفسر القرآن إلا إذا أشرب القرآن في عقله وقلبه ووجدانه وأحاط بما يتسنى له من المفاهيم والمدركات –ففاقد الشيء لا يعطيه– كما لا يسمى التفسير تفسيراً إلا إذا أدى الغاية منه وهو الوصول إلى فهم أمثل جدير بأن يوصل إلى فهم فكري عملي واقعي منهجي للقرآن الكريم.

فكما أن التفسير غاية الفهم الفردي فإن الفهم الذي تنبثق عنه الحياة بالقرآن هدف فردي وجماعي، إذ هو مقصد الله من إنزال كتابه حيث يقول: "وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(النحل:٤٤)، ويقول: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ"(النحل:٨٩)، فهداية القرآن ورحمته الشاملة العامة التي تنزل بها، وتبشيره بالخير لمن استمسك ومسّك به واتبع هداه في الدنيا والآخرة، وتحقيق الحياة بالقرآن والتي هي العبادة المرجوة من خلق الله للجن والإنس قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"(الذاريات:٥٦)، لهو دليل ساطع على أن فهم القرآن هو الغاية المرجوة من تفسيره وتدبره المعين على تفسيره؛ لذلك كله كان تدبر القرآن وفهمه معيناً مباشراً ومثلاً حياً لمن يريد توضيح القرآن لغيره.

فلولا التدبر والفهم ما تشكل تراث تفسيري ضخم يتعامل مع القرآن ويبرز مقاصده من منطلقات شتى، ولولا التفسير عموماً والتفسير الذي ينطلق من الواقع إلى القرآن ومن القرآن إلى الواقع على حد سواء محدداً مقاصد القرآن وحاجة الواقع إلى القرآن، ما كان هناك فهم يحقق الشهود الحضاري والتاريخي لأمة الإسلام[1].

ثالثاً: الاستعانة على التطبيق الحركي العملي للقرآن الكريم وتفعيله في الواقع المعيش:

لم يتنزل القرآن الكريم ليكتب ويعلق على الصدور للحماية من ضراء النوازل، أو ليكتب ويزخرف ويعلق على جدران المنازل، أو ليكون أسير خرافات يتعامل بها ضعاف العقل، والذين في قلوبهم مرض، لكنه قائد إلى الخير بكل ما أوتيت الكلمة من معنى، فهو السلاح المعنوي الأول والأوحد في معركة الصراع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة بكل أشكاله، وضد كل الأعداء الذين من شأنهم أن يخترقوا الصف الإسلامي فيصدوا عن سبيل الله من آمن يبغونها عوجاً، يقول الشهيد

[1] ينظر: الدغامين، زياد خليل، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، ط١، دار عمّار، الأردن، ٢٠٠٧، ص٥٩.

سيد قطب موضحاً أهمية التدبر والفهم في الحياة بالقرآن: (تدبر القرآن واجب، والحياة به ضـــرورة، والحياة في ظلاله نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة تبارك العمر وترفعه وتزكيه، ولا يدرك هذا إلا من عاش في ظلال القرآن فعلاً، وتذوق من مظاهر هذه النعمة ما تذوق، ولمس من آثارها ما لمـــس، ووقف على ما فيها من أنس وسعادة، وراحة وطمأنينة، واسترواح وانشراح)[١] وكأن صاحب الظـــلال بمقولته هذه يوضح أنه لا يمكن العيش العملي بالقرآن إلا إذا سبقه عيش فكري قلبـــي وجـــداني مـــع القرآن، فمن ذاق عرف والمعرفة أساس الحياة الحقة.

رابعاً: تحقيق الشهود الحضاري لأمة الإسلام:

إن عالمية رسالة الإسلام تقتضي سيادته وقيادته للبشرية على مر العصور؛ لذا فلا بـــد أن يكون لها المحورية في بناء الحضارات المثالية في كل حقبة تاريخية وفي كـــل مكـــان علـــى وجـــه الأرض، وإذا كان ذلك كذلك فرسالة الإسلام عنوان لتميز الحضارة، وشاهد على اســـتحقاقها للقيـــام والكينونة، يقـــول تعـــالى: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ" (البقرة:١٤٣)، ولكن ما معنى الشهود الحضاري؟ وكيف يصل تدبر القرآن وفهمه بأمـــة الإسلام إلى نيل هذه الحظوة، والوصول بتلك الرسالة إلى ذاك الشهود؟ يمكن تلخيص معنى الشـــهود الحضاري في خمس نقاط رئيسة:

أ-**استصحاب تاريخ الأمم السابقة**، وحديث القرآن عن قصصهم التي حوت جملـــة مـــن العبـــر والعظات الواقعية، وهو ما يسمى بالسنن التاريخية، يقول تعـــالى: "قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ"(آل عمران:١٣٧).

ب-**فهم موقف القرآن وتصوراته للمجتمع المسلم الأمثل**، وسنن الله فيه وموقفه ممـــن يحـــاول خرق تلك السنن الاجتماعية.

ج-**فهم الكون والسنن الطبيعية التي أودعها الله فيه**، وبديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، إذ إن الكون مسخر لخليفة الله في أرضه (الإنسان) فإذا لم يفهم الخلافة على ضوء ما سخره الله لـــه كـــان

---

[١]- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، لبنان، ط٢٥، ١٩٩٦م، ج١، المقدمة.

هناك خلل واضح في أداء ذاك الخليفة لوظيفته؛ لذلك يلاحظ أن الدعوة في القرآن للسير في الأرض والنظر في أرجائها، تمحورت حول الدعوة للنظر في أحوال الأمم، وبالمقابل النظر في الكون وإبداع الله فيه، يقول تعالى: "أَوَلَم يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ" (غافر:٢١-٢٢)، وقال تعالى: "أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ" (الأعراف:١٨٥).

د-فهم واقع الأمم غير الإسلامية وما وصلت إليه في جميع المجالات والميادين، وصياغة دراسة للواقع الذي تعيشه الأمم غير الإسلامية، ووضع اليد على نقاط الضعف والقوة فيه وما وصلت إليه من تقدم في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية وغيرها، وتحديد موقف الإسلام منها ومما وصلت إليه. فالإسلام ليس حكراً على العرب وحدهم، وليس تعاليم جامدة مرهونة بمكان أو زمان معين، بل هو رسالة الله الخالدة إلى البشرية جمعاء.

هـ -قيام الأمة بما يؤهلها لأن تكون مرجعيتها حاضرة في كل وقت.

وبدهي بعد هذا كله أن يكون تدبر القرآن وفهمه حق الفهم في ضوء هدايته ومقاصده السامية باعثاً قوياً على إيجاد الإمكان الحضاري الذي يتحقق من خلاله الشهود الحضاري[١].

مما تجدر الإشارة إليه أن تدبر القرآن يسهم في إعمال تلك الحواس التي أودعها الله في الإنسان، فكانت أمانة في عنقه كحاستي السمع والبصر، كما يسهم في إعمال العقل الذي ميز الله به الإنسان على غيره وتوجيهه الوجهة الصحيحة، وفتح أقفال القلوب ليستقر فيها الفهم الصحيح للقرآن الكريم والذي ينقل القرآن من كونه كلمات صاغتها سور وآيات إلى حركة واقعية دؤوب، وقيادة مثلى عصماء للأفراد والجماعات والأمم.

ولسائل أن يسأل كيف حث القرآن على التدبر والفهم وما هو منهجه في ذلك؟ قبل الإجابة على هذا السؤال، لابد من استحضار المشكلة التي تواجه الأمة نتيجة الخلل في سلوك الطريق الصحيح لفهم القرآن الموصل إلى تدبره أو لتدبر القرآن الموصل إلى فهمه، يقول محمد الغزالي: (وقد

---

[١]- ينظر: الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص٢١٤-٢٢٢.

تكون مشكلة المسلمين كلها اليوم في منهج الفهم الموصل إلى التدبر وكسر الأقفال من على القلوب والعقول وتجديد الاستجابة، وتحديد وسيلتها، ليكونوا في مستوى القرآن، ومستوى العصر، ويحققوا الشهود الحضاري)[1] لأجل ذلك لابد من لفت النظر إلى الأسس التي وضعها القرآن نفسه لتدبره وكسر الأقفال التي تحول دون فهمه، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: عرض الآيات التي تدعو مباشرة إلى التدبر، قال تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا"(النساء:٨٢)، وقال: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ"(المؤمنون:٦٨)، وقال: "كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ"(ص:٢٩)، وقال: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ"(محمد:٢٤).

لقد ورد لفظ التدبر أربع مرات في القرآن الكريم منها آيتان في العهد المكي من القرآن الكريم (المؤمنون:٦٨،ص:٢٩) وآيتان في العهد المدني من القرآن الكريم (النساء:٨٢، محمد:٢٤) ويلاحظ أن الآيات الأربع ارتبطت بالقرآن الكريم، إلا أن التعبير في الآيتين المكيتين كان بتدبر القول وتدبر آيات الكتاب، قال تعالى: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ" وقال: "كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ".

معنى التدبر: النظر في عاقبة الأمر، والتفكر فيه، وتدبر الكلام: النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، ولهذا جاء على وزن التفعل: كالتجرع والتفهم، لذلك قيل: النظر في أدبار الأمور واجب، وأدبار الأمور: أي أواخرها وعواقبها.[2] ثم إن ارتباط التدبر بآيات القرآن المتلوة لهو دليل على حث القرآن على الإقبال عليه بنظر عميق، وبصيرة نافذة، وقلب حي، وعقل يقظ واع. وإن ورود هذا اللفظ (التدبر) في قسمي القرآن المكي والمدني على حد سواء في سياقات مختلفة عقدية وتشريعية وسلوكية، لهو دليل ساطع على إنارة القرآن لتلك الملكة في نفوس أهله في مختلف مراحل الدعوة الإسلامية[3].

---

[1]- المصدر السابق، ص١٥-١٦.

[2]-ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الراء، فصل الدال.

[3]- أما ارتباطها بالعقيدة فيتجلى في سورة المؤمنون حيث سلسلة الآيات التي تجلي عقيدة الإيمان بمحمد ﷺ ورسالته (المؤمنون:٦٦-٨٠).

ثانياً: دعوة القرآن إلى قراءته وتلاوته وتعلم أحكامه ومقاصده ومواعظه وهداياته:

إن التعرف على القرآن الكريم بسوره وآياته يكون بالقراءة أو التلاوة أو الترتيل كما علمنا ذلك القرآن نفسه.

لقد عبر القرآن الكريم بعبارات مختلفة كلها تدل على كيفية الوصول إلى ألفاظه والتي هي طريق لتدبره وسبر أغواره، فتراه تارة يورد لفظ القراءة، وتارة يورد لفظ الترتيل، وتارة يورد لفظ التلاوة، كما أنه أشار إلى طريق تلقي القرآن سماعاً وإنصاتاً، حيث يقول تعالى: "وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"(الأعراف:٢٠٤)، وقال: "وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ"(الأحقاف:٢٩).

ولا يخفى ما للسماع من الإعانة الواضحة على الفهم والتدبر، أما عن القراءة فلا بد أن هناك فرقاً بين قرأ وتلا ورتل، وإن الناظر في معاجم اللغة العربية وكتب مفردات القرآن يلاحظ ما يلي:

إن الفعل قرأ يشمل جمع الحروف وسرد الآيات والسور مع الفهم والتدبر، يقول صاحب القاموس المحيط: (القرآن: التنزيل. قرأه وبه كنصره ومنعه قرءاً وقراءة وقرآناً فهو قارئ من قرأة وقراء وقارئين: تلاه ... وقارأه مقارأة وقراء: دارسه ... وتقرّأ: تفقه)[1] ويضيف الراغب الأصفهاني أن القراءة فيها معنى جمع الحروف والكلمات وضمها ومدارستها وتفهمها[2]. ويلاحظ أن قرأ لم ترد إلا في العهد المكي من القرآن حيث وردت ثماني عشرة مرة. وهذا يدل على أنه ليس

أما التشريعات: ففي سورة النساء حيث ذكر الله سبحانه وتعالى وصف المنافقين وحالهم إذا دعوا للجهاد في سبيل الله وأتبع ذلك بذكر السلوك الواجب اتباعه عند انتشار الإشاعات والأراجيف (النساء:٨١-٨٣).

وأما السلوك فيتجلى في سورة ص والتي تبصر المسلمين بما يجب عليهم إزاء تلك القصص التي ذكرها القرآن وهو إعمال الفكر واستحضار العبر فإن آية الدعوة إلى تدبر آيات الكتاب توسطت قصة داوود وابنه سليمان -عليهما السلام (ص: ٢٩)، وفي سورة محمد حيث ذكر سلوك المنافقين وانصراف قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم عن الخير والذي من جملته تدبر القرآن (محمد:٢٤).

[1]- الفيروز: آبادي، أبو الطاهر مجد الدين، القاموس المحيط، اعتنى به: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان ٢٠٠٤م، ص١٣٨٠.

[2]- ينظر:الأصفهاني:الراغب، المفردات في غريب القرآن، ضبطه وراجعه: محمد عيتاني، ط٣، دار المعرفة، لبنان ٢٠٠١م، ص٤٠٠.

المقصود مطلق السرد فمنذ فجر نزول القرآن طلب من أهله أن يقرؤوه بعمق وتفهم، وهذا يتناسب مع كونه منهج حياة.

الترتيل: ومعناه في القراءة: الترسل فيها والتبيين من غير بغي [١] وقد اقتصر ورودها على العهد المكي من القرآن، ويلاحظ من خلال تدبر الآيات التي وردت فيها أنها تدور حول هدفين اثنين:

١- **تعليم كيفية قراءة القرآن الكريم وهي:** التأني والترتيب والتؤدة فيما يؤدي الغرض من إيصال المعنى. قال تعالى: "وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً "(المزمل:٤).

٢- **تبيان أن القرآن الكريم وإن نزل مفرقاً فإنه منظم في آيات وسور متتابعة مرتبة منسجمة،** قال تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً"(الفرقان:٣٢) فهذه اللفظة تركز على آلية قراءة آي القرآن الكريم وهو جانب من جوانب القراءة.

التلاوة: وهي القراءة مع الفهم والاتباع. وإن كانت دلالتها على الفهم والاتباع أكثر [٢] وهذا يفسر ورودها في كل من قسمي القرآن المكي والمدني، حيث ذكرت متفرقة فيهما على كثرة في القسم المدني من القرآن فإنه امتاز بكثرة ورود تشريعات فيه وتحديد إطار معالم الدولة الإسلامية وطبيعة علاقتها بما حولها، وهذا يتناسب مع معنى (تلا) والذي يحمل في طياته الفهم والاتباع، ويلاحظ أنها اقترنت في كثير من المواقع بالدعوة إلى اتباع هدى القرآن الكريم فنراه تارة يقول: "يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ"(البقرة:١٢١)، وتارة يقرنه بالعمل قال تعالى: "ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ"(العنكبوت:٤٥).

يتبين مما سبق أن تلا ورتل مجتمعين تعطيان معنى القراءة النظرية والتطبيقية فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة. ثم إن كل ترتيل قراءة وليس كل مجرد قراءة ترتيل. فقد يقف الإنسان عند آية أو بعض آية أو جملة من الآيات أثناء قراءته. فلفظ الترتيل يتناول الجانب الشكلي للقراءة، ولفظ التلاوة يتناول الجانب الفكري التطبيقي.

---

[١]- ينظر :ابن منظور، لسان العرب، باب اللام، فصل التاء.

[٢]- ينظر: الأصفهاني، المفردات، ص٨٢.

وإن المتتبع لهذه المصطلحات الثلاث يتبين له أن الفعلين قرأ ورتل لم يردا إلا في العهد المكي من القرآن، وأما تلا فهو مصطلح مذكور في كليهما، ففي سورة فاطر المكية يقول تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ" (فاطر:٢٩)، وفي سورة البقرة المدنية يقول تعالى: "ٱلَّذِين ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ"(البقرة:١٢١). وعند حديثه عن أهمية معرفة مكي القرآن ومدنيه وأثر ذلك في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم يقول د.زياد الدغامين معقباً على هذا الإيراد الرباني ذي الحكمة: (وكون آيات القراءة كلها واردة في الآيات المكية، يبين ويحدد مهمات عظيمة للقرآن أنجزها في فترة وجيزة وبذل المسلمون النفس والنفيس من أجلها، وهاجروا في سبيلها إلى قرية آمنة، لتأخذ في الانتشار الأفقي في قلوب البشر؛ لذلك أمر الرسول ﷺ وأمر المؤمنون بقراءة القرآن لتمتلئ نفوسهم وليقوى يقينهم بتلك الحقائق الكبرى. ومن البدهي أن تكون معرفة التصور الحق هي التي تجعل هذه الأمة الوسط مؤهلة لتكون خير أمة أخرجت للناس، إن القراءة توجب تفاعل العقل المولد للفكر في مختلف الميادين على أسس هدايات الوحي)[١].

وعلى العموم فإن المطلوب قراءة واعية يترتب عليها نظر ثاقب وفهم سديد وبناء فكري قويم صالح لأن يكون أرضية صلبة لعلم راسخ يترتب عليه عمل متزن يؤدي الغرض، ويوصل إلى الهدف، لذا فقد حث القرآن على العلم والقراءة والترتيل الموصلة إليه في أكثر من سبع مئة موضع في القرآن الكريم. وحذر من أن تكون العبادة على حرف حيث يقول تعالى: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ"(الحج:١١).

---

[١]- الدغامين، زياد، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، ص٨٠.

وبذلك يسمو بالعقل الإنساني من كونه عقلاً مسلماً مقلداً إلى شعلة متقدة، وطاقة محركة، وباعث على البحث والكد والعمل، وتصنع من المسلم زمرة معارف متحركة[1].

ثالثاً: تحفيز القرآن على استخدام الآلات المعينة على التدبر والفهم:

لم يكتفِ القرآن الكريم بإثارة الدافعية لتدبره وفهمه وقراءته بل تجاوز ذلك إلى تعليمه أهله كيف يستخدمون ما آتاهم الله من وسائل ليقوموا بتلك العملية؛ لذا فالقرآن مليء بالآيات التي تثير الحواس وتعملها في النصوص القرآنية وما أشارت إليه من قضايا عقدية وتشريعية وكونية وتاريخية وأخلاقية متفرقة، فكثيرة هي الآيات التي رمزت إليها، يقول تعالى: "قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ" (يونس:١٠١)، ويقول: "وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ"(الأعراف:٢٠٤)، ويقول: "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ"(البقرة:٢١٩). وليس هذا فحسب، بل إن القرآن يقرر المسؤولية عن تلك الحواس الثلاثة وضرورة توظيفها واستخدامها بما يتناسب مع تلك المسؤولية العظمى حيث يقول تعالى: "إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولاً"(الإسراء:٣٦)، وهذه المسؤولية من شأنها أن تشكل ضابطاً وحارساً أميناً لذلك المنهج الذي اختاره الله لتؤدى بواسطته وظيفة الخلافة في الأرض والتي اختص بها بل كرم بها آدم -عليه السلام- وذريته، قال تعالى: "وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلاً" (الإسراء:٧٠).[2] وإن المتدبر للقرآن والمستقرئ لإيراده للآيات التي ذكرت العقل وأشارت إلى ضرورة استخدامه في التفكر والتأمل، والآيات التي ذكرت المنافذ الموصلة إلى العقل والتي تعد وسائل مساعدة له في ذلك (السمع والبصر) يتبين له ما يلي:

١- **إن هذه الآيات في معظمها ذكرت العقل ووظائفه**، وذكرت السمع والبصر في صيغة الفعل مما يدل على التجدد والاستمرار والتكرار وإثارة الدافعية، فنجد القرآن يقول: (أفلا ينظرون)، (قل انظروا)، (فاستمعوا)، (أفلا يسمعون)، (أولم يتفكروا)، (لعلهم يعقلون)، (وليذكرَ أولو الألباب)، وغير

---

[1]- ينظر: خليل، عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، ط٥، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ١٩٩٥، ص٥٦-٦٠.

[2]- ينظر: المصدر السابق، ص ٧٢-٧٥.

ذلك، وهذا ما حاز به القرآن قصب السبق وتميز به عن ما سبقه من موروثات الجاهلية، وفي ذلك يقول الدكتور راشد مبارك في ما نقله عنه الأستاذ الغزالي: (هناك ظاهرتان: الظاهرة الأولى: هي أن مادة فكر لم تكن ذات تكرربل ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي شعره ونثره. ومع الإدراك التام أن عدم وجود هذه المادة لا يعني انتفاء ورود مدلولها أو إعمال هذا المدلول، إلا أن ذلك لا يكفي لإسقاط الدلالة في تلك الظاهرة أو استشكالها. فهي وعاء الفكرمكتوباً أوملفوظاً. الظاهرة الثانية: تكرر ملفت للنظر لمادة فَكَرَ، بلفظه أو معناه، حيث وردت هذه المادة بصيغة الماضي أو المضارع في نحو ثمانيةَ عشرَ موضعاً، وجاءت الدعوة إلى النظر بمعنى الفكر والتأمل في أكثر من أربعة وثلاثين موضعاً)[١].

وهذا الكلام إن دل على شيء إنما يدل على أن القرآن بعث الحياة في ذلك الخليفة، ووجه طاقاته بما يناسب ما أوكل له من مهام فلم يرد القرآن من الإنسان أن يكون مجرد آلة تُنفِّذ، ولكن أراده ذا بصرٍ نافذ، وسمعٍ مدركٍ، وعقلٍ واعٍ مميزٍ فاعلٍ مؤثرٍ يأخذ ليعطي ويتفاعل ليفعل، ويحيا ليحيي، وهذا هو مفهوم العبادة التي أرادها الله ممن اختصه بها، فهي ليست مقصورة على كونها طقوس ضيقة تقليدية تؤدى في أوقات معينة في اليوم والليلة أو في مواسم مختلفة، بل هي الحياة بأسرها[٢].

٢- **إن تلك الآيات منبثة في قسمي القرآن المكي والمدني على حد سواء،** ومرتبطة بمعظم القضايا التي طرقها القرآن، ففي حديثه عن وجوب الاعتبار بالماضين يقول تعالى: "قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ"(الأنعام:١١)، وفي مجال التشريع يقول تعالى في حكمة تحريم الخمر: "يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" (البقرة:٢١٩)، ويقول في مجال النظر في الكون والتفكر في خلق السماوات والأرض والدعوة إلى استكناه أسرار ذلك الكون والوصول إلى أنها ما خلقت باطلاً: "إِنَّ فِى خَلْقِ

١- الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص٩٣.

٢- ينظر: خليل، عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، ص١٣٣.

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ"(آل عمران:١٩٠-١٩١). وفي مجال لفت النظر إلى النفس الإنسانية وأسرارها يقول تعالى: "وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (الذاريات:٢١) وغير ذلك من القضايا التي يضيق المقام عن حصرها وإحصائها.

إن انتشار تلك الآيات في قسمي القرآن المكي والمدني يؤكد أن القرآن يدعو إلى تدبره وفهمه ليصنع أمة نموذجية قادرة على أن تتقدم ركب الحضارة وتقود العالم عبر أجيال بما أوتيت من شمولية النظرة ووسائل النظر وإعمال الفكر.

وهذا هدف القرآن الذي تجلى بنزول أول آياته وترسخ عبر ثلاثةٍ وعشرين عاماً.

رابعاً: طرحُ القرآن لمسائل تستجلب إعمال وسائل الفكر والنظر:

إن دعوة القرآن إلى الفهم والتدبر وتحفيزه للوسائل الموصلة إليه والآلات المساعدة فيه، وإثارة الدافعية بالدعوة إلى القراءة والتعلم، أمور من شأنها أن تستحث الخطى إلى ذلك الكتاب المعجز الهادي فإن انضاف إلى ذلك أن القضايا التي طرحها القرآن لا تقبل أن تقف عند كونها مسلمات بل إنها تستجلب كافة وسائل الحس والإدراك والتحليل والذوق لتصول وتجول وتتدبر وتعتبر فذلك نور على نور، وهذا حقاً هو دأب القرآن الكريم وديدنه لذا نرى القرآن يلفت النظر إلى ما يخصنا ويحيط بنا من أشياء تحوي كنوزاً وأسراراً وتثير تساؤلات تستحث الأذهان وتثري الأفهام، فها هو يسترعي انتباه قارئه إلى نفسه التي بين جنبيه مبيناً أن الله أوجدها بعد أن لم يكن شيئاً مذكورا، ونقلها من طور وأودع فيها من أسرار عظيم خلقه ما من شأنه أن يبهر اللب، قال تعالى: "هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا"(الإنسان:١-٢)، ويقول: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ"(الروم:٨)، وهاهو يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الكون حتى يستطيع السير في ركبه ويتفكر في إتقان صنع الباري، فتارة يجوب معه في أرجاء الأرض، وتارة يحلق به في عنان السماء، وتارةً يركب معه البحر، وتارة يسير معه في ركب الأفلاك مسلماً زمام القيادة إلى القلب العقول واللسان السؤول، يقول تعالى: "إن فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ"(البقرة:١٦٤)، وليس هذا فحسب بل إن المنهج الذي وضعه القرآن ليكــون دستوراً للمكلفين بالإيمان به والعمل بمقتضاه ليس تعاليم جامدة تعسفية غير مفهومة، بل إنها واقعيــة حية مرهونة بحِكَم لمشروعيتها، وعلل تدور عليها، ويكفي أنها أعطت للعقل مساحة الاختيار، يقــول تعالى: "ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ"(العنكبوت:٤٥)، فالصلاة والتلاوة فيها ما فيها من التربية وضبط النفس، وغير ذلك من الحكم، ثم إن خاتمة الآية بــ (والله يعلم ما تصنعون) دليل علــى أن الإنســان مخير في ما يصنع والله رقيب عليه، فعلمه بما يصنع صفة كشف لا صفة تأثير، و يترسخ هذا المعنى بقوله تعالى: "إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا"(الإنسان:٣)، ومما يلاحظ: أن تلك القضايا خاصة ما يتعلق منها بالكون والإنسان أثارها القرآن مع بدايات نزوله؛ لذا نجد العهد المكي من القرآن يحفل بتلك القضايا ويستثير العقل والحواس للتدبر فيها وربطها بالسنن الإلهية في الكون والمجتمع وربــط تلك السنن بالمصير المحتوم. أما القسم المدني من القرآن فنجده يحوي كثيراً من الآيات التي تبين حكم التشريع وتلفت النظر إلى تدبرها وإعمال الفكر في آيات ضرب الأمثال التي لا يعقلها إلا العالِمون.

وفي ذلك ترسيخ للإيمان بالمنهج الذي من شأنه أن يضبط مسلك الأفراد والجماعات في إطار ما أراد الله بما يتناسب مع سننه وقوانينه[١]. والحقيقة أن البشر كلما ازدادوا تقدماً وتجديداً في الصــناعة والعلوم التي يسرها الله لهم كانوا أكثر حاجة إلى أمرين أساسيين:

(الأمــر الأول: احتياجهم إلى التدبر في تركيب القرآن وترتيبه في شكله المعجز ثم فــي ارتبــاط مقاصد السنة بمقاصده، وبذلك يكتشفون النظام الواحد في منهج البحث العلمي كما يسره الله تعالى لهم في آياته الكونية.

---

[١]- ينظر: الدغامين، زياد خليل، منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد٣٢، العدد ١، ٢٠٠٥، ص٢٠١ – ٢٠٢.

الأمر الثاني: هو أنهم بحاجة إلى أن يتعلموا كيف يربطون بين معنى التجدد والتقدم ومعنى السعادة الإنسانية التي لا تقوم لها قائمة ما لم نستلهم روح القرآن والسنة، وروح الكون الذي سخره الله لنا حيث وصلنا الله بنعمه على أفهامنا كما تمت بذلك شريعته واكتمل دينه، ووصلنا بنعمه على أجسامنا كما يسر لنا أنواع الرزق في كون متحدٍ متآلف، لا تناقض فيه ولا تفاوت ولا صراع ولا حيرة ولا ضلال إلا بالبعد عن طاعة الله ورسوله**)**[١].

من هنا جاءت أهمية السنة النبوية بوصفها المبينة لوحي السماء بل إنها وحي السماء بعينه، قول تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ"(النجم:٣-٤). إذ إن القرآن وصلنا عن طريق معلمٍ هادٍ بشير، وسراجٍ داعٍ إلى الحق منير. إنه المصطفى محمد ﷺ الذي ترجم القرآن واقعاً عملياً وسلوكاً حياً، فما هو المنهج النبوي في فهم القرآن؟ وكيف يمكن الاستفادة من منهجه في التعامل مع القرآن الكريم فهماً وتخلقاً وتطبيقاً وصناعة حضارة؟!

---

[١] – العفيفي، محمد، مقدمة في تفسير الرسول –ﷺ– للقرآن الكريم، ص١٠٥.

المبحث الثاني

منهج الفهم النبوي للقرآن الكريم

لا يخفى ما للسيرة والأنموذج من الإسهام الفاعل في عملية الفهم والتربية، لذا اقتضت سنة الله عبر التاريخ البشري أن يرسل في كل أمة رسولاً ليوضح منهج الله الذي اختاره ليكون طريقاً لتحقيق وظيفة الخلافة في الأرض، وليحقق حجة الله البالغة على عباده، يقول تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ"(النحل:٣٦)، ويقول: "إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ"(فاطر:٢٤-٢٦)، وإن القرآن بوصفه آخر الكتب السماوية وصفوة منهج الله ومعجزته الخالدة إلى قيام الساعة لا بد له من مترجم ومطبق ومعلم؛ لذا كان اصطفاء الله لمحمد ﷺ ليكون رحمته للعالمين، ونبراس هدايته الذي جسد بقوله وعمله ما حوى منهج الله من تعاليم، ثم إن الفهم النبوي للقرآن الكريم يعد عاملاً مساعداً بشكل كبير في فهم القرآن نفسه، ولتوضيح هذا المفهوم سيتم تناول المحاور التالية:

١. ارتباط السنة بالقرآن الكريم.

٢. منهج النبي ﷺ في فهم القرآن الكريم المتمثل في أقواله وأفعاله وأسس ذلك الفهم.

مدعمة كل محورٍ بالآيات والأحاديث الدالة عليه، والمبينة للفكرة المراد طرحها فيه:

١- ارتباط السنة بالقرآن الكريم:

إذا كان الرسول ﷺ هو المبلغ عن الله -عز وجل- فلا بد أن يكون لسنته ودأبه ارتباط وثيق بما أمر بإبلاغه قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ"(المائدة:٦٧). إذ إن وظيفة رسول الله ﷺ لا تقتصر على نقل كلمات الله فحسب، بل تتجاوز ذلك

إلى الأخذ بيد الأتباع نحو القيام بمتطلبات هذا المنهج ومقتضياته، منطلقين مما حوته تلك الألفاظ من معانٍ فيها من التربية والخلق ودعائم بناء الحضارات ما يفوق الوصف ويعجز مداد البشر عن بيانه.

وإن في قوله تعالى: (وإن لم تفعل) تأكيداً لهذا المعنى، إذ إن المطلوب من مُبلغ القرآن الكريم أن لا يقف عند كلماته بل يتجاوز ذلك إلى فهم معانيه والعمل بمقتضاه يقول تعالى: "كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ"(البقرة:١٥١)، وبهذا تتحقق النعمة المرجوة من إرسال محمد ﷺ. ويمكن إجمال جوانب الارتباط بين السنة والقرآن الكريم بما يلي:

١ ــ **الارتباط المصدري:** ويعني ذلك أن كليهما وحي من الله –عز وجل– قال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡىٌ۬ يُوحَىٰ"(النجم:٣-٤)، هاتان الآيتان وإن تحدثتا في سياقهما عن القرآن بوصفه موحىً به إلى رسول الله ﷺ إلا أنهما لا تمنعان أن تكون السنة الموضحة للقرآن الكريم وحياً من الله–عزوجل–أيضاً، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"[١].

ومما يؤكد ذلك أيضاً أن هناك أحاديث صحيحة واردة عنه ﷺ توضح ما كان عليه السابقون وتشير إلى مستقبل هذا الدين وتتحدث عن الساعة وغيرها من أمور الغيب، فأنّى لنبي أمي أن يأتي بذلك من تلقاء نفسه؟! ولو تم استقصاء تلك الأحاديث لطال المقام فإنها أكثر من أن تحصى[٢].

ولا تفوت الإشارة إلى أن حياة رسول الله ﷺ بما حوت من أحداث لتوضحُ أن كثيراً من سلوكياته وقراراته كانت بموجب وحي رباني كزواجه من زينب بنت جحش –رضي لله عنها–بعد أن قضى زيد منها وطراً ليؤكد تحريم القرآن للتبني يقول تعالى: "وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِى فِى نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن

---

[١]– أخرجه أبو داود: سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محي الدين، دار الفكر، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم ٤٦٠٤.قال الشيخ الألباني:صحيح.

[٢]– ينظر: العفيفي، محمد، مقدمة في تفسير الرسول للقرآن الكريم، ص٥-٦.

تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولاً "(الأحزاب:٣٧)، فلا بد إذاً أن يكون من نزل عليه القرآن موجهاً من قبل منزل القرآن نفسه بما يقول ويفعل، إذ ليست رسالة محمد ﷺ مقصورة على إبلاغ القرآن فحسب بل إنها تتجاوز ذلك إلى تعليم كيفية تناول القرآن الكريم وفهمه وترجمته في واقع الحياة، ويتجلى ذلك من خلال الخصائص المشتركة للكتاب والسنة الصحيحة كالشمول واليسر والتوازن[١].

٢- **الارتباط التبييني:** ويعني ذلك أن وظيفة الرسولﷺ التي قام بها خلال ثلاثة وعشرين عاماً تكمن في توضيح القرآن الكريم بتفصيل مجمله، وتقييد مطلقه، وتخصيص عامه، يقول تعالى: "وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ " (النحل: ٦٤)، ومن بيان السنة النبوية للقرآن الكريم: التفويض الشامل الذي أعطاه الله لمحمد ﷺ بالتشريع، يقول تعالى: "وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ "(الحشر: ٧)، فهذا ابن مسعود يلعن الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فتسمع به امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك؟ أنك قلت كذا وكذا، وذكرته، فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب لله فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته! قال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. قال الله-عز وجل-: "وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ"(الحشر:٧)[٢].

وهذا يدل على أن ما أمر به رسول الله ﷺ إنما هو وحي يفسر وحياً، وإن الناظر في أحاديث المصطفى ﷺ يلاحظ أن كثيراً من الآيات القرآنية جاءت مجملة؛ فلم يتطرق القرآن إلى كيفية الصلاة، وتفصيل مناسك الحج، وأحكام الزكاة، بل أشار إليها باقتضاب فوضحتها السنة.

وخلاصة القول إن تبيين السنة وتوضيحها لكثير مما جاء في القرآن الكريم لا يدل فقط على اتحاد المصدر، إنما يدل أيضاً على أن رسول الله ﷺ مخول بإبراز ما في القرآن من الهدايات وتوضيح ما غمض من معاني الآيات، ولولا هذا ما نشأ جيل قرآني فريد يعد بلا شك مدرسة لمن شاء أن يتربى على مائدة القرآن، وهنا تتجلى المنة الإلهية بأن اصطفى للبشر رسلاً منهم، يقول تعالى: "

[١]- ينظر: القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص٢٥.

[٢]- أخرجه النسائي: أحمد بن شعيب، المجتبى من السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م، كتاب الأشربة، باب ذكر الدلالة على النهي للموصوف من الأدعية التي تقدم ذكرها، رقم ٥٦٤٣.

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ"(آل عمران:١٦٤).

٣- **الارتباط المقاصدي:** إن الهدف والمقصد من إنزال جميع الرسالات هو تحقيق عبادة الله في أرضه والقيام بمهام الاستخلاف هو عينه الهدف الذي جاء به القرآن الكريم ودعا إليه، فهو كتاب هداية وإرشاد، ومنهج حياة، وقوام بناء حضارات. ومعلوم أن السنة النبوية جاءت لتترجم تلك المقاصد وتحيي رسالة القرآن من خلال سنة محمد ﷺ القولية والفعلية وجهاده الدءوب- منذ بعثته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى- من أجل فكرته وتربيته لخير القرون والذي حمل على عاتقه ترسيخ تلك المقاصد. (والطريق الذي سلكه الرسول ﷺ في التفسير تبياناً لكتاب الله تعالى يحقق مهمته التي تجلت في قوله تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "(النحل:٤٤)، ومن ثم فهو منهج يقصد إلى تجسيد هداية الله تعالى في أرض الواقع، ويعبر في مفهومه ومنطوقه عن بعث العقل للتفكير في استمرارية استصحاب الوحي لاحتواء متغيرات الواقع، والهيمنة على قضاياه ومستجداته، ولإثبات كونه منهج هداية يفي بحاجات البشر على ممر العصور)[1]

ويتجلى ذلك من خلال تتبع الأحاديث النبوية التي توضح الغايات والمقاصد النبيلة التي جاء بها القرآن، فعندما قال ﷺ: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"[2] فإنه بذلك يترجم مقصداً قرآنياً وهو أن فضائل الأخلاق هدف يجب تحقيقه بكل الوسائل، إذ هو قوام الحضارة. وحينما يقول ﷺ: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"[3]، يؤكد تكريم القرآن للإنسان الذي اختير لتحقيق مقصد مهم من مقاصد وجوده وهو عبادة الله والقيام بمهام الخلافة، وهذا المقصد هو الذي هدف إليه القرآن والسنة بوصفهما المنهج الذي سيحتذيه ذلك الخليفة. يقول د.العفيفي في دلالة قوله تعالى: " تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا"(الفرقان:١)على الوحدة المقاصدية بين القرآن والسنة: (في هذه الآية ربط واضح بين القرآن والسنة، ولكنه ربط يقوم على المقاصد، لا على التكوين الشكلي، فقوله تعالى: " تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ "يبين لنا أن القرآن

---

[1]- الدغامين، زياد، ترشيد الرسول -ﷺ- مسيرة الصحابة في فهم القرآن والعمل به، مجلة حولية الشريعة الإسلامية، جامعة قطر، عدد ١٧، ١٩٩٩م، ص١٧١.

[2]- أخرجه أبو داود: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٦٨٢.

[3]- أخرجه البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ضبط نصه وعلق على حواشيه: عبد الخالق علام، دار صبح، لبنان، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم ٤٤٠٣.

بتركيبه ومقاصده متنوع المباني والمعاني والتراكيب والمواضع، فهو الفرقان الذي يفرق بين كل ما هو حق وما هو باطل بما يناسب استطاعة البشر، وهي أنهم ينظرون في الأجزاء المتفرقة في أشكالها، المترابطة معانيها ومقاصدها في عقولهم وأفكارهم. أما قوله تعالى: " عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا " فهو متضمن الإشارة إلى السنة التي هي تطبيق للقرآن في جملته وتفصيله، على سائر أعمال الرسول ﷺ وأقواله التي صدقت بها السنة قوله تعالى: " لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ")[١]، وهكذا يتضح أن القرآن الكريم والسنة النبوية جسم واحد، إذ هما يلتقيان بوحدة المصدر ومنهج التربية والبناء، من خلال تبيين السنة للقرآن الكريم ووحدة الهدف والمقصد، قال تعالى موضحاً امتنانه على أمة الإسلام برسالة محمد ﷺ: " قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا " (الطلاق:١٠-١١).

المنهج النبوي في فهم القرآن الكريم:

وبعد أن تمت الإشارة إلى ذلك الارتباط الوثيق بين القرآن والسنة النبوية تبدت الحاجة للإشارة إلى نماذج توضح فهم النبي ﷺ للقرآن الكريم، فبالمثال تتجلى الفكرة ويزول الإشكال.

إن صحيح الأحاديث النبوية وما صح نقله من أحداث سيرة المصطفى ﷺ يشكل منهجاً قولياً وعملياً يوضح الفهم النبوي للقرآن الكريم، فهو المعلم الأول، والمبلغ الرئيس عن الله -عز وجل- إلى البشرية، إذاً فلا بد أن يستقي من ينبوعه كل من أراد أن يتربى أو يربي على منهج الله.

ويمكن القول إن الفهم النبوي للقرآن الكريم ارتكز على دعامتين رئيستين:

١- **الأحاديث القولية التي يفهم منها تفسير آيات من القرآن الكريم:** إن المتبحر في ما صح من أحاديث الرسول ﷺ التي تفسر القرآن الكريم يلاحظ أنها قليلة إذا ما قيست بعدد آيات القرآن الكريم وما حوته من المعاني التي لا تنضب. ومن جملة تلك الأحاديث: ما ورد في فهم عدي بن حاتم الطائي من قوله تعالى: "وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ

---

[١]- العفيفي، محمد، مقدمة في تفسير الرسول ﷺ للقرآن الكريم، ص٤٦.

أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ" (البقرة:١٨٧) فقد فهم الخيط الأبيض والأسود على حقيقتهما حتى بين لـــه عليـــه الصلاة والسلام أن المراد بياض النهار وسواد الليل[١].

وفهم الصحابة أن المراد بالظلم في قوله تعالى: "ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ "(الأنعام:٨٢) ظلم النفس بالمعصية، ومن ذا الذي يسلم من ذلك؟ فشق ذلك على الصحابة، وقالوا أينا لا يظلم نفسه!؟ فبين عليه السلام أن المراد بالظلم هنا هو الشرك مستدلاً بقـــول لقمان لابنه:"إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ"(لقمان:١٣)[٢].

وفي خلافة أبي بكر – رضي الله عنه– صعد المنبر وقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هـــذه الآيـــة وتتأولونها على غيـــر وجههـــا "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ" (المائدة:١٠٥) وإني سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده"[٣].

ومما يلاحظ أن تلك الأحاديث وردت في سياق تصحيح الرسول ﷺ فهماً خاطئاً تبادر إلى أذهان أصحابه جراء سماعهم للآية القرآنية التي ذكر الحديث بصددها.

ولا تفوت الإشارة هنا إلى أن هذه الأحاديث لا يفهم منها أنها هي التفسير الوحيد للآية، بل يبقـــى المجال أمام العقل مفتوحاً للتدبر، ففي قولـــه تعـــالى: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ " (الأنفال:٦٠) ورد قوله ﷺ: "ألا وإن القـــوة الرمـــي"[٤]. ولا يمكن أن يتصور ذو عقل رشيد أن هذا التفسير يعد عائقاً أمام استخدام ما توصل إليه العلم الحديث من أدوات الحرب كالصواريخ والطائرات والدبابات في جهاد الأعداء.

---

[١]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله تعالى:"وكلوا واشربوا..."، رقم ٤٥٠٩.

[٢]- أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى:"ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..."، رقم ٤٧٧٦.

[٣]– أخرجه ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٨، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٠٠٥.

[٤]- أخرجه مسلم : ابن حجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم ٤٩٤٦.

٢- **الفهم العملي للقرآن الكريم:** ويتجلى ذلك من خلال تتبع سيرة المصطفى ﷺ ودراسة سلوكياته وأخلاقه، ولا أدل على ذلك من قول السيدة عائشة -رضي الله عنها- في وصف خلق النبي ﷺ: "كان خلقه القرآن"[١].

ويمكن توضيح الترجمة العملية للقرآن الكريم في واقع حياة رسول الله ﷺ بما يلي:

"أ" ما ذكره الصحابة من كيفية تعامل رسول الله ﷺ مع القرآن الكريم وتلاوته له: عن حذيفة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قرأ البقرة و آل عمران في ركعة لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استجار"[٢]وعن أبي ذر -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قام حتى أصبح بآية والآية: "إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ "(المائدة: ١١٨)[٣].

هذه الأحاديث وغيرها تدل على أن النبي ﷺ كان وقافاً عند آيات كتاب الله تعالى وكان خلقه القرآن، وأن كثيرين من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مصاحف حية تمشي على الأرض.

"**ب**" ما ذكره الصحابة من سلوكيات رسول الله ﷺ والتي تترجم آي القرآن الكريم وأوامره وتعاليمه واقعاً عملياً حياً ومنها:

التزامه بالدعاء في كل شأن من شؤون حياته، فكان إذا واجه الأعداء دعا، وإذا هبت الريح دعا، وإذا دخل الخلاء أو قضى أياً من حوائجه دعا، وهذا ترجمة لكثير من الآيات التي توصي بالدعاء وذكر الله تعالى ومنها: "ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ " (الأعراف ٥٥).

"**ج**" حرصه على أن يكون أول المسارعين لتطبيق شرع الله وتنفيذ أوامره، ففي غزوة الخندق كان على رأس العاملين وأشدَّ الجائعين، وذلك تنفيذاً للواجب الذي ألقاه على عاتقه قوله تعالى: "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا " (الأحزاب:٢٠) وإذا أمر بصدقة كان أول المتصدقين، حيث يروى أنه تصدق بكل ما يملك قبل وفاته، فقد أعتق غلمانه

[١]- أخرجه الإمام أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، تعليق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، رقم ٢٤٦٤٥، (حديث صحيح).

[٢]- أخرجه النسائي: كتاب الافتتاح، باب مسألة القارئ إذا مر بآية رحمة، رقم ١٠٠٩.

[٣]- المصدر السابق: باب ترديد الآية، حديث ١١١٠.

وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ووهب للمسلمين أسلحته[١]. وبالجملة فإن حياته ﷺ وتعامله مع مــن حوله من الصحابة والأعداء مرشداً وداعياً ومجاهداً يؤكد أنه كان بحق المثل الأول للقرآن الذي يمشي على الأرض بكل ما تحمله العبارة من معنى. ولا بد أن التزام الرسول ﷺ بالعيش في كنف القــرآن الكريم لم يكن اعتباطياً أو غير منضبط بل إنه بلا شك سطر في أمجاد التاريخ نماذج تؤكــد أحســن الفهم لكتاب الله.

ولا يستقيم المنهج بمجرد كونه أفكاراً وتعاليم قابلة للتنفيذ بل يجب أن تكون منطلقة من أســس متينة ومنضبطة بضوابط واضحة حتى يمكن العمل بها، وهذا ما امتاز به فهمه ﷺ لكتاب الله، ومــن أهم أسس الفهم النبوي للقرآن*:

١- **تقديم العمل بالنص الصريح على الاجتهاد:** ويعني ذلك أنه لا يجوز الاجتهــاد فــي الفهــم والتفسير طالما أن هناك نصاً صريحاً يوضحه، خاصةً إذا كان هذا النص آية قرآنية قطعية الدلالة أو حديثاً صحيحاً صريحاً، إذ إن التأويل غير المنضبط قد يوقع في متاهات، فإن معاني الــوحي غيــر محدودة، لذا كان النص الصريح موضحاً حجة الفهم، وهذا مسوغ قوي للعمل به وفهم الفكرة وفقــه، وحسبنا القول إن الاجتهاد لا يعدو كونه جهداً بشرياً قابلاً للخطأ والصواب، أما الوحي فهو من علــم الله المحيط بالأشياء وتقديره للحكمة المرجوة منها، فأين هذا من ذاك!؟

ومثال ذلك: فهم عمر -رضي الله عنه- أن قبول صلح الحديبية دنية في الدين حيث قال لرسول الله ﷺ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَــى». قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِني رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ نَاصِرِى»[٢]. ذلــك أن عموم الآيات القرآنية تدعو إلى عزة المسلم بدينه يقول الله تعالى: "مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا" (فاطر:١٠) لكن الرسول ﷺ لم يأبه باعتراض عمر وواصل إبرام الصلح لأنه وحي مــن الله والحكمــة تقتضي ذلك، قال عمر: فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلتُ لقد خشيت أن يكون قد نــزل فيَ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: "لقد أنزلت علَيَ الليلة سورة لهي أحب إلــيَ ممــا

---

[١]- المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٠م، ص٤٢٩

* أفيدت عناوين أسس الفهم النبوي من بحث للأستاذ الدكتور زياد الدغامين تحت عنوان: ترشيد الرسول ﷺ مسيرة الصحابة في فهم القرآن والعمل به.

[٢]-أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم٤٨٣٣.

طلعت عليه الشمس ثم قرأ:"إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا " (الفتح ١-٣)[١].

فقد اتضح بالوحي الصريح أن صلح الحديبية ليس قبول الدنية في الدين بل هو الفتح المبين.

٢- تجاوز النظر السطحي القاصر في القرآن الكريم:

لا يقصد بهذا عدم الوقوف عند ظاهر النص فإن ذلك مذموم، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ للسيدة عائشة -رضي الله عنها- بعد أن تلا قوله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ" (آل عمران:٧) قال: "يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم"[٢].

وإنما المقصود ضرب النصوص بعضها ببعض، والفهم الذي يستقى من نص فيخالف نصاً آخر. فكما أن ليّ عنق النص وتجاوز ظاهره يؤدي إلى الانحراف في الفهم، فإن القصور والسطحية في فهم النص بعيداً عن مقاصد القرآن ومناقضاً لنصوص أخرى من شأنه أن يؤدي إلى الانحراف ذاته، ومثال ذلك: فهم عدي بن حاتم لربط الصوم والفطر باستبانة الخيط الأبيض من الأسود بأن أتى بعقالين فجعلهما تحت وسادته وجعل يستبين من الليل فلا يتبين له، فغدا إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال: "إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار"[٣]. لقد وضح رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم أن الله لم يعن بالخيط ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن مما هو مستخدم في الحياة اليومية، فإن اللغة تقبل أن ينطبق الخيط الأبيض على النهار والأسود على الليل، وفي هذا إشارة إلى حرص الرسول ﷺ على توسيع مدارك الصحابة والارتقاء بأفق فهمهم لكتاب الله بما يتناسب مع ظاهر النص القرآني وكونه بلسان عربي مبين.

---

[١]- المصدر السابق: كتاب التفسير، باب "إذ يبايعونك تحت الشجرة"، رقم٤٨٤٤.

[٢]- أخرجه البخاري: المصدر السابق، كتاب التفسير، باب (منه آيات محكمات)، رقم ٤٥٤٧.

[٣]- سبق تخريجه.

ومثال ذلك أيضاً توضيح رسول الله ﷺ للصحابة كيفية الإيمان بالقدر وأن ذلك لا يتعارض مع العمل، فقد خرج على الصحابة وهم يختصمون في القدر فاحمر وجهه حتى كأنما فقئ فيه حب الرمان فقال: "بهذا أمرتم؟ أم لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم"[1].

ولما سأله الصحابة أنتكل على كتاب ربنا وندع العمل؟ قال "اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق لـه"[2]. وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: "وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا " (الشمس:٧-٨)، وقوله: "فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ "(الليل:٥-٧) فلا يمكن أن يكون الإيمان بالقدر ملغياً للسنن والقوانين التي أودعها الله وألزم البشر بها لعمارة الأرض والقيام بمهام الخلافة فيها.

٣- تفسير القرآن بالقرآن:

لقد علمنا رسول الله ﷺ أن القرآن كل متكامل يفسر بعضه بعضاً، فلا يجوز فهم آية مستقلة بذاتها إلا بعد استقصاء القرآن كاملاً حيث يوجد فيه ما يوضحها من الآيات، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ تعقيباً على قوله تعالى: "وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ" (الأنعام:٥٩) مفاتح الغيب خمس ويقرأ قوله تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ "(لقمان ٣٤)[3].ومنه أيضاً تفسيره ﷺ للحساب اليسير الوارد في قوله تعالى: "فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا "(الانشقاق:٨) بالعرض الوارد في قوله تعالى: "يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ "(الحاقة:١٨) فعن

---

[1]- أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم٢٨١٣.

[2]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح ، كتاب التفسير، باب (ولقد يسرنا القرآن للذكر)، رقم٤٩٤٩.

[3]- أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب(وعنده مفاتح الغيب)، رقم٤٧٧٨.

عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ: "ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: يا رسول الله جعلني الله فداءك أليس يقول الله: "فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا "(الانشقاق:٨) قال ﷺ: " ذلك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك"[١].

لذا كانت الحاجة ملحة للتفسير الموضوعي الذي يقوم على استقراء شامل للقرآن الكريم وهذا ما أرسى دعائمه المعلم الأول محمد ﷺ.

٤ – النظر في السياق:

إن النظر في السياق من أهم أسس التفسير الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ من خلال هديه، والمقصود بالسياق: الموضوع الذي سيقت لأجله جملة من الآيات، فلا يجوز فهم آية بمعزل عما يجاورها، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ لحفصة –رضي الله عنها– : "لا يدخل النار من أصحاب الشجرة أحد، فاعترضت حفصة –رضي الله عنها– مستدلة بقوله تعالى: "وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا "(مريم: ٧١) فانتهرها وأرشدها إلى ضرورة فهم السياق الذي وردت فيه مستدلاً بالآية التي تليها "ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا"(مريم:٧٢)[٢]، فإن تجريد الآية من سياقها يلحق خللاً واضحاً في المعنى.

٥– فهم القرآن في ضوء السنن الإلهية:

معلوم أن القرآن هو الكتاب الذي حوى قوانين الله في الكون والمجتمع، لذا يجب فهم القرآن الكريم وفق تلك السنن والقوانين حتى تستقيم العلاقة بين المنهج ومهمة القيام به والعمل بمقتضاه. وقد علمنا رسول الله ﷺ من خلال أحاديثه الكثيرة التي تستند إلى آيات قرآنية مراعاة السنن الإلهية عند تدبر آي القرآن، ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم من قول رسول الله ﷺ: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" ثم تلا قوله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٌ

[١]- أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قال مجاهد، رقم ١٠٣.

[٢]– أخرجه مسلم: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة، حديث ٦٤٠٤.

شَدِيدٌ "(هود:١٠٢)[١] وفي ذلك إشارة إلى سنة الله في إهلاك الظالمين حيث جلّى رسول الله ﷺ هذه السنة من خلال تعليقه على الآية واستدلاله بها.

٦- مخاطبة الناس بالقرآن على اختلافهم وبقدر عقولهم:

تتفاوت قدرات البشر وتختلف طرائقهم في فهم القرآن الكريم، ففهم العامي يختلف عن فهم العالم، وفهم كل عالم يختلف باختلاف المجال العلمي الذي برع فيه، وهذا يدل على عموم رسالة القرآن، ومخاطبته للعام والخاص. وقد وضح هذا المعنى رسول الله ﷺ في تفسيره للقرآن حيث ورد أنه خط خطاً ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: "هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه"، ثم قرأ: "وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ"(الأنعام:١٥٣)[٢]. وهذا منهج تربوي يعمق فهم القرآن الكريم بطريقة قريبة سلسة بعيدة عن ديدن المناطقة وعلماء الكلام الذين ينأون بفهمهم عن روح القرآن وعالميته ويسره وشموله.

وبعد، فإن هذه بعض الأسس التي علمنا إياها رسول الله ﷺ من خلال منهجه في فهم القرآن الكريم، ولا ريب أن المتدبر في الأحاديث التي وردت في تفسير النبي ﷺ لآي من القرآن قد يلوح له ضوابط وأسس أخرى، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فحري بقارئ القرآن ومفسره أن يتأسى بالمنهج النبوي، وبذلك يبقى القرآن صافياً مما قد يعكر صفوه ويكدره.

أما عن الصحابة وهم تلاميذ الرسول ﷺ فصحيح أنهم جيل القرآن الأول وتلاميذ المدرسة النبوية، إلا أن هذا لا ينفي أن يكون لهم اجتهادهم في فهم كتاب الله، فقد فتح رسول الله ﷺ هذا الباب أمامهم بدعائه لابن عباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[٣]، وإن ما نقرأ في الكتب مما صح من الاختلاف في فهم آيات عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة لهو خير دليل على ذلك، لذا فالسؤال الذي يطرح نفسه: هل قول الصحابي في القرآن الكريم ملزم؟

عد كثير من علماء التفسير مرويات الصحابة من قبيل التفسير بالمأثور، ولعل هذا يقبل إذا كانت تلك المرويات مما نقلوه عن رسول الله ﷺ، أما ما توصلوا إليه بفكرهم واجتهادهم ونظرهم في كتاب

---

[١]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة"، رقم٤٦٨٦.

[٢]- أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع السنة، رقم١١.

[٣]- أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبدالله بن عباس، رقم ٦٣٦٨.

الله فلا يعد من هذا القبيل، إذ يبقى اجتهاداً خاضعاً لدائرة الصواب والخطأ، إلا أن معاصرة الصحابة للوحي، وقربهم من نور النبوة، وتميزهم بالصلاح وحسن السيرة والسريرة، وشهادة رسول الله ﷺ لهم بأنهم خير القرون، وسليقتهم العربية وغير ذلك مما ميزهم عن غيرهم ممن جاء بعدهم يعد من دواعي زيادة الثقة في ما توصلوا إليه.

ومما يجب التنبيه إليه أن قبول ما توصل إليه الصحابة نتاج اجتهادهم على أنه مسلمات، يتنافى مع خلود القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان، وأنه كتاب لا تنقضي عجائبه حيث إن النظر في القرآن واستكناه ما حوى من علوم وتعاليم ليس حكراً على شخص بعينه، وهذا دليل على مرونة القرآن وواقعيته وشمول هدايته لكل من خوطب به على اختلاف توجهاتهم الفكرية وميولهم العلمية إلى قيام الساعة. وهذا يؤكد أن القرآن كتاب خالد معجز ولسان حق يهدي إلى سواء السبيل مصداقاً لقوله تعالى: "وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ "(النمل:٩٣) وقوله:

"سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ"(فصلت:٥٣).

ويمكن القول في الختام إنه لا قداسة إلا للوحيين وما سوى ذلك فهو اجتهاد يؤجر صاحبه، وإن النظر له بعين القداسة يعد صارفاً عن فهم القرآن وهذا يتنافى مع المزية التي وهبها الله للعقل البشري، والدعوة– التي صدحت بها آيات كثيرة– للنظر وإعمال الفكر، والله أعلم[١].

[١]- ينظر: الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص٢٠٨-٢٠٩.

المبحث الثالث

مفاهيم ومداخل للدراسة

لا شك أن تدبر القرآن وفهمه والتأسي بمنهج رسول الله ﷺ في ذلك قد تعترضه حواجز تعكر صفوه وتحول دون بلوغ الغاية المرجوة؛ لذا جاءت هذه الدراسة التي تدور حول تلك الصوارف التي من شأنها أن تشكل حاجزاً يعترض طريق الفهم الواقعي العملي الحركي للقرآن الكريم، وقبل الخوض في تلك الصوارف لا بد من التعرف على دلالات الألفاظ التي ساقها القرآن والتي تلفت النظر إلى مصطلح الصرف وما هو قريب من معناه حتى يتسنى وضع تصور لكيفية تشكيل ما سيتم عرضه خلال تلك الدراسة حاجزاً يحول دون فهم كتاب الله.

وستتم دراسة تلك الألفاظ من خلال:

١- عرض المعنى اللغوي لكل لفظة.

٢- الإشارة إلى الآيات التي ذكرتها والسياق التي ذكرت فيه.

٣- مقارنة بين دلالات الألفاظ المختلفة التي طرحها القرآن الكريم.

٤- لماذا كان مصطلح الصارف هو المختار بوصفه عنواناً للدراسة دون غيره؟. ومما تجدر الإشارة إليه أن لكل لفظ من تلك الألفاظ شخصيته المستقلة ودلالته المتميزة، فلا يمكن أن تحل (صرف) محل (صد) أو (منع)، فلا للترادف في القرآن الكريم.

أولاً- الصدّ:

بالرجوع إلى كتب المعاجم ومفردات القرآن يتبين أن الصدّ هو بمعنى: المنع والصرف والإعراض.[1] أو هو ما يحول، يقول الراغب الأصفهاني: الصد من الجبل ما يحول، والصديد: ما حال بين اللحم والجلد من القيح وضرب مثلاً لمطعم أهل النار، قال تعالى: "مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ "(إبراهيم:١٦)[2]. وإن المتتبع لورود هذا اللفظ في القرآن الكريم يتبين له:

---

[1]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الدال، فصل الصاد. وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص-٥٤٣.

[2]- الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص٢٧٩.

أ- **أنها ارتبطت بسبيل الله في خمسة وعشرين موضعاً،** منها قولـــه تعـــالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ "(الأنفال:٣٦).

ب- **وبآيات الله في قوله تعـــالى:** "وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ "(القصص:٨٧).

ج-**بذكر الله فـــي قولـــه تعـــالى:** "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ"(المائدة:٩١).

د-**وبالكتاب في قوله تعـــالى:** "أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا" (النســـاء:٥٤-٥٥). والكتاب هنا ليس القرآن إذ إن الآيات تتحدث عما أنزل على آل إبـــراهيم من بني إسرائيل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضـــله وهـــو بعثـــة محمـــد ﷺ غيـــر الإسرائيلي، فلما كان المقصود بـــ "ما آتاهم الله من فضله" القرآن الكريم فهم أن الكتاب غيره.

هـــ - **وبالمسجد الحرام في قوله تعالى:** "وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (الأنفال: ٣٤).

وـــ **وبالنبي ﷺ إلا أنها وردت بالإضمار تارة وذلك في قولـــه:** "فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا"(النساء:٦٢) وفهمت من السياق تارة

أخـــرى فـــي قولـــه: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ" (المنافقون:٥).

ز- **وبالهدى في قوله:** "قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ " (سبأ:٣٢).

ح- **وبالساعة في قوله تعالى:** "إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ" (طه:١٥-١٦).

ط-وبالإيمان وذلك في سياقين، الأول: الحديث عن ملكة سبأ لما وجدت عرشها عند سليمان-عليه السلام- حيث صدها ما كانت تعبد من دون الله، وكونها من قوم كافرين عن الإيمان به بعد أن تبين لها أن ما جاء به هو الحق. قال تعـــالى: "فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ" (النمل:٤٢-٤٣). والثاني في سياق الحديث عن الشيطان وصده عن الإيمان والصراط المستقيم في قولـــه تعـــالى: "وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ"(الزخرف:٦١-٦٢). يقول ابن عاشور: "تحدثت الآيات عن التحذير مـــن أن يحصل صد الشيطان إياهم عن القرآن والدين الذي دعوا إلى اتباعه بقوله: "و اتبعون هـــذا صـــراط مستقيم" تنبيهاً على أن الصدود عن هذا الدين من وسوسة الشيطان".[١]

ويمكن القول إن تلك الآيات مجتمعة تتحدث عن قيام المشركين وأعداء الله بالصد عن كل ما من شأنه أن يغرس الإيمان بكافة أركانه في القلب.

---

[١]- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ج٥، ص٢٤٤-٢٤٥.

أما عن قوله تعالى: "وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ"(الزخرف:٥٧) فقد قرئت بالضم يصُدّون[1] ويستفاد من ذلك معنيان: الأول الإعراض الوارد في الآيات السابقة، **والثاني:** الضجيج، وذلك كما في قوله تعالى: "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ"(الأنفال:٣٥).[2]

هذا وإن الفعل يصد ارتبط بحرف الجر(عن) والذي يحمل معنى المجاوزة مما يدل على أن الصد يكون للنفس والغير، ويستثنى من ذلك الآية السابقة الذكر والتي ارتبط فيها الفعل ب(من) وهذا ما يرجح أن (يصدون) بمعنى يضجون كناية عن نفورهم وامتعاضهم من المثل الذي ذكر. وذكر الفعل في بعض الآيات على لسان الكافرين حيث اتهموا المؤمنين أنهم يصدونهم عما درج عليه آباؤهم من عبادة غير الله، قال تعالى: "قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ"(ابراهيم:١٠)

ثانياً– الصدف:

الصدف في اللغة: الميل والإعراض[3].

والفرق بينها وبين الصدّ: أن كلمة (صدّ) تعطي إيحاءً بشدة العناد والإصرار على الإعراض مع سطوع الأدلة ووضوح البراهين، أما كلمة (صدف) فتوحي باستخدام الحيلة والتكتيك في الميل عن الحق ، وقد ارتبطت بآيات الله وتكذيب المشركين بها مع وضوحها وقوة دلالتها عليه، ولم ترد هذه اللفظة إلا أربع مرات في سورة الأنعام، قال تعالى: "قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ

[1]- قرأها نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف.

البنّاء: شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٣، ٢٠٠٦م، ص٤٩٦.

[2]– ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٥، ص٢٣٨.

[3]–ابن منظور: لسان العرب، باب الفاء، فصل الصاد.

عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" (الأنعام:٤٦) وقوله تعالى: " أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ " (الأنعام:٥٧)، وإن سورة الأنعام ترتكز في عرضها على محورين رئيسين:

الأول: التعريف بالله –عز وجل– وإبراز صفاته وتفرده بالكمال والعظمة.

والثاني: إبراز تكذيب المعاندين والمبطلين بآيات الله وقوة إعراضهم عنها، مع قوة حجتها وسطوع دلالتها على الحق، وهذا ما يفسر تفرد السورة باستخدام كلمة الصدف.

ثالثاً– الإعراض:

الإعراض لغة: الصد والانحراف.

قال الراغب: إذا قيل أعرض عني فمعناه ولّى مبدياً عرضه، قال تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا"(طه:١٢٤)، وقال: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ"(السجدة:٢٢). وربما حذف لفظ (عن) لعدم الحاجة إليه استغناء عنه لدلالة السياق عليه، نحو قوله:"وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ" (النور:٤٨)[١]

وإن المتدبر في استخدام القرآن الكريم للفظة (أعرض) يتبين له:

أ– **أنها غالباً ما ارتبطت بالدين في ما يقارب عشرين مرة،** ولا تفوت الإشارة إلى أن هذا الإعراض ذكره القرآن منسوباً إلى كل من خوطب برسالة السماء فتولى عنها معرضاً على مر العصور بما فيهم بنو إسرائيل، حيث يقول تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ

---

[١]– الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص٣٣٣.

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ "(البقرة:٨٣).

ب- **ارتباطها بآيات الله المتلوة والمنظـورة:** يقـول تعـالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا"(الكهف:٥٧)، ويقـول: "وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ"(الأنبياء:٣٢).

ج- **ارتباطها بإعراض المشركين عن النبي ﷺ، وأمر النبي ﷺ بـالإعراض عـن المشـركين والمنافقين**، قال تعالى: "وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ " (النـور:٤٨)، وقال: "ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ"(الأنعام:١٠٦)، وقـال: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا"(النســاء:٦١-٦٣)

ومفهوم أن أمر الله لنبيه ﷺ بالإعراض عن أولئكم يقصد به الإعراض الفكري وعدم التأثر بمـا هـم عليه وليس الإعراض عن دعوتهم وتجلية أسباب الهداية إليهم.

د- **ارتباطها بما يتعلق بالأنبياء أنفسهم؛** وذلك في عرض الحديث عما يتعلق بهم فـي خـاص أمرهم، ففي شأن إبراهيم -عليه السلام- إذ جاءته البشرى وتبين له أن الملائكة أرسلوا لإهلاك قـوم

لوط، رد الله على جدله في شـــأنهم بقولـــه: "يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٍ" (هود:٧٦) وفي شأن يوسف -عليه السلام- إذ اتهم وهو بريء بعد أن راودته امرأة العزيز عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، يقول تعالى: "يوسف أعرض عــن هــذا" أي أعرض عن هذا الكيد الذي حيك لك ولا تتحدث به ولا تخف من تهديدها لك[1].

هـ- ارتباطها بالحديث عن المؤمنين وإعراضهم عن مرذول الصفات وقبــيح العــادات، قــال تعــــــــــالى: "وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَـٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَـٰلُكُمۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَـٰهِلِينَ"(القصص:٥٥).

و- الإعراض عن الذكر بمعنى القرآن: قال تعـــالى: "كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ ۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرًا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وِزۡرًا"(طه:٩٩-١٠٠).

وبعد استقراء الآيات وما ارتبطت به يمكن القول إن (أعرض) إضافة إلى حملها معنى الصـــد فإنها تعطي إيحاءً بصورة مادية للغفلة و اللا مبالاة بما يعرض عنه، كما أنهـــا مقصورة في دلالتها على الشخـــص نفـــسه دون أن يجاوز ذلك إلى غيره، فهي تجلي الجانب المـــادي فـــي الصـــدود والانحـــراف. أما كلمـــة صدّ ففـــيها تركـــيز على الجانـــب التخطيطي الفكري. وقد رسم الله تلـــك الصورة المادية للإعراض بقولـــه: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ" (الحج:٨-٩). ومع أن هاتين الآيتين لا تذكران لفظ الإعراض إلا أنهما تصوران الجانب المـــادي الـــذي يوضحه معنى الإعراض والذي ذكره الراغب في قوله: (ولى مبدياً عرضه).

رابعاً- ولى: الولاية والتولي لفظ فيه دلالة على الإقبال على الشيء والتوجه إليه، سواء أكان ذلك الإقبال بالجسم أو بالفكر، وإذا عدي ذلك اللفظ ب(عن) ذكراً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض بشكليه

[1]- رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، المشهور بتفسير المنار، خرج أحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٩م، ج١٢، ص٢٤٢.

الجسمي والفكري. وقد كثر ذكر ذلك اللفظ في القرآن الكريم بدلالتي الإقبال والانصراف، قال تعالى: "فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ" (البقرة:١٤٤) وقال: "وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ "(المائدة:٥٦) وقال في التدليل على أنه بمعنى الإعراض قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"(لقمان:٧) وقال: "وَلَو عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ" (الأنفال:٢٣)[1]، وكثيراً ما ارتبط لفظ التولي في القرآن الكريم بالإعراض، وذلك في قوله تعالى: "وَلَو أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ "(الأنفال:٢٣)، والتكذيب وذلك في قوله تعالى: "فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ"(القيامة:٣٢) والاستكبار وذلك في قوله تعالى: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا"(لقمان:٧)، والكفر وذلك في قوله تعالى: "لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ "(الغاشية:٢٣-٢٤)؛ وذلك يؤكد أن المتولي عن الآيات لا يكتفي بمجرد الإعراض بل إنه يجند لذلك أسلحته، وهذا ما يتميز به لفظ التولي عن غيره من الألفاظ التي فيها معنى البعد عن آيات الله.

خامساً– عوق: العَوْق في اللغة: المنع والصرف ووضع الحواجز التي تحول بين الشخص وهدفه[2]، وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في سياق الحديث عن المنافقين وتثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله وذلك في قوله تعالى: "قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً"(الأحزاب:١٨).

---

[1]- ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٥٤٨.

[2]– ينظر: المصدر السابق، ص٣٥٦.

سادساً- منع: المنع ضد العطاء، قال تعالى: "مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ"(القلم:١٢)، وهو ما يحول دون فعل الشيء، قال تعالى: "وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً"(الإسراء:٩٤)، وقد يأتي بمعنى الحماية، قال تعالى: "ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلاً "(النساء:١٤١)[1].

وقد وردت في القرآن الكريم لتعطي تلك المعاني الثلاث في ما يقارب سبعَ عشرة مرة، وتفصيل ذلك:

أ- **المنع من الإيمان:** قال تعالى: "وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلاً"(الكهف:٥٥) ويدخل في ذلك منع المشركين لأهل الإيمان من إقامة شعائر الله في بيته، يقول تعالى: "وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ "(البقرة:١١٤).

ب- **امتناع الله من إرسال الآيات الحسية الدالة على صدق النبي ﷺ على وفق ما حصل مع الأمم السابقة،** يقول تعالى: "وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا"(الإسراء:٥٩).

ج-**امتناع إبليس من السجود لآدم،** قال تعالى: "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ"(الأعراف:١٢).

---

[1]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب العين، فصل الميم.

د-**الدلالة على صفة البخل ومنع العطاء،** قال تعالى: "إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا"(المعارج:١٩-٢١).

هـ - **الدلالة على الحماية والمنعة،** قال تعالى: " وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ"(الحشر:٢). ويلاحظ باستقراء الآيات أن المنع غالباً ما اقترن بسبب وذكر فيه الممنوع منه.

سابعاً- صرف: الصرف معناه: الدفع والرد، وقد تأتي بمعنى الإبعاد عن شيء بتوجيه النظر إلى غيره. نقول: صرف الرجل بصره عن شيء: إذا أبعد نظره عنه وانشغل بغيره[١].

ففي قوله تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ"(الأعراف:١٤٦) دلالة على أن تكبرهم في الأرض بغير الحق شغلهم عن تدبر آيات الله وفهمها والاعتبار بعبرها.

والتصريف: التنويع في البيان[٢]، ويتضح ذلك في قوله تعالى: "ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ"(الأنعام:٤٦)، وقوله: "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

[١]- ينظر: الجرجاني، أبو الحسن، علي بن محمد الحسيني، التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان ٢٠٠٠م، ص١٣٦.

[٢]- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٤، ص ٢٣٥ .

أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا"(الكهف:٥٤). أما قوله: "وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ" (البقرة:١٦٤) فيعني: تنوع مهابها واختلاف وجهاتها[1].

وإن آيات القرآن الكريم التي ذكرت كلمة صرف لتؤكد تلك المعاني.

وقد وردت تلك الكلمة في سياقات مختلفة منها:

أ- **الصرف عن آيات الله وكل ما من شأنه أن يصدع بالحق،** قال تعالى: "فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ"(يونس:٣٢)، وقال: "أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ"(غافر:٦٩).

ب- **صرف ما من شأنه إلحاق الأذى بأولياء الله،** ومثاله ما ورد في شأن يوسف -عليه السلام- قال تعالى: "وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ"(يوسف:٢٤)، وقال: "فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ"(يوسف:٣٤).

وقوله في امتنان الله على المؤمنين بصرف العذاب عنهم يوم القيامة: "قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ" (الأنعام:١٥-١٦).

ج- **صرف المؤمنين عن المشركين في أحد لتربيتهم وتمحيصهم (الذي يعدهم للنصر الكامل والظفر الكامل في المستقبل)**[2] قال تعالى: " ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ " (آل عمران:١٥٢).

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، ج٢، ص٨٥.

[2]- رضا، محمد رشيد، المنار، ج٤، ص١٥٠.

د–صرف الجن إلى رسول الله ﷺ بغية سماع القرآن، قال تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ"(الأحقاف:٢٩).

هـ – صرف أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار، قال تعالى: "وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ"(الأعراف:٤٧).

و– قوله تعالى في شأن نعمة المطر: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ"(النور: ٤٣).

وإن في كلمة (صرف) من التميز في إبراز الهدف من هذه الدراسة ما ليس في غيرها من الكلمات الواردة في القرآن الكريم والتي تؤدي قريباً من معناها، فكما أن الصرف تشترك مع غيرها في مطلق المنع من تدبر آي القرآن الكريم، فإنها تتفرد بكونها نتيجة ومؤدى لغيرها، فكل من الصد والإعراض والمنع يؤدي في المحصلة النهائية إلى الانصراف عن الفهم والتدبر والعمل.

أما اختيار كلمة (الفهم) فلِما تم ذكره من أن الفهم دافع للتفسير وناتج عنه فدلالته على المراد أقوى من التفسير، ثم إنه غير مقصور على المفسر وحده وإن كان في حقه أوجب، وإن الصوارف التي ستذكر من شأنها أن تصرف المفسر وغيره عن القرآن الكريم.

ولا بد من الإشارة في ختام هذا الفصل إلى أن كل جملة من الصوارف سترفق بطرق للعلاج ومقترحات للإسهام في حل المعضلات الناشئة عنها. والله ولي التوفيق.

الفصل الأول

صوارف نابعة من ذات الكيان الإنساني وعلاجها

دراسة موضوعية

سبقت الإشارة إلى أن العلاقة التي يجب أن تكون بين المؤمن وكتاب الله لا تؤتي ثمارها إلاّ إذا قامت على التلاوة والتدبر والفهم والعمل والتعليم، (فالقرآن كلام الله، والله هو الذي يعين القارئ على أن يتلقى إذا ما سلك السبيل الذي بيّنه فاستحضر معه وسائل الفهم وأدوات التدبر، وإذا ما طهر نفسه من الموانع والحجب والأكنة[١] التي تحجب عنه القرآن وإيحاءاته)[٢]، حيث إن هناك أشياءَ قد تكدّر صفو تلك العلاقة فتحجب عن فهم القرآن الكريم.

فإذا تم استقراء ما أشار إليه القرآن ممّا يمكن أن يحول دون تدبره وفهمه من الصوارف أمكن تقسيمها إلى:

١- صوارف منبثقة عن الفرد نفسه.

٢- صوارف منبثقة عن البيئة المحيطة بالفرد سياسية كانت أم اجتماعيةً أم علميةً وثقافيةً أم غير ذلك.

وسيدور هذا الفصل حول تلك الصوارف المنبثقة عن ذات كيان الإنسان سواءً ما يتعلق منها بمعتقده، أو بنوازع نفسه وخلقه وسلوكه، أو بالانعكاس الذي تشكّل لديه من جراء ما تلقى من علوم ومعارف، أو بالمنهج الذي يسلكه في تعامله مع القرآن الكريم دراسةً وفهماً. وقبل الحديث في تفصيلات الموضوع تجدر الإشارة إلى أن هناك تداخلاً بين تلك الصوارف، فما يعد عقدياً من جانب قد يعد سلوكياً من جانب آخر؛ لذلك فالتقسيم نسبي لا يمكن القطع به، فما كان ناشئاً عن معتقد صرف عن الإقبال على القرآن أصلاً فهو عقدي، وما نجم عن سلوك أدّى إلى الترفع عن القرآن والعزوف عن منهجه جزئياً أو كلياً فهو صارفٌ سلوكيّ، ولا بد للسلوك أن يكون نابعاً من نوازع نفسية وترجمة لأخلاق تخلق بها أصحابها، وما كان متعلقاً بمنهج التعامل مع القرآن أو مؤدّياً إلى خللٍ في الفهم فإمّا أن يكونَ منبثقاً عن خللٍ في طريقة التفكير، أو متعلقاً بما داخَلَ العقلَ من أفكار شكّلتها علوم ومعارف متلقاة أو نشأت من سلوكيات ذلك الإنسان فتلك هي الصوارف المعرفية والمنهجية. كما تنبغي الإشارة إلى أن تلك الصوارف بكافة أشكالها غير مقصورة على فئة من الناس دون فئة وتفصيل ذلك على النحو التالي :

---

[١]- جمع كِنّ: وهو وقاء كل شيء وستره. ابن منظور، لسان العرب، باب النون، فصل الكاف.

[٢]- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، مفاتيح التعامل مع القرآن، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٥م، ص١٣٥.

المبحث الأول

الصـــوارف العـــقـــديـــة

إن لفظة العقيدة تنطبقُ على ما وقر في قلبِ صاحبها من مبادئَ ومُثُل، ولا شك أن تلك المبـــادئ والمُثُل لها أثرٌ بارزٌ في التفكير والسلوك، فحينما عرّف العلماء عقيدة الإيمان قالوا: "هي ما وقرَ فـــي القلب وصدّقه العمل وظهر على الجوارح"[١]، وكما أن العقيدة الحقة تؤدي إلى الحياة الربانيّة الحقة فإن ضعف العقيدة أو انحرافها من شأنهِ أن يؤدّي إلى الانحراف والزيغ أو إلى إحباط العمــل وبطلانــه، وهذا ينطبق على علاقة أصحاب العقائد الباطلة مع القرآن الكريم؛ فإنّ فســاد العقيــدة يــؤدّي إلـــى الانصراف عن القرآن الكريم، وانحراف المعتقد لا بد أن يؤدّي كذلك إلى الانحراف في الفهم، ويتجلى ذلك عند أولئك الذين يقرؤون القرآن من أصحاب العقائد الفاسدة كغلاة الشيعة وغيرهم من أتباع الفرق الضالّة.

وقد اشترط العلماء في المفسر أن يكونَ سليم المعتقد حيث إن سلامة معتقده تورثُ ســلامةً فـــي فهمه وتفسيره للقرآن الكريم. يقول أبو طالب الطبري في عرض حديثه عن شروط المفسر: (اعلم أنّ من شرطه صحّة الاعتقاد أولاً ولزوم سنّة الدين، فإنّ من كان مغموصاً عليه في دينه لا يؤتمنُ علـــى الدنيا فكيف على الدين؟ ثم لا يؤتمنُ في الدين على الإخبار من عالم فكيف يؤتمنُ في الإخبـــار عـــن أسرار الله تعالى؟ ولأنه لا يؤْمَن إن كان متهماً بالإلحاد أن يبْغِي الفتنة ويغرَ الناس بليِّهِ وخداعه).[٢]

ومن العقائد التي تصرف عن القرآن الكريم:

أوّلاً: الكفر:-

يعد الكفر من أهم العقائد الباطلة إذ إنه يسترُ مكامن القلب من دواعي الخير والفطـــرة الســـليمة؛ حيث يختم على قلب الكافر وتغطّى حواسُه فلا يعي نصحاً ولا ينفذُ إلى قلبهِ قول، يقـــول تعـــالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ" (البقرة: ٦-٧).

---

[١]- ينظر:الأثري، عبد الله بن عبد الحميد، الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)، مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٢هـ، ص٨٨.

٢-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تقديم وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق،ط٥، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ١١٩٨.

ورد في معاجم اللغة أن الكفر بمعنى الستر وتغطية الشيء تغطية تستهلكهُ [١].

يقول الراغب الأصفهاني: (الكفر في اللغة سترُ الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزَّرّاع لسترِهِ البذرَ في الأرض، وكفرُ النعمةِ وكفرانها سترها بتركِ أداءِ شكرها، قال تعالى: "فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ" (الأنبياء:٩٤).وأعظمُ الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة) [٢].

والكفر اصطلاحاً: نقيض الإيمان، والتكذيب بما أنزلَ الله على أنبيائِهِ بعامة وعلى محمد ﷺ بخاصة ممّا هو معلوم من الدين بالضرورة وإنكار نبوته ونبوّة غيرِهِ من الأنبياء-عليهم السلام-، قال تعالى: " إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا" (النساء:١٥٠-١٥١).

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي أن التكذيب يستلزمُ تغطية الحق الواضح بالجحود والإنكار حيث لا يقر به قلب أو يترتبُ عليه سلوك [٣]، ولا يخفى ما للكفر من الأثر في الصرف عن منهج الله جملة وتفصيلا؛ فالكافر لا يسمحُ لنفسِهِ أن يقرأ القرآن فكيف يتصور أن يتجاوزَهُ إلى التدبر والفهم؟

وحتى يتضحَ كونُ الكفر صارفاً عن آيات الله لا بد من دراسة الآيات التي توضحُ ذلك، فكثيراً ما نجدُ أن لفظ الكفر في القرآن الكريم ارتبطت بآيات الله أو بما أنزل الله من الكتاب، ومن جملة ما أنزل القرآن الكريم، وقد عبر القرآن عن مفهوم الكفر بآيات الله بالإلحاد، قال تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا

١- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الراء، فصل الكاف.

٢ -الأصفهاني، المفردات، ص٤٣٦ .

٣-ينظر: الغزالي، أبو حامد محمد، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق إنصاف رمضان، دار قتيبة، سوريا، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٤٠. وأبالق: أحمد ثريّا، الكفر ومفهومه وعلاجهُ في القرآن دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، ٢٠٠١م، إشراف الدكتور: حسيب السامّرائي، ص١٠.

شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "(فصلت:٤٠)، ومعنى ألحد في الآيات مال عنها وعدل، فمعنى الإلحاد الميل والجور[١]،

يقول الراغب: (الإلحاد ضربان إلحاد إلى الشرك بالله وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يوهن عراه ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: " وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (الحج: ٢٥)، وقوله: " وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ" (الأعراف: ١٨٠) والإلحاد في أسمائه على وجهين أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به، والثاني أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به)[٢].

يشير المفسرون إلى أن معنى الإلحاد في الآية الكريمة الميل عن الاستقامة، ومن صور الإلحاد في الآيات الكفر والشرك والعناد وتحريف معاني كلمات القرآن[٣]، أمّا المقصود بالآيات فالسياق يجيز أن يراد بها الآيات الكونية المنظورة والآيات القرآنية المقروءة، يقول ابن عاشور: (والإلحاد حقيقته الميل عن الاستقامة، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله: " قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ " (فصلت: ٩)، وقوله: " وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " (فصلت: ٣٧)، وتشمل الآيات القولية المتقدمة في قوله: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ " (فصلت: ٢٦) فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف

---

١ –ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الدال، فصل الهمزة.

٢ – الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ، ص٤٥٢.

٣- ينظر: الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق: محمود شاكر،دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ج٩، ص ١٥٩.

عن دلالة الآيات الكونية، والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها والطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها.[١]

ويلاحظ أن القرآن وهو يعرض للكفر يربطه بسلوكيات معينة تترجمه وتبين انعكاسه على أرض الواقع؛ إذ لا تؤتي العقيدة ثمارها إلا بالعمل والسلوك، فقد ارتبط الكفر بالتكبر،قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ" (الأعراف: ١٤٦)، والاستهزاء، قال تعالى: " وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا " (الكهف: ٥٦)، والصد عن سبيل الله، قال تعالى: " ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ " (محمد: ١) والتكذيب، قال تعالى: " وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ" (البقرة: ٣٩) وإثارة الشبهات والأباطيل التي من شأنها أن تنفرَ من الحق وأهله، قال تعالى: " وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا " (الفرقان: ٤-٥)، وسيتم الحديث عن تلك السلوكيات لاحقاً إن شاء الله.

أما هنا فسأعرض للكفر بوصفه عقيدة باطلة صارفة عن القرآن الكريم، سواءً أدى إلى الصرف عن تلاوته، أو عن تدبره وفهمه، وتوضيح ذلك على النحو التالي:

١- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١، ص٣٠٤.

١- الكفر الذي من شأنه أن يؤديَ إلى الانصراف عن القرآن الكريم بالجملة:

أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الكفر بعبارات الجحود والإنكار وغير ذلك، قال تعالى: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ" (الأنعام:٣٣) والجحود نقيض الإقرار كالإنكار[١].

ويستشف من اللفظة أن الجحود إنكارٌ لما هو معلوم ومعروف عند المنكر بل مستيقنٌ لديه،قال تعالى: "وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ" (النمل: ١٤).

أما عن التعبير عن الكفر بالإنكار فيتجلى ذلك في قوله تعالى: " يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ" (النحل: ٨٣- ٨٤) والمراد بنعمة الله نبوة محمد ﷺ وما جاء به من القرآن الكريم، فإن ذلك يتناسب مع سياق الآيات التي تجاورها، فقبل الآية يقول تعالى: " فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ " (النحل: ٨٢) وبعدها يقول: " وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ " (النحل: ٨٤) والآيتان كلتاهما تتحدثان عن بعثة محمد ﷺ[٢]،فلا غرو إذاً أن يكون المقصود بالنعمة المنكرة نبوة محمد ﷺ.

ومن صور الكفر الصارف عن القرآن الكريم:

أ- **الكفر بآيات الله التي تدل على وحدانيته وعظيم صنعه،** وتشير إلى البعث والجزاء وغير ذلك من الغيبيات، وهذا ما كان عليه مشركو العرب عند بعثة محمد ﷺ. ومن الآيات التي صورت كفرهم بآيات الله وما حوت من تعاليم وعقائد قوله تعالى: " وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا

١- ابن منظور، لسان العرب، باب الدال، فصل الجيم.

٢- ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٤ ، ص١٨٩.

لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ " (الواقعة:٤٧- ٤٨)، وقوله: " وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ " (سبأ: ٣١)، وإن في قصة الوليد بن المغيرة إبرازا لصورة من اقتنع بالحق عقله، وخالطت بشاشته قلبه، فبعد أن أنعم النظر في القرآن وشهد له بما شهد من الحلاوة والطلاوة والسمو وأنه منهل خير عميم، ما لبث أن ضرب بذلك عرض الحائط وستر شهادة الحق بغلاف من الزيف والبطلان، قال تعالى: "إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ" (المدثر:١٨- ٢٥)[١].

وليس هذا النوع من الكفر مقصوراً على مشركي العرب وقت البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم، بل هو موجود إلى قيام الساعة، فإن في إلحاد الشيوعية خير شاهد من التاريخ على ذلك، فهم ينكرون الإله ويقولون إن الحياة مادة ويصفون الدين بأنه أفيون الشعوب، قال تعالى: "وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ" (الأنعام: ٢٩-٣٠) ومن أراد أن يستزيد من الاطلاع على صور إلحادهم ففيما كتبوه وكتبه عنهم غيرهم ممن نقضوا فكرهم غنية عن البيان في هذا المقام.

ب- إنكار نبوة محمد ﷺ:-

إن الكفر بنبوة محمد ﷺ يعد انصرافاً عن القرآن الكريم وإنكاراً له، قال تعالى في شأن أهل الكتاب الذين كفروا بكتاب الله لما جاءهم رسول ليس منهم مع أنه مصدق لما معهم:"وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ

١- ينظر: الفخر الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،٢٠٠٠م، ج٣٠، ص ١٧٥.

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (البقرة :١٠١) فإذا كان إنكار أهل الكتاب لنبوة محمد ﷺ دافعاً لهم لإنكار ما جاء في كتبهم من البشارة، به فهو من باب أولى صارف لهم عن القرآن الذي جاء به[1].

٢- العقائد المنحرفة التي أدت بأصحابها ممن يقرؤون القرآن ويلجون بابه إلى الانحراف في فهم نصوص القرآن وفساد تأويلهم لها:

لا ينكر ما للكفر بالكتاب والنبي ﷺ من الأثر البالغ في الصرف عن القرآن الكريم جملة وتفصيلا، ولكن الأقوى من ذلك أثراً والأشد خطراً أن يكون الشخص ممن يقرؤون القرآن ويقرون بالإسلام إلا أن هناك عقائد منحرفة باطلة توجهه في التعامل مع كتابه فيسقطها عليه، وإذا كان هذا الشخص من المفسرين وأهل العلم فتلك هي الطامة الكبرى؛ إذ لا يقتصر أثر انصرافهم عن القرآن على نفسه، بل يتجاوزه إلى غيره من عوام الناس خاصة أولئك الذين يسلمون لعلمائهم زمام فكرهم ورأيهم؛ وذلك كتفسيرات بعض غلاة الشيعة والفرق الباطنية الضالة كالإسماعيلية والبهائية والقاديانية وغيرها ممن أوصلتهم عقائدهم إلى الكفر وحكم عليهم بذلك العلماء المعتبرون.

ثانياً- النفاق:-

ومن العقائد الباطلة التي تؤثر على علاقة الفرد بالقرآن الكريم النفاق، فما هو النفاق؟ وما هو السبب الذي يجعل المنافق ينصرف عن القرآن الكريم؟ وما هي مظاهر انصرافه عنه؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة لا بد من الإشارة إلى أن النفاق لا يعد عقيدة بمفهومه المنضبط، فالمنافق لا يستقيم له حال وإن كان للكفر أقرب، قال تعالى: " مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا " (النساء: ١٤٣)، وقال: " وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ" (آل عمران: ١٦٧).

ويمكن تعريف النفاق لغة: بأنه لفظٌ مشتق من نَفَقَ بمعنى مات وهلك، نقول: نفقت الدابّة ماتت، ولكنه أقرب ما يكون إلى النافقاء وهو جحر الضب واليربوع[1].

---

[1]- ينظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج١، ص٣٢٣.

يقول صاحب اللسان:(النافقاء موضعٌ يرققه اليربوع من جحره فإذا أُتِيَ من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، ونفق اليربوع وانتفق ونقّق خرج منه)[٢].

أمّا النفاق بمعناه الاصطلاحي: فهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر، فالمنافق يخالفُ ظاهره باطنه، فهو أمام المؤمنين يدعي الإيمان، وإذا خلا بأهل الضلال من الكافرين ومن شاكَلَهم سرعان ما يعود إلى الكفر ويبدي ولاءه لأهله.

والنفاق بهذا المعنى مصطلحٌ إسلامي سبق إليه القرآن الكريم إذ لم يكن مستخدماً من قبل بهذا المعنى.[٣]

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي أن المنافق لا يستقيم له حال ولا يعرف له دين، فهو كاليربوع في نافقائها إذ تنتقلُ من النافقاء إلى القاصعاء، وهكذا يمرقُ المنافق من دينه فهو بذلك الفعل الخبيث يحكم على قلبه بالموت فلا يفتح له مجالاً لأن يحيا بمعاني القرآن أو تسرج فيه قناديل الإيمان فمنشأ النفاق مرض في القلب يؤدي بصاحبه إلى أن يتخذ سلوكيات ويتخلّقَ بأخلاق تنبئ عن ذلك الخلل في معتقده؛ لذلك يعد النفاق من الصوارف العقدية وإن كان الدال عليه سلوكيات ملحوظة من ذلك المنافق كما صور ذلك القرآن الكريم قال تعالى: " فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ" (البقرة:١٠) ويوضح الأستاذ حبنكة هذا المعنى بقوله: (ولولا أن يكون المنافق جحوداً للحق كنوداً مع نظرٍ قصير إلى الوجود والحياة يجعله يتشبثُ بمصالحه ومنافعه القريبة من الحياة الدنيا لردعه إيمانه وحبه للحق عن سلوك مسلك النفاق في الدين؛ ذلك لأن الذي يحب الحق ويكره الجحود ولا يطيب له الكنود ويكون ذا نظرٍ إلى الوجود والحياة بعيد فإنه لا ينافق وإن كان جباناً أو شديد الطمع لأنه سيجد فيما يؤمن به من الحق مخاوفَ تردعه عن الباطل ومطامع أجل تجعله يلتزمُ سبيل الحق والخير، وعندئذ يمتص سبيل الحق والخير الديني جبنه وطمعه فلا يبقى لديه منهما ما ينزعُ به إلى النفاق)[٤].

١- ينظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٥٠٤.

٢- ابن منظور، لسان العرب، باب القاف، فصل النون.

٣- ينظر: المصدر السابق، باب القاف، فصل النون.

٤- الميداني، عبد الرحمن حبنكة، ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٣، ج١، ص٥٥.

يقول تعالى في تصوير حال المنافق مع دواعي الهدى ومغريات الضلال: " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ " (البقرة:١٧).

ضرب الله المثل مشبهاً حال المنافق لما أشعل أمام ناظريه مصابيح الهداية لكنه لم يلبث أن أغمض عينيه عنها فلم ينتفع بها ولم تجد مكاناً في قلبه، فسرعان ما نكصَ على عقبيه وألقى بقلبه المقفل في غياهب الظُلَم بحال من بذل جهده في إيقاد النار، فلما انتشر ضوؤها فيما حوله لم ينتفع بنوره بل بقي يتخبط في حيرته. يقول الإمام الرازي في تعليقه على هذا المثل: (إن الذي أظهروه يوهم أنه من باب النور الذي ينتفع به، وذهاب النور هو ما يظهره لأصحابه من الكفر والنفاق، ومن قال بهذا قال إن المثل إنما عطف على قوله "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا" فالنار مثل لقولهم (آمنا) وذهابها مثل لقولهم (إنّا معكم)، فإن قيل وكيف صار ما يظهره المنافق من كلمة الإيمان مثلاً بالنور وهو حين تكلم بما أضمر خلافها؟ قلنا: إنه لو ضم إلى القول اعتقاداً له وعملاً به لأتمَ النور لنفسه، ولكنه لما لم يفعل لم يتم النور، وإنما سمى مجرد ذلك القول نوراً لأنه قول حق في نفسه)[١].

ولا يجادل مجادل في أن النار التي انبثق عنها النور مثال يصور ما في القرآن الكريم من معالم الهداية إلى الحق المبين.[٢]

ولا يمنع أن يكون المقصود بهذا المثل أهل الكتاب كما مال لذلك صاحب المنار إلا أنه بالمنافقين ألصق، وبما هم عليه من الحيرة والتخبطِ أليق، والله أعلم.

ولو أجيل النظر في الأسباب الكامنة وراء انصراف المنافقين عن تدبر القرآن الكريم وفهمه يتبين ما يلي:

١- إن المنافقين يخشون أن يواجهوا بحقيقة أنفسهم فتفتضح مكنونات قلوبهم أمام المؤمنين وأمام أنفسهم فتتكسر بذلك شوكتهم، فإن الذي يسير على غير هدى وتأرجحه عواصف الحق والباطل يبقى مستمرئاً ما هو عليه حتى يشعرَ بانكشاف أمره فتضعف ثقته بما يفعل، وهذا ما يصوره قوله تعالى: " يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ" (التوبة:٦٤)، ولا تعارض بين أن يكون المنبأ المؤمنين أم المنافقين أنفسهم فالنتيجة واحدة

١- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢، ص٦٧.

٢- ينظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج١، ص١٤٥.

وهي انكشاف الأمر والفضيحة وكلٌّ له علاقة بسياق الآيات. يقول صاحب الكشاف: (كانوا يستهزؤون بالإسلام وأهله، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله لوددت أني قدمت فجلدت مئة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا)[١].

وإن هذا الشاهد الذي ذكره صاحب الكشاف ليؤكد حرص المنافق على الانصراف عن قراءة القرآن وفهم مقاصده؛ فالمواجهة بحقيقة النفس عند هؤلاء أمرٌ غير متقبَل.

٢- خشية فوات مصلحة دنيوية يرتجيها المنافق من أحد الفريقين، فهو يريد أن يبقى على مقربة من المؤمنين حتى يفيد مما يصيبهم من الخير، ويحرص على كسب ثقة أهل الباطل خشية أن تصيبه دائرة فيكون للكافرين سلطان أو غلبة فتفوت بذلك مصلحة المنافق، قال تعالى: " ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً" (النساء: ١٤١)، ويقول: " فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ " (المائدة: ٥٢).

فإن قيل كيف يشكل ذلك صارفاً عن القرآن الكريم؟ كان الجواب: إن بلاغة حجة القرآن الكريم وقوة منطقه واستحواذه على القلوب والعقول كل ذلك كفيلٌ بأن يأخذ بزمام قلب متدبره إلى دائرة الحق وجادة الصواب فيفقده الثقة بما سواه من أباطيل المبطلين وزيف المغرضين؛ لذلك انصرف المنافق عن القرآن الكريم فأقفل قلبه وحجب حواسه فلم يعد هنالك مجالٌ لأن يأخذ نور الإيمان وهداية القرآن مكاناً في قلبه، قال تعالى: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ " (محمد: ٢٤) ، (هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة فإنه تعالى قال: " أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ " (محمد: ٢٣) أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من

١- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به: خليل مأمون، دار المعرفة، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، مجلد واحد، ص٤٤٠.

الأمور الحسنة فَأَصَمَّهُمْ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام فــإذن هــم بــين أمرين:إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقــرآن منهما ....وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، تقديره أفلا يتدبرون القــرآن لكونهم ملعونين مبعودين أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون)[١].

هذه العبارة تصور حال قلوب المنافقين مع القرآن الكريم، وتؤكد حرصهم علــى أن لا ينفــذ القرآن إلى قلوبهم، ويجلي القرآن الكريم انصراف المنافقين عن سوره وآياته مــن خــلال تصــوير انعكاسات تنزل سورة من القرآن عليهم، يقول تعالى: " وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ "

(التوبة:١٢٤- ١٢٧) توضح الآيات أن الناس ينقسمون عند سماعهم للآيات المنزلة إلــى فــريقين: فريــقٌ يزدادون بالآيات إيماناً، ويعتبرون بما حملت من هدايات ومواعظ، وفريقٌ يزدادون نفوراً وإعراضــاً ويتفاقم مرض قلوبهم فينصرفون عن سماع الآيات وتدبرها حتى لا يقودهم ذلك إلى الامتثال والعمل. يقول ابن عاشور في تأويل قوله تعالى: "صرف الله قلوبهم بأنهم قومٌ لا يفقهون" (صرف الله قلــوبهم بأمر تكويني، فحرموا الانتفاع بأبلغ واعظ، فكان ذلك عقاباً لهم بسبب أنهم قــومٌ لا يفقهــون؛ أي لا يفهمون الدلائل بمعنى لا يتطلبون الهدى بالتدبر فيفهموا)[٢].

ولا ريب أن رفض المنافقين الامتثال لأوامر رسول الله كالخروج للجهاد أو الإنفاق في سبيل الله أو غير ذلك وتذرعهم بحجج واهية مكذوبة يشكل دليلاً قاطعاً على انصرافهم عــن فهــم القــرآن الكريم، فلو فهموه حق الفهم لآمنوا وأطاعوا الأمر وعملوا بمقتضى ما في القرآن الكريم. وما أشــبه الليلة بالبارحة حيث لم يحصر النفاق في عهد النبوة، فلا يزالُ المنافقون يلقون الأراجيــف ويفُتــون بعضد الصف الإسلامي، ويثيرون ما وسعهم من الأباطيل التي تنفرُ ضعاف الإيمان من كتــابهم، وإن انتشار الجواسيس لصالح الباطل في كثير من المجتمعات الإسلامية لهو خير دليل على أن المنــافقين

١- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢٨، ص٥٧.

٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١، ص٦٩.

ينصرفون عن الحق ويقتلون داعي الفطرة والخير في نفوسهم بنفاقهم وممالأتهم للباطل ابتغاء عرض دنيوي زائل، قال تعـالى: " هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ " (المنافقون: ٧)، كما يصـور القـرآن حـرص المنافقين على نيل ثقة أهل الباطل ابتغاء العزة والسيادة، قال تعالى: " ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا " (النساء: ١٣٩)، وإن الجاسوسية علامة للولاء.

ثالثاً: الفسق:-

تبيّن مما سبق أن النفاق والكفر مسائل عقدية كان لها الأثر البالغ في الصـرف عـن قـراءة القرآن وتدبره وفهمه، ومن الصوارف التي يمكن أن تنبثق عن عقيدة وإقرار: الفسق، ومعنـاه لغـة: الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، فالفسق هو: الخروج عـن طاعـة الله)[١].

يقول صاحب اللسان: (الفسق العصيان والترك لأمر الله تعالى والخروج عن طريق الحق)[٢]،

إن المتتبع لورود لفظ الفسق في القرآن الكريم يتبين له أنه ارتبط بالكفر تارة وبالنفاق تـارةً أخرى، أما عن ارتباطه بالكفر فيتجلى ذلك في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ " (البقرة: ٩٩)، إن هذه الآية تؤكد أن الفسق الذي منشؤه الكفر يعد صارفاً عن آيات الله التي أنزلها على نبيه ﷺ والمتمثلة في القرآن الكريم، يقول صاحب المنار: (وما يكفر بها إلا الفاسقون الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لإدراكه بذاته على شدة ظهوره، وإنما يطلبونه من كلام مقلديهم وكـذا الـذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له) [٣].

١_ ينظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٣٨٢.

٢ – ابن منظور، لسان العرب، باب القاف، فصل الفاء.

٣ – رضا، محمد رشيد، المنار، ج١، ص٣٢٢.

توضح مقولة صاحب المنار كيف أن الفسق الذي تمخض عن الكفر بآيات الله كان مخالفة للفطرة السليمة وأدت إلى رفض الحق المتمثل في آيات الله وعدم إدراك كنهها وفهم معانيها. أما عن ارتباط الفسق بالنفاق فيتضح ذلك في قوله تعالى: " ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ " (التوبة: ٦٧) إن الأفعال التي نسبتها الآية الكريمة للمنافقين تدل بوضوح على مخالفتهم لأمر الله وعدم التزامهم بالعمل بمقتضى كتابه، فهم بذلك انصرفوا عن القرآن الكريم، ففي قوله تعالى "نسوا الله فنسيهم" دلالة على نسيانهم الله بالغفلة عن آياته، يؤكد صاحب الكشاف انصرافهم هذا بقوله: (نسوا الله: أغفلوا ذكره، فنسيهم: فتركهم من رحمته وفضله)[1] وإن في التعقيب بقوله إن المنافقين هم الفاسقون دلالة على أن النفاق يعد خروجاً كاملاً عن طاعة الله.

إن ارتباط الفسق بالكفر والنفاق في أكثر من موضع في القرآن الكريم يؤكد أن للفسق جانباً عقدياً متسبباً في الانصراف عن فهم القرآن الكريم، وهذا الفسق عبر عنه في القرآن بالكفر والنفاق.

إن العلاقة القائمة بين الفسق وباقي المذكورات علاقة صفة بموصوف فالكفر والنفاق خروج عن طاعة الله وهذا ما توضحه الآيتان "إن المنافقين هم الفاسقون" "وما يكفر بها إلا الفاسقون"، فالقرآن يصف المنافق بأنه فاسق ويصف الكافر بالفسق، فهو وصف متباين بين شخص وآخر. وبذلك يتضح كون الفسق بعموم دلالته على الخروج عن طاعة الله المنبثق عن عقيدة فاسدة صارفاً عن فهم القرآن الكريم.

رابعاً: الظلم:-

الظلم كالنفاق من حيث كونه جامعاً بين الجانب العقدي والجانب السلوكي؛ لذلك فإنه يشكل صارفاً عن فهم القرآن الكريم بالدلالة العقدية التي يعطيها معناه.

وبادئ بدء فالظلم ضد النور، وهو الجور أي نقيض العدل، وهو وضع الشيء في غير موضعه[2].

ويضيف الأصفهاني: (إن الظلم يعبر به عن الجهل والشرك والفسق كما يعبر بالنور عن أضدادها)[3].

وما قيل في الفسق يقال في الظلم بمعنى أنه قد يكون وصفا للكفر، وقد يكون وصفاً للنفاق، وقد يعبر به عن سلوكيات يقترفها أناس من ذوي العقيدة السليمة كبعض الحكام وأصحاب السيادة والرياسة

---

١ - الزمخشري، الكشاف، ص٤٤٠

٢- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الميم، فصل الظاء.

٣- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٣١٨.

في مجالاتهم والذين يجورون في الحكم بين الناس ولا ينصفونهم. والفرق بين الظلم والكفر أن في كلمة الظلم دلالة على تجاوز الحد، فلا يسمى الكافر ظالماً إلا إذا تجاوز الحد في كفره وطغيانه وجبروته، فهي إذاً تعم جميع ما سبق ذكره وتصبغها بصبغة تجاوز الحد في الطغيان والعدوان [1].

ويلاحظ في تناول القرآن للظلم أنه نسبه إلى النفس في عشرات المواضع في القرآن الكريم، قال تعالى: " وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (البقرة: ٥٧) وقال: "وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ" (هود: ١٠١). كما ويلاحظ كثرة التعبير بالظلم للنفس وللغير في سياق سرد قصص الأمم السابقة يقول تعالى في أكثر من موضع عند الحديث عن قوم ثمود وأصحاب مدين: " وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ" (هود: ٦٧) ويقول في حديثه عن بني إسرائيل: " فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ " (الأعراف: ١٦٥) وهذا يدل على أن ظلم النفس هو الظلم الذي عبر به الله تعالى عن فعل كفرة الأمم السابقة والذي نجم عن سوء معتقدهم ومناصبتهم العداء للحق وأهله. هذا وقد أشار القرآن إلى الظلم بمخالفة أمر الله بمخالفة أمره ونصب العداء لدينه، وظلم النفس بكبت داعي الخير الكامن فيها، وتغطية الفطرة السليمة بالجحود والطغيان يعد صارفاً عن آيات الله المنظورة والمتلوة، فالظالم لا يستجيب للخير ولا يلبي نداء الحق الذي جلجلت به آي القرآن الكريم، يقول تعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا" (الكهف: ٥٧) يقول الإمام الرازي في تعليقه على الآية الكريمة: (لا ظلم أعظم من ظلم من ترد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ما قدمت يداه، أي مع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة)[2]. فالظلم إذاً يلقي على القلب حاجزاً يمنعه من الاعتبار إذا وعظ والتذكر إذا ذكّر،

١- ينظر: العبد الله، جهاد محمد، الظلم في القرآن الكريم دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠م، إشراف الدكتور: فضل حسن عباس، ص٢٣.

٢-الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢١، ص١٢١.

ويتجلى هذا المعنى في قوله تعالى عن القرآن الكريم: " بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ" (العنكبوت: ٤٩) تؤكد خاتمة الآية الكريمة أن ظلم النفس سبب في جحود الحق ورفض الخير الذي تدعو إليه الآيات البينات إذ لا يعي بيان تلك الآيات ومعناها إلا من أوتي العلم المترتب على حسن التدبر والفهم، ولا يؤتاه إلا ذو قلب صافٍ لا يحجبه عن القرآن حاجب.

ولا تفوت الإشارة إلى أن ذلك الظالم الذي يجحد الحق ويتشاغل عن الآيات البينات يوقن في قرارة نفسه أنها حق مبين، يقول تعالى: "وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ" (النمل:١٤)، هذه الآية وإن ذكرت في سياق الحديث عن قوم فرعون وموقفهم من الآيات التي جاء بها موسى- عليه السلام- فلا يمنع أن تعم بمعناها آي القرآن الكريم. يقول أبو السعود في تأويله للآية الكريمة: (كذبوا بها واستيقنتها أنفسهم، الواو للحال، أي وقد استيقنتها أي: علمتها أنفسهم علماً يقينياً، ظلماً أي: بالآيات، قال تعالى: "وما كانوا بآياتنا يظلمون" ولقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطّوها عن رتبتها العالية وسموها سحراً)[١]. فالظالم بجحوده وعتوه ينتقص من قدر آيات الله فلا يرعاها حق رعايتها إذ لا يترك لنفسه ولميزان الحق الكامن في قلبه أن يتدبر الآيات ويفهمها فتؤدي وظيفتها في حياته.

ومن تدبر القرآن الكريم واستقراء آياته يلاحظ أن الله- عز وجل- قد حجب الهداية عن أولئك الأصناف الأربعة الذين سبق الحديث عنهم، قال تعالى: "وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ" (التوبة:١٩) ، "وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ "(التوبة:٢٤)، "وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ " (التوبة:٣٧)، ويقول في حق المنافقين: " رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (التوبة: ٨٧)

يقول صاحب المنار في تأويل الآية الواردة في حق المنافقين : (الطبعُ على القلوب والختم عليها عبارة عن عدم قبولها لشيء جديد من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها وصار وصفاً ووجداناً لها... "فهم لا يفقهون" أي فلأجل ذلك هم لا يفهمون ما يخاطبون به فهمَ تدبر واعتبار فيعملوا به) [٢]، ومن اللافت أن هذه الآيات الأربعة وردت في سورة التوبة، ودلالة ذلك أن الله قد فتح أمامهم آفاق الهداية ومراجعة النفس والإنابة إلى الله والتدبر والاعتبار إلا أنهم أغلقوا قلوبهم بكفرهم وفسقهم وظلمهم ونفاقهم فباءوا بالبوار والخسران.

١- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٥، ص٧٢.

٢- رضا، محمد رشيد، المنار، ج١٠، ص٥٠٤.

المبحث الثاني
الصوارف النفسية والخلقية

تركز الحديث في المبحث السابق عما يمكن أن يصرف عن قراءة القرآن وفهمه من العقائد والسلوكيات، وتتميماً للموضوع سأتحدث عن بعض النوازع النفسية والخلقية التي تمثل صوارف تصرف الإنسان عن القرآن الكريم سواء أنبثقت عن العقائد أم لم تنبثق، وهذه الصوارف الخلقية والنفسية قد تلاحظ على الكافر والمنافق وحتى على من صحت عقيدته إلا أنه انغمس في شهواته وأهوائه واغتر بالدنيا ومتاعها. وقد عدت هذه الصوارف نابعة من ذات الكيان الإنساني لأنه هو الذي فعّلها في نفسه وجعلها مؤثرة في مساره وإن اكتسبها من عائلته أو أقرانه أو مجتمعه .

وبادئ بدء سيتركز الحديث عن المعاصي بوصفها مفهوماً شاملاً لجملة الصوارف الخلقية والنفسية التي يختص بها هذا المبحث.

المعاصي وأثرها في الصرف عن القرآن الكريم:

المعصية: ضد الطاعة، فهي إذاً خروج عن أمر الله وطاعته[1]، يقول الراغب الأصفهاني: (عصى عصياناً إذا خرج عن الطاعة، وأصله أن يتمنع بعصاه، قال تعالى: "وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ " (طه:١٢١) وقال أيضا: " ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ" (يونس:٩١) ويقال فيمن فارق الجماعة: فلان شق العصا)[2] فالمعاصي إذاً هي جملة الأخلاق والتصرفات التي توضح مخالفة الإنسان لأمر ربه، وخروجه عن طاعته. وقد نسبت المعصية من العبد إلى الله ورسوله في أكثر من موضع في القرآن الكريم، يقول تعالى: "وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ " (النساء:١٤) ويقول : "وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا "

---

[1] – ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الياء، فصل العين.

[2] – الأصفهاني، المفردات، ص٣٣٩.

(الجن:٢٣) ويقول: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا" (الأحزاب:٣٦).

إن كثرة المعاصي تجتمع على القلب فتورثه القسوة، وإن قسوة القلب تشكل صارفاً قوياً عن فهم القرآن الكريم، وإدراك هداياته. (ومن أعظم العقوبة أن لا يحس الإنسان بها وأن تكون في سلب الدين وطمس القلوب وسوء الاختبار للنفس).[1]

يقول تعالى: "كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ " (المطففين:١٤-١٥)، تشير هذه الآية إلى أن الران هو طريق الطبع على القلوب والختم عليها ومن ثم إقفالها، هذا كله لا يتأتى إلا بالاستمرار على المعاصي من غير رجوع أو إنابة؛ لذلك ختمت الآية بقوله تعالى:"مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ" وإن في التعبير بالفعل المضارع (يكسبون) دلالة واضحة على تجدّد واستمرارية كسب الذنوب والخطايا صغائرها وكبائرها[2]. يقول رسول الله ﷺ: "إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت فذلك قول الله : "كَلا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ "[3] .

أما عن حجبهم عن رؤية الله في الآخرة والتي تعد عقوبة لهم على ما بدر منهم من التكذيب والمعاصي فلم يكن إلا نتيجة لحجبهم أنفسهم وقلوبهم عن منهج الله –عز وجل– بذلك الران الذي تراكم على قلوبهم.

وقد تصل المعاصي بصاحبها إلى الكفر إن هو انحدر معها وانغمس فيها، فمن هانت عليه المعصية قد تهون عليه عقيدته؛ لذلك قال تعالى في شأن بني إسرائيل :"وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ

---

[1] – ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، علق عليه: أسامة السيّد، دار الفكر، لبنان١٩٩٩، ص١٣٩ .

[2]– ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٣٠، ص١٢٣. وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١١، ص٨٨.

[3]– أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم ٤٢٤٤.

وَٱلْمَسْكَنَةُ " (البقرة:٦١) تشير الآية إلى أن كفر بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء بغير حق جاء محصلة لمعاصيهم وتعدياتهم التي تعاظمت وتوالت حتى وصلت بهم إلى ما وصلت إليه[1]. يقول الشيخ محمد رشيد رضا: (كفرهم وجراءتهم على النبيين بالقتل إنما منشؤها عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم، لأن الذي يدين بدين أو شريعة أياً كانت يتهيب لأول الأمر من مخالفتها فإذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثراً في نفسه، وضعفت هيبة الشريعة في نظره، فإذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته، ولا يزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعاً وديناً، وينسى ما قام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة، ويضرى بالعدوان كما يضرى الحيوان بالافتراس، وكل عملٍ يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصاً ما اتبع فيه الهوى)[2].

وإن المعاصي تجمع في مدلولاتها ومتضمناتها بين ما يعد نازعاً نفسياً كحب الدنيا، والغفلة عن الآخرة، والحسد، وكراهية الحق، وبين ما يعد خلقياً وسلوكياً كالتكذيب، والاستهزاء، والكبر، وغير ذلك.

وإن الضلال المبين الذي حكم الله به على من يعصيه ورسوله ﷺ ذو مدلول دنيوي إضافة إلى مدلوله الأخروي، فضلاله الدنيوي يبعده عن منهج الله الكامن في آياته وسنة نبيه ﷺ ومخالفته لأوامرهما سبب في ضلاله الأخروي.

وفيما يلي تفصيل لأهم النوازع النفسية والسلوكيات التي قد تشكل حاجزاً يحول بين الإنسان والقرآن الكريم والتي تضمنها عموم مفهوم المعصية.

أولاً- الصوارف النفسية:

الأصل في متدبر القرآن أن يستجمع قلبه وروحه وعقله ونفسه عند إقباله على كتاب الله -عز وجل- ،فإذا كان هناك كدر في أحد الأعضاء كان هناك انشغال عن كتاب الله وانصراف عن تدبره، وإن تلك المكدرات التي قد تحيق بالنفس وتنعكس على القلب تشكل صارفاً عن فهم القرآن الكريم من حيث كونها تأسر النفس في ظلمات من الباطل ووابل من الشهوات، فأنى لنفسٍ استعبدتها الدنيا وأنى لقلبٍ وقع فريسة الأهواء والشهوات أن يقبل على كتاب الله بصفاء؟!

---

[1]- ينظر: الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عطية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص٢٧٨.

[2]- رضا: محمد رشيد، المنار، ج١، ص٢٧٣.

ويمكن إجمال بعض النوازع النفسية التي عرض إليها القرآن الكريم وتشكل صارفاً عنه فيما يلي:

١- الحسد:

يعد الحسد من النوازع النفسية التي قد تستحوذ على القلب فتورثه البعد والجفوة عن الحق. ومعنى الحسد:تمني زوال النعمة عن الغير وأن تصير للحاسد[١]. وهو علامة لضعف النفس، والتعلق بالدنيا، والأثرة وحب الذات، والعجب، والكبر، والحقد، وحب الرياسة، وخبث النفس وشحها بالخير للعباد[٢].

وقد صور القرآن الكريم تلك الآفة الكامنة في قلوب أهل الكتاب والتي أدت بهم إلى الكفر بما أنزل الله حسداً بسبب اصطفاء محمد ﷺ من غيرهم نبياً، قال تعالى: "بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ " (البقرة:٩٠)، فكانت النتيجة أن باءوا بغضب على غضب واستحقوا العذاب المهين، فهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه الحق الواجب اتباعه، قال تعالى: "ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (البقرة: ١٤٦)، إنهم يعلمون أنه مصدق لما معهم قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" (البقرة :٩١). فهم بذلك يبيعون ما وقر في قلوبهم من الإيمان والتصديق إرضاءً لنزعة الحسد في نفوسهم[٣]. يقول تعالى: "أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا" (النساء:٥٤)، يشير صاحب المنار إلى معنى الآية

---

[١]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الدال، فصل الحاء.

[٢]- ينظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، مراجعة صدقي العطار، دار الفكر، لبنان،١٩٩٥،ج٣، ص١٦٦-١٦٨ .

[٣]- ينظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج١، ص٣١١.

الكريمة بقوله مصوراً صرف اليهود أنفسهم بحسدهم عن الإيمان: (وأما اليهود فإنه لم يـؤمن ممـن ظهرت له حقية دعوة الإسلام إلا نفر قليل ومنع الحسد باقي الرؤساء أن يؤمنوا وتبعهم العامة تقليـداً لهم، ولم يمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره لهم مثل الحسد والكبر فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده لأن الحسد يفسد الطباع)[١].

ولم يقتصر ضرر بغي اليهود على أنفسهم بصرفها عن الحق المتمثـل فـي القـرآن الكريم، بل تجاوزه إلى حرصهم على رد أهل الإيمان إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الحق يقول تعالى في بيـان ذلـك : "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ" (البقرة:١٠٩)، تشير الآية إلى أن الضال يصل به الأمـر إلـى أن يصبح مضلاً، وهكذا كثير من أهل الكتاب.

وعلاج الحسد يكمن في تسخير النفس لله، ورضاها بقسمته، وتعلقها بالآخرة، وتربية الـنفس على تمني الخير للغير كما يتمنى للنفس. فإذا لم يكن للدنيا مكان في قلب الإنسان تداعت تلك الحجب التي من شأنها أن تصرف عن منهج الله. يقول ابن قدامة في تشخيصه لهذا المرض العضال ووصفه العلاج له :(ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، أما الآخرة فـلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى وملائكته وأنبياءه وملكوت أرضه وسمائه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك...إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا).[٢]إن معرفة ذلك لا تتأتى إلا بإقبـال القلوب على فهم تعاليم القرآن الكريم. وهكذا يجب أن تكون نفوس أهل الإيمان؛ لذلك قال تعالى بعـد أن وضح حسد أهل الكتاب للمؤمنين: "وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (البقرة :١١٠)

٢- الانغماس في الدنيا والرغبة عن الآخرة:

إن حب الدنيا والانشغال بها أسر للنفس في بوتقة تلك الدنيا وحصـر لهـا فـي شـهواتها ومغرياتها، من هنا كان حب الدنيا نزعة نفسية صارفة عن منهج القرآن الكريم. قال تعالى: "ٱعْلَمُوٓاْ

---

[١]-المصدر السابق، ج٥، ص١٣١ .

[٢]-ابن قدامة، أحمد بن عبد الرحمن، مختصر منهاج القاصدين، حققه: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر أرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٧٨، ص٢٠٤.

أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا" (الحديد: ٢٠) ويقول في خاتمة أكثر من آيـة: "وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ" ويقول رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[1].

كثيرة هي الآيات والأحاديث التي توضح أن الدنيا تمتلئ بالملذات والشهوات التي تأسر من يستسلم لها وينساق لركبها، فإن الدنيا جنة الكافر وجنة العاصي من حيث كونها مشغلة له عن الله بما فيها من اللهو واللعب. إن الانشغال بالدنيا يتناسب عكسياً مع الإقبال على كتاب الله- عز وجل-، فكلما اقتحم الإنسان باب الدنيا صعبت عليه الإنابة، بل قد تصل به إلى بذل ما بوسعه لنيل متاعها مما يؤدي به إلى الغفلة عن منهجه ومصيره، فما يلبث أن تعصف به نهاية حياته حيث لا ينفع الندم ولا تقبل الإنابة. قال تعالى: "ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ" (الأنبياء:١-٣) هذه الآيات تصور حال أولئك السادرين في غيهم، المنغمسين في شهواتهم، الذين يظنون أن الدنيا دائمة لهم، فهم في غفلة معرضون وإذا جاءتهم الآيات فلا تصل إلى قلوبهم اللاهية بل لا تكاد تجاوز أسماعهم، فهم يستمعون للآيات ولا يفهمون مرادها لكونهم مشغوفين بالدنيا.

يقول ابن عاشور في تصوير غفلة قلوبهم وإعراضهم عن الذكر المحدث الذي يأتيهم من ربهم: (والإعراض: صرف العقل عن الاشتغال بالشيء، وإعراضهم هو إبايتهم التأمل في آيات القرآن التي تذكرهم بالبعث وتستدل لهم عليه، فمتعلق الإعراض غير متعلق الغفلة، لأن المعرض عن الشيء لا يعد غافلاً عنه، أي أنهم لما جاءتهم دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان وأنذرهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به، فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه:كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الضعفاء، رقم ٢٧٤٢.

مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضــهم عــن الــدلائل المثبتــة للبعث)[١].

ومعنى الغفلة: الذهول عن الحق والانصراف عن تعاليمه، فكأن القلب في غطاء يحجبه عن منهج الخير ودلائل الهدى وطرق علمه[٢]. لذلك قال تعالى معاتباً ذلك الإنسان الساهي اللاهي المنغمس في أهوائه ومتاع دنياه المتشاغل عن القيامة وأهوالها وما تحمله من العاقبة والمصــير: "لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ " (ق: ٢٢)، لقد عبر القرآن بحرف الجر(من) مع أن المتبادر أن الغفلة تكون عن الشيء لا منه للدلالة عن أن غفلته كانت بســبب ذلــك الغطــاء والحجب الكثيفة التي صرفته عن اتباع الحق في دنياه، فــ(من) هنا تفيد السببية فإن سبب غفلتهم عن الآخرة غفلتهم عن حقيقة الدنيا فهم لا يدركون منها إلا ما ظهر من زيفها، قال تعالى: " يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ" (الروم:٧) .

وكثيراً ما تعرض للإنسان في دنياه شواغل وهموم تصرفه عن قراءة القرآن الكريم وتــدبره، ولو قرأه فإنه لا يجاوز حدود نظره، وإذا سمعه فلا يجد له قراراً في قلبه لاستحواذ شــواغل الــدنيا على فكره، ولا يدري فلعله إذا قرأ القرآن بإمعان نظر، وإجالة فكر يجد راحة لنفسه وفرجــاً لكربــه وحلاً لمشكلاته.

إن تذكر الآخرة لا يتأتى إلا بتدبر القرآن وفهمه إذ هو الكتاب الذي يذكر بالله، وبما أوجب الإيمان به من الغيب والذي من جملته اليوم الآخر؛ لذلك قال تعالى في حق الغافلين والكافرين الذين طبع حب الدنيا على قلوبهم فأقفلها في وجه بواعث الحق: "وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ" (يــــس:١٠-١١)، وإن استحضار ذكر الآخرة بمواصلة العيش في رحاب الله يؤدي إلى هوان الدنيا والرغبة عنها، وإن أوتي المؤمن من متاعها فلا يأخذ مكانه في قلبه بل يبقى في يده، فلذلك قيل:(اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا

---

[١]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٧، ص١١.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ج١٢، ص٣٠٩، وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠،ص١٣٥.

تجعلها في قلوبنا) فأنى لقلب أحب الدنيا وجعلها همه وسعى لها سعيها فجمع وأوعى أن يفهم القـــرآن ويتأثر بمواعظه؟

لقد هذب القرآن النفوس وعامل أتباعه وفق بشريتهم وهيأ لهم أسباب الراحة والســـعادة فـــي الدنيا، فلا مانع أن يأكل ويشرب ويتزوج ويستمتع بالدنيا، المهم أن لا يترف فيها وتكون همه فتصرفه عن القرآن، وتغلق قلبه في وجه بواعث الإيمان؛ لـــذلك قـــال تعـــالى: "وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَنٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٧٧).

٣- كراهية الحق والانغماس في الباطل:

إن استخلاف الله للبشر وبداية تنفيذ ذلك بأمر الملائكة بالسجود لآدم-عليه السلام- ورفـــض إبليس تنفيذ ذلك الأمر، ومن ثم ما حصل لآدم-عليه السلام-عقيب أكله وزوجه من الشجرة، والـــذي ترتب عليه هبوطه-عليه السلام-وذريته من الجنة، كان بداية لصراع مرير بـــين الحـــق والباطـــل، والخير والشر، والهدى والضلال. قال تعـــالى : "فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ " (البقرة:٣٦-٣٩)، هذه الآيات تجلي الصراع وتربطه بالمصير المحتوم الذي لا بد أن يؤول إليه أتباع كل فريق، ولا شك أن الحق متمثل في منهج الله الذي اختاره ليقام علـــى الأرض، واصـــطفى لحمله خير خلقه من أنبيائه ورسله، والذي ختم بالقرآن الكريم الهادي للتي هي أقـــوم، وإن الباطـــل متمثل في شخص إبليس ومن انساق لنهجه، واستجاب لداعي الشر في نفسه، وأعرض عـــن الهـــدى المتمثل في رسالة السماء والتي أصّلها وأتم نورها القرآن الكـــريم المنـــزل علـــى خـــاتم المرســـلين محمد ﷺ.

ومن أسباب الانصراف عن الحق والركون إلى الباطل:

١ – مخالفة الحق لهوى النفس ودواعي الشر فيها :

لقد أودع الله في النفس الإنسانية نوازع وغرائز وشهوات تجعلها تميل إلى الركون للدنيا ومتاعها الزائل، وهذا ما اقتضته طبيعة الصراع بين الحق والباطل، فهو صراع ذو بعد نفسي داخلي إضافة إلى ما فيه من البعد الاجتماعي الإنساني الخارجي. فالنفس تميل إلى الراحة والاستمتاع بالشهوات وحب المال، قال تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ" (آل عمران :١٤)، وإن الالتزام بمنهج القرآن الكريم يلزم النفس بتهذيب شهواتها والتخلي عن كثير من نوازعها في سبيل اتباع الحق وإحقاقه. فالجهاد والإنفاق في سبيل الله تضحية بالمال والنفس، وهذا أمر شاق على أسير شهواته، والعفو عن المسيء والظالم والحلم على الجاهل أمر شاق على من غلبت عليه الأثرة والأنانية وحب الذات والاعتداد بالرأي، والصبر على البلاء والرضى بمر القضاء أمر في غاية الصعوبة على تلك النفس المحبة للراحة الساخطة عند تعثر أمرها، والإقرار بالذنب وقول الحق والحكم بالعدل حتى لو كانت مجانبة الحق من قبل النفس وذوي القرابات أمر يأباه حب السيادة والاعتزاز بالنفس والقرابة والعشيرة؛ لذلك فالنفس الضعيفة تكره الحق لأنه كثيراً ما يعترض طريقها ويخالف هواها، فلا يجد صاحب تلك النفس إلا الإعراض والانصراف عن بواعث الحق ونداءات الخير المتمثلة في القرآن الكريم. قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ" (يس ٤٥ –٤٧) .

هذه الآيات تجسد كراهة أولئك المغرضين للحق الكامن في أوامر الله الواردة في آياته، فهم يخافون على أموالهم من النفاد؛ لذلك رفضوا الإنفاق مما رزقهم الله وقالوا: "أنطعم من لو يشـاء الله أطعمه".

ولما علل الله تعالى غمرة قلوبهم والعذاب الذي سيحل بهم وبمترفيهم قـال: "قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ" (المؤمنون :٦٦) والنكوص: الإحجام عن الشيء[1]، وبعـد أن ساق انصرافهم عن تدبر القول الحق وكيلهم الذرائع والتهم الباطلة مسوغين بذلك نكوصهم قال تعالى: "بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ" (المؤمنـون:٧٠) ومما يؤكد أن كراهتهم للحق لم تكن إلا لما فيه من مخالفة أهـوائهم قولـه تعـالى: "وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ" (المؤمنون: ٧١) إذ إن الخروج عن الحـق والانغماس في براثن الشهوات والأباطيل خروج عن النواميس الكونية والقوانين الربانية التـي حكـم الوجود وفقها، وحدد المنهج المطلوب من الإنسان ليسير في ركبها، يقول صاحب الظلال: (والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الناموس وتجري السنن في هذا الكون وما فيه ومن فيه، فالحق واحد ثابت والأهواء كثيرة ومتقلبة، وبالحق الواحد يـدبر الكـون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ولاتتخلف سنته لرغبة طارئة)[2]. وهذا ما يفسره قول رسـول الله ﷺ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواهـا وتمنـى علـى الله الأماني"[3].

فالعاجز:هو الذي لا يقوى على دفع ثمن الالتزام بالحق، والكيس:هو الذي يجند نفسه له ولو أدى به الأمر إلى خسارة أهله وأقرانه وأحبائه وحتى نفسه التي بين جنبيه.

---

[1]- الأصفهاني، المفردات، ص٥٠٧.

[2] – قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٤٧٥.

[3] – أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٦٠.

٢- حب السيادة والخوف على زوال المنصب:

جبلت النفس الإنسانية على حب التملك والسيادة ففي كل محيط اجتماعي نرى أناساً يسوسون غيرهم ويستوون على عرش القيادة فيهم، فإذا ما هبت عاصفة من شأنها أن تفتك بسيادتهم أو تنزلهم عن عرش قيادتهم هبوا لإنقاذ ملكهم، وجندوا لذلك أقوى إمكاناتهم وأسلحتهم.

وهذا ما صوره القرآن في حديثه عن علية القوم الذين سماهم بالملأ، والذين لم يكتفوا بمصارعة الحق المبين الذي تمثل برسالات الأنبياء، بل إنهم ألبوا عامة الناس ضدهم وذلك بتنفيرهم من دعوة الحق وأهله، قال تعالى : "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ" (الزخرف: ٥١ -٥٤).

وإن وسائل صراعهم مع الحق تمثلت بالمحاجة تارة، وبالإغراء تارةً أخرى، وإذا ما فلتت الأمور من أيديهم لجأوا إلى استخدام القوة والحرب الضروس التي كثيراً ما كانت الجولة فيها لصالح الحق، وتمثل هذا في موقف فرعون وملئه من دعوة موسى-عليه السلام- فبعد أن حاجه في ربه قال تعالى : "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ " (الشعراء ٢٣ -٢٦) اتهمه بالسحر والكذب،قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ" (غافر: ٢٣ -٢٤) فلما لم يجد في ذلك غنيته لجأ إلى التهديد بسلاح الضعيف، قال تعالى : "فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ" (غافر: ٢٥-٢٦).

إن السبب الكامن وراء استنفاد علية القوم طاقاتهم في الكيد للحق قناعتهم أن الحق من شأنه أن يسلبهم ملكهم الذي بني على باطل، ويسلبهم مالهم الذي جمعوه ظلماً وزوراً، ويسلبهم مكانتهم بين العامة والتي صنعوها بأيديهم الحديدية وزيفهم الخادع.

وقد لا يكون صاحب السيادة في قومه كارهاً للحق ولكن اعتزازه بمكانته كان صارفاً له عن الإيمان، وقد تمثل هذا في موقف أبي طالب الذي آثر أن يموت على ملة أبيه عبد المطلب حتى لا تقول العرب إنه فارق دين آبائه وأجداده وهو من هو؟! إنه الزعيم ذو الكلمة المسموعة والرأي المطاع[١].

٣- الخوف من المواجهة بحقيقة النفس:

سبقت الإشارة إلى أن المنافق يحذر أن تنزل عليه آية تنبئه بما في قلبه، فإنه يخاف أن تأخذ الآيات مكانها في قلبه فيذعن ويطيع؛ لذلك فإن كثيرا من الناس ينصرفون عن القرآن الكريم ويترفعون عن تدبره لأنهم يقرون في قرارة أنفسهم بحقية القرآن وقدرته على استمالة القلوب والعقول للحق، ويؤمنون بأنهم على باطل وأن القرآن من شأنه أن يسلبهم متعة ما هم عليه من الباطل وثقتهم به. وقد تم تفصيل هذا عند الحديث عن النفاق فلا حاجة لنا للبيان.

إن هذه النوازع النفسية وغيرها شكلت حجاباً منيعاً بين الإنسان وكتاب الله؛ لذلك كان جديراً بالدعاة المخلصين أن يبعثوا الحياة في الفطرة السليمة التي لا تخلو منها نفس.

ثانياً: الصوارف الخلقية والسلوكية:

إن ّما سبقت الإشارة إليه من الصوارف تنعكس على أخلاق صاحبها وسلوكه، لتشكل بجملتها صارفاً عن فهم القرآن الكريم وعن قراءته، فالكفر والنفاق وغير ذلك باعث على خلق التكذيب والاستكبار والاستهزاء، وهذه الأخلاق هي التي تبرز ما وقر في قلب صاحبها واستقر في نفسه من سوء الطوية وبطلان المعتقد.

ومعنى الخلق:الطبع والسجية، وهي جملة الصفات التي يبرزها الإنسان في تعامله مع من حوله، يقول الراغب: (خُصّ الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة)[٢]. والسلوك :هو إنفاذ ذلك الخلق وآلية التعامل وفقه، فإذا قلنا فلان كذاب نعني أن الكذب خلق وصفة له، وعندما يباشر الكذب ويشرع فيه فإن خلقه هذا ينفذ فيصبح سلوكا.والأخلاق تحتمل الحسن والقبح ولا شك أن الأخلاق الصارفة عن

---

[١]- ينظر: المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص١٠٣.

[٢]- الأصفهاني، المفردات، ص ١٦٤ .

قراءة القرآن وفهمه تعد أخلاقاً سيئة، فالقرآن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ولا يُقبل عليه إلا ذو خلق دمثٍ عظيم.

ومن أهم الصوارف الخُلقية:

١- الاستهزاء:

وهو خلق ذميم، نابع من نفس ملؤها الغرور والاعتداد بالذات والتعالي على الغير، ولا بد أن يكون المستهزئ ذا عقيدة باطلة، كأن يكون كافراً، أو منافقاً، أومن المجاهرين بالمعصية. ومعنى الاستهزاء: السخرية المنبثقة عن تحقير وانتقاص من قبل المستهزئ لما يستهزئ به. وقد عبر القرآن الكريم عن استهزائهم بأكثر من لفظ، فتارةً يعبر بالاستهزاء، قال تعالى: "وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" (التوبة:٦٥) وتارةً بالسخرية، قال تعالى: " بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ " (الصافات: ١٢) وتارةً بالضحك، قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ " (المطففين: ٢٩) وتارةً يعبر عن وسيلة استهزائهم فيقول: " وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ "(الهمزة: ١) والهمز واللمز: حركات وإشارات تعبر بها الجوارح عن الاستهزاء، وقد يطلقان أيضاً على الغيبة، فهما لفظان يعكسان الاستهزاء والسخرية من الغير بحضوره وعند توليه[١].

ومع أن الاستهزاء والسخرية يعكسان معنىً واحداً في الظاهر، وهو الاستخفاف بالغير والضحك منه، إلا أن بينهما فرقاً دقيقاً مفاده: أن الاستهزاء أعمق في مدلوله من السخرية، فهو لفظ يعبر به عن خبث النفس التي ينبثق عنها هذا السلوك، أما السخرية: فهي تنفيذ الاستهزاء بالسلوك، فالاستهزاء أعم في مدلوله من السخرية. ويتجلى ذلك في قوله تعالى: " وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (الأنعام :١٠) يقول صاحب الإحياء: (ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان في حضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى

---

[١]- ينظر: المصدر السابق، ص ٥٢٣، ص ٤٥٨، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥، ص٥٣٧ .

الغيبة)[١]. يؤكد الغزالي أن السخرية ترجمة سلوكية للاستهزاء، ويمكن أن يعبر عن تلك الترجمة بالاستهزاء إذ اللفظ يشملها.

ومن أمثلة الاستهزاء التي شهدها تاريخ أهل الكفر إبان نزول القرآن الكريم أنهم كانوا يستهزؤون بطعام أهل النار ويقولون :"إن إبلنا لتسمن بالضريع مستهزئين بقوله تعالى:

"لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ" (الغاشية:٦-٧) [٢]، وفي تعليقهم على شجرة الزقوم والتي هي طعام الأثيم يروى قول أبي جهل: "أيخوفني ابن أبي كبشة بشجرة الزقوم؟ ثم دعا بتمر وزبد فجعل يقول: زقمني"[٣]. وقد يقع الاستهزاء من ضعاف الإيمان وأهل المعاصي، ومن صوره الاستخفاف ببعض الشرائع الدينية كتعدد الزوجات، والهزل في تطليق النساء، فترى أحدهم يجلس على المقهى وأمامه طاولة الشطرنج يتبجح قائلاً: علي الطلاق من زوجتي، يقول صاحب المنار في حديثه عن قوله تعالى في سياق آيات الطلاق: "وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا"(البقرة :٢٣١):

(وهذا وعيد بعد وعيد، وتهديد لمن يتعدى حدود الله في هذه الأحكام أي تهديد؛ والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجية وتوقي ما كانوا عليه في عهد الجاهلية، فقد كانوا يتخذون النساء لعباً ويعبثون بطلاقهن وإمساكهن عبثا... فإن هذا التهاون والاعتداء للحدود بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى يعد استهزاءً بآياته)[٤].

لا جرم أن الاستهزاء بالله وآياته ورسله والمؤمنين يشكل صارفاً قوياً عن فهم القرآن الكريم، فأنى لمستهزئ تعالى بنفسه فوق الحق وضرب به عرض الحائط ، واتخذه مثار خوضه ولعبه أن يسمح للقرآن أن يأخذ مكانه اللائق في قلبه، فيفهم مقاصده ويعيش مع آياته. وقد وعد الله أولئك المستهزئين بحبوط العمل في الدنيا، والعذاب المقيم يوم القيامة. قال تعالى: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ

[١]-الغزالي، الإحياء، ج ٣، ص ١١٤.

[٢]- ينظر:القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق:عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م ،. ج ٢٢، ص ٢٤٦ .

[٣]- الطبري،جامع البيان، ج ٢٣، ص٧٦.

[٤]- رضا، محمد رشيد، المنار،ج٢ ، ص٣٤٠.

رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا" (الكهف:١٠٣-١٠٦) وتجدر الإشارة إلى أن مجالس المستهزئين الخائضين في آيات الله يعد مثلهم، لأن ذلك إيذان بقبوله ما هم عليه من الباطل. قال تعالى: " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا" (النساء:١٤٠) لذلك يجب الحذر من الخوض مع أولئك الخائضين حتى ولو بمجالستهم، فإن مجالستهم تسلب القلب الحياة وتنأى بالفكر عن الحق.

٢- الكبر والعجب:

ومن الأخلاق التي تصرف بقوة عن فهم القرآن الكريم الكبر والعجب، وهما خلقان بينهما لحمة شديدة، فالعجب: هو أن لا يرى الإنسان الخير إلا في نفسه ويروقه منها كل شيء. والكبر: هو شعور بالعظمة يورث صاحبه الاعتداد والترفع بنفسه والتعالي عن غيره مع احتقارهم وانتقاصهم. فالعجب دافع الكبر وباعثه، إذ لا بد للمتكبر أن يكون معجباً بنفسه ورأيه.

ولقد عرف رسول الله ﷺ الكبر بقوله: "الكبر بطر الحق وغمط الناس" يقول الشارح: " وبطر الحق هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبرا، وغمط الناس معناه احتقارهم[١] .

وقد تناول القرآن ذلك الخلق الذميم في مواضع كثيرة، فتارةً يقول: يتكبرون، قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ " (الأعراف: ١٤٦) وتارةً يستكبرون، يقول تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا

---

[١]- أخرجه مسلم : صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، رقم ٢٦٥.

لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ " (الأعراف: ٤٠).

والفرق بينهما أن التكبر فيه معنى التكلف، فصيغة التفعل تدل على التكثير والمبالغة بالشيء، بمعنى أن المتكبر بغير حق يكلف نفسه مرتقىً لا تستحقه. أما الاستكبار فإن السين والتاء إذا دخلتا على الفعل أورثتاه معنى الطلب، بمعنى أن المستكبر هو الذي يبذل قصارى جهده في طلب أن يعامله الناس على أنه كبير. أما الكبر والذي هو باعث الاستكبار والتكبر فقد ورد في قوله تعالى : "إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ "(غافر:٥٦) .

يوضح صاحب المفردات هذه المسميات القرآنية الثلاثة بقوله: (الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب، فالكبر: هو الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره... والاستكبار: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا... والتكبر: أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً وذلك في وصف عامة الناس نحو قوله :"فبئس مثوى المتكبرين".[1]

ومن مظاهر الكبر التي تناولها القرآن الكريم :

١- الاستكبار عن عبادة الله:

فالمستكبر يترفع عن دخول المساجد وإقامة الشعائر الدينية، وليس ذلك فحسب بل إنهم ينازعون الله في عظمته. وقد مثل القرآن لذلك بفرعون واستكباره عن دين الحق الذي جاء به موسى -عليه السلام- قال تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ۚ " (القصص ٣٨)

وهؤلاء مصيرهم الذل والهوان ودخول جهنم صاغرين، قال تعالى : "وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (غافر:٦٠) توضح الآية الكريمة

---

[1]- الأصفهاني، المفردات، ص٤٢٤.

أن من صور التكبر عن عبادة الله الترفع عن الدعاء بدعوى الاستغناء عن الله. وقد مثل القرآن بهذا لقارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم وهو صاحب الكنوز التي مفاتحها تنوء بالعصبة أولي القوة "قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ " (القصص :٧٨) . فهو بذلك ينكر فضل الله عليه ويستكبر عن عبادته.

٢- الاستكبار عن آيات الله :

قال تعالى : "بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ" (الزمر:٥٩)

وقال: "وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ" (الأعراف :٣٦)

ومعنى الاستكبار عن الآيات: الترفع عن قراءتها وتدبرها وإقفال القلوب في وجه هداياتها ومواعظها، وهذا مثل الكافرين والمنافقين والمجاهرين بالمعاصي، فأولئك لا يقرؤون القرآن، وإن حصل وقرؤوه فهم ينثرونه نثر الدقل[1]؛ لذلك ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للمنافق الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر[2].

٣- الاستكبار عن أنبياء الله ورسله:

وهذا ديدن الكافرين الذين حال كبرهم وغرورهم دون الاستجابة لدعوة الرسل بداعي أنهم بشر مثلهم، فاستكبروا عنهم وكذبوهم، قال تعالى : "وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ " (يس:١٣-١٦) وديدن المنافقين الذين ترفعوا عن الاستجابة للنبي والحق الذي جاء به. قال

---

[1]- الدقل: رديء للتمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا، ابن منظور: لسان العرب، باب الراء، فصل الكاف.

[2]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، رقم ٥٠٢٠.

تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ " (المنافقون :٥) ولي الرؤوس علامة لتكبرهم واستخفافهم بأمر رسول الله ﷺ ومكانه عند الله.

٤- الاستكبار عن الناس خاصةً الضعفاء من المؤمنين:

يشهد التاريخ أن المشركين رفضوا السماع لرسول الله ﷺ وحوله بلال وعمار وصهيب، فقد روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه و سلم: اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه و سلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز و جل: أن سبب نزول قوله تعالى: "وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ" (الأنعام :٥٢)[١].

ولا شك أن هذه الجوانب الأربعة للاستكبار المذموم كما صورها القرآن الكريم تصرف عن الإيمان وبالتالي عن قراءة القرآن الكريم وفهمه. قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ" (الأعراف:١٤٦) وردت هذه اللفظة في سياق الحديث عن موسى- عليه السلام -وقومه الذين خرجوا من مصر حيث أدرك آل فرعون الغرق وحاق بهم سوء العذاب ونجى الله نبيه -عليه السلام- ومن آمن به من قوم فرعون وبني إسرائيل.

ومعنى سأصرف عن آياتي: سأنزع عنهم فهم الكتاب والاعتبار بمواعظه. يقول صاحب المنار في تأويله للآية الكريمة: (والمعنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق من قومك أيها الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملأه عن آياتي التي آتيتها

[١]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رقم ٦٢٤٠.

رسولي موسى –عليه السلام–) [١]ولا يمنع أن تكون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فكل متكبر يؤدي به تكبره إلى الطبع على قلبه، وتعطيل حواسه، فينصرف بالمحصلة عن تدبر القرآن وفهمه، قال تعالى: "ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ" (غافر:٣٥).

وحتى يلين قلب المتكبر ويتهيأ لقبول الحق والعودة إلى منبع الخير لا بد له من أن يحقق أمرين:

١– أن يتعرف على خالقه وما دل عليه من كامل صفاته وبديع خلقه وأن بيده السيطرة على الخلق، فهو يحييهم ويميتهم، ويعطيهم ويمنعهم، ويعزهم ويذلهم، فلا يملك الإنسان لنفسه شيئا إلا بإذن الله.

٢– أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه، فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فخلق من ماء مهين، وسيصير إلى زوال وكأن شيئاً لم يكن.

فإذا عرف الإنسان عظمة خالقه ذل له وانقاد لهديه، وإذا عرف حقيقة نفسه وأنه خلق من ضعف وسيصير إلى ضعف وشيبة قادها إلى الخير وحماها من سوء العاقبة.

ثالثاً– التكذيب:

وهو سلاح يستخدمه صاحب العقيدة الباطلة لتسويغ إنكاره للحق وإعراضه عنه، فهو يعلم في قرارة نفسه أنه حق يجب اتباعه وأن، براهينه أسطع وأقوى من أن يجادل فيها مجادل، فلا يجد طريقة للتنفير منه إلا أن يكذب به.

فالكذب:ضد الصدق. وهو خلق ذكره القرآن في كثير من المواضع التي تحدث بها عن الكافرين وغيرهم من أهل الضلالات.

يلاحظ على ورود لفظ الكذب في القرآن الكريم ما يلي:

أنه ارتبط بالكفر، قال تعالى: " وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ" (البقرة:٣٩)، والنفاق، قال تعالى: "إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ

[١]- رضا، محمد رشيد، المنار، ج٩، ص١٦٨.

لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ"(المنافقون:١)، والظلم، قال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ" (الأنعام :٢١)، كما ارتبط بالتولي في قوله تعالى: "وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ" (القيامة: ٢٨)، والصدف في قوله تعالى: " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ" (الأنعام : ١٥٧)، والإضلال في قولـه تعـالى: "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ"(الأنعام: ١٤٤)، والغفلة فـي قولـه تعـالى: " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ" (الأعراف:١٣٦)، والاستكبار في قوله تعالى: "وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ"(الأعـراف: ٣٦)، واتباع الهوى في قوله تعالى: " وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ"(القمـر:٣). ودلالـة ذلـك أن التكذيب خلق منبثقٌ عن عقائد باطلة مستكنة في القلب، وأنـه وسـيلة للانصـراف عـن آيـات الله والإعراض عن هداياتها.

أما عن الأشياء التي كذب بها المكذبون فقد حصرها القرآن فيما يلي:

"أ" **التكذيب بآيات الله الكونية والمعجزات والآيات القرآنية:**

قال تعالى في شأن فرعون وموقفه من الآيات التي جاء بها موسى –عليه السلام– : "وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ" (طه: ٥٥) وقوله في التدليل على التكذيب بالقرآن: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ " (الأنعام:٢١) قال الإمـام الـرازي: (مـن أسـباب

خسرانهم تكذيبهم بآيات الله، والمراد منه قدحهم في معجزات محمد ﷺ وطعنهم فيها وإنكارهم كون القرآن معجزة قاهرة بينة)[١].

وقد صرح الله تعالى بتكذيبهم بالكتاب أي القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية الأخرى، قال تعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ" (غافر:٧٠).

"**ب" تكذيبهم بالصدق والحق**، ويشمل ذلك تكذيبهم بالقرآن الكريم وما جاء به، قال تعالى : " بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ" (الزمر: ٣٢) وقال : " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ" (العنكبوت: ٦٨).

"**ج" تكذيبهم رسل الله عامة ومحمد ﷺ خاصة قال تعالى:** "فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ "(آل عمران: ١٨٤)، وقال: " وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ "(فاطر: ٢٥)، ومن الجدير بالملاحظة أنهم لا يكذبون الرسل بأعيانهم إنما يكذبون ما جاءوا به.

قال تعالى مسرياً عن نبيه محمد ﷺ إزاء تكذيب قومه له وإعراضهم عنه: " قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ " (الأنعام:٣٣) ، ومعنى الآية إننا نعلم يا محمد إنك تحزن لما قومك عليه من الكفر والتكذيب فإنهم في حقيقة أمرهم لا يكذبون شخصك فهم يعلمون صدقك وأمانتك منذ أن كنت فيهم فتى، لكنهم يكذبون بنبوتك وما جئت به من القرآن حيث كانوا قد شهدوا لك بالصدق والأمانة في أكثر من واقعة.

[١]- الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٢، ص١٥٠.

"د" التكذيب بلقاء الله واليوم الآخر وما يكتنفه من العذاب للكافرين:

كثيرةٌ هي الآيات التي تتحدث عن إنكار الكافرين للبعث وتكذيبهم بــه، قــال تعــالى: "بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان:١١)، وقــال: "وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ" (الروم:١٦)، وقال: "وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ"(السجدة:٢٠)، فإن الإيمان باليوم الآخر يعد من أهم الركائز التي استندت عليها وأثبتتها رســالات الله بأســرها. إن سبب تكذيبهم بذلك إنكارهم للغيبيات وإغراقهم في الماديات والمحسوسات، فعقــولهم المحــدودة فــي تصورها لا تستوعب أن هناك نهاية للدنيا.

يتبين من هذا الاستعراض أن تكذيبهم لا بد أن يؤدي إلى انصرافهم عما يكذبون به وإعراضــهم عنه؛ إذ كيف يسمح مكذب لنفسه المنهمكة في التعالي والتكذيب أن يعي الحق ويفتح قلبه للهدى بعد أن أقفله وطبع عليه بحجاب تكذيبه.

ولا خلاص من هذه النوازع والسلوكيات إلا بإدراك حقيقة الوجود، وحتمية المعاد، وأن كل شيء خاضع لهيمنة رب العباد الذي له الحكم في الأولى والآخرة وإليه يرجع الأمر كله فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعــالى: " وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ " (هود: ١٢٣).

المبحث الثالث

الصوارف المعرفية والمنهجية

إن ما سبق ذكره من الصوارف في المبحثين السابقين من شأنه أن يصرف عن قراءة القرآن الكريم، ومن ثمّ عن تدبره وفهمه؛ إذ إن الفرد الذي ينطلق من عقيدة باطلة، ويتخلق بأخلاق ذميمة لا يكلف نفسه مؤونة قراءة القرآن الكريم بوصفه منهجاً للحق الذي رفضه وجند قواه لدحره، وإن قرأه انحرف في فهمه واتخذه هزواً، أما في هذا المبحث فسيتم الحديث عن أناس يقرؤون القرآن إلا أنهم ينصرفون عن فهمه وتدبره على الوجه المطلوب، وإن الصوارف التي تحول بينهم وبين فهم القرآن إما أن تكون متعلقة بمعارف وأفكار داخلت عقولهم وانعكست على فهمهم للقرآن الكريم، أو قد تتعلق بالنهج الذي يتبعونه في تعاملهم مع القرآن الكريم. وإن بين الصوارف المعرفية والمنهجية علاقة وطيدة؛ إذ إن جملة معارف الفرد تعد ذات انعكاس واضح وملموس على منهج التعامل مع القرآن الكريم، كما أن المنهج يرتكز على تلك المعارف، أو إنه قد يكون نتيجة للعقيدة والأخلاق التي يحملها الفرد ويتصرف وفقها، ومن أهم تلك الصوارف:

أولاً: الجهل واتباع الهوى:-

إن الثبات على الحق وسلوك طريق العلم أمر شاق على نفس زُين لها حب الشهوات ومالت إلى الدعة والراحة، لذا كان الجهل واتباع الهوى صارفين عن قراءة القرآن وتدبره من حيث كونهما يسيران في مسار معاكس للحق والعلم. والجهل نقيض العلم وقد يطلق على اعتقاد الشيء على غير ما وضع له، أو فعله على غير ما حقه أن يفعل[١]، ولا يعد الجهل صارفاً عن فهم القرآن الكريم لمجرد كونه عدم علم بأحكامه، فغير العالم إذا توافرت لديه الرغبة والإرادة لا يجد صعوبة في تدبر القرآن وفهمه حتى لو كلفه ذلك وقتاً وجهداً. أما الجهل الذي يعد صارفاً عن فهم القرآن الكريم فهو الذي يحيد بصاحبه عن الجادة فهم يعلمون ويتنكرون لما يعلمون فلا يحصلون فائدة من علمهم، فمثلهم كمثل الذين أوتوا الكتاب فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً كأنهم لا يعلمون[٢]، ومن هنا ارتبط الجهل المذموم باتباع الهوى والذي يعني: ميل النفس إلى الشهوة وركونها إلى رغباتها ومحبوباتها التي تخالف ما أمر الله به؛ لذلك مدح الله عباده المؤمنين الذين سلكوا طريق الإيمان والعلم وغالبوا

---

[١]- الأصفهاني، المفردات، ص١٠٩.

[٢]- ينظر: العبدالله، جهاد، الظلم في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، ص ٢٨.

هوى نفوسهم في سبيل طاعة الله، ووعدهم بالثواب الجزيل، قال تعالى: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ" (النازعات:٤٠-٤١)،[١] وإن أهل الكتاب لما خالفوا كتابهم برفضهم الإقرار بنبوة محمد ﷺ، ولما استكبروا عن دعوة الحق فكذبوا فريقاً من أنبيائهم وقتلوا الفريق الآخر، أولئك الذين قال الله فيهم: "أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ" (البقرة:٨٧)، وقد قرن الله اتباع الهوى بعدم العلم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى بعد أن ذكر وجوب الأكل مما ذكر اسم الله عليه وبيان حرمة سواه: "وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ" (الأنعام:١١٩).

توضح الآية الكريمة أن سبب ضلالهم وانغماسهم في أهوائهم عدم علمهم ويقينهم بأحقية القرآن بالاتباع فجهلهم كان سبباً لاعتدائهم على شرع الله بمخالفة أمره واستحلال ما حرم، وقد قال تعالى أيضاً: "بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ" (الروم:٢٩)، يقول ابن عاشور في تأويله للآية الكريمة: (وتقييد اتباع الهوى بأنه بغير علم تشنيع لهذا الاتباع فإنه اتباع شهوة مع جهالة فإن العالم إذا اتبع الهوى كان متحرراً من التوغل في هواه لعلمه بفساده)[٢] وفي عرض بيان أن عدم استجابة أهل الكتاب لما جاء به محمد ﷺ ناجم عن اتباع الهوى وجهلهم بقيمة القرآن الكريم وأنه الهدى من الله يقول تعالى: "فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ" (القصص:٥٠)، هذه الآية تبين سطوع حجة القرآن الكريم وإن عدم استجابتهم له بالاتباع ليس إلا اتباعاً لأهوائهم؛ لذلك فقد وصفهم الله بغاية الضلال موضحاً أن اتباعهم لأهوائهم بغير حجة

---

[١]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الياء، فصل الهاء.

[٢]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢١،ص ٤٦.

وبرهان ودليل إنما هو تقليد ناشئ عن جهل، فهم بذلك ظلموا أنفسهم بمجانبتهم للحق وإذعانهم للباطل والهوى[١]، ولا شك أن الجهل واتباع الهوى باعثان قويان على المعصية ومخالفة تعاليم الله الواردة في كتابه فلا يعصي الله إلا من جهل واتبع هواه ، يقول ابن تيمية: (وفي الحقيقة فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل، وإلا فلو كان عالماً علماً نافعاً بأن فعل هذا يضره ضرراً راجحاً لم يفعله فإن هـذا خاصـية العاقل والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل)[٢] وفي بيان أثر اتباع الهوى علـى سـلب الفهم وتعطيل ملكاته وأدواته والنكوص عن الطاعة والعمل الصالح يقـول تعـالى: "أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" (الجاثية:٢٣)، تؤكد الآية الكريمة أن اتباع الهوى قد يصل بالمرء إلى أن يصـبح الهوى له معبوداً فيحجب بذلك حواسه ويختم على قلبه فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكـراً ولا يعـي علماً.[٣] ولا شك أن اتباع الهوى مضل عن سبيل الله وصاد عن الخير والحق، فلا يتبع هواه في فهـم القرآن إلا من جهل قيمته وأثره البارز في تغيير مسار حياة الأفراد والمجتمعات والأمم إلـى حيـث الرقي والازدهار والتقدم في مجالات الدين والدنيا، يقول الماوردي في بيان ضرر اتباع الهوى علـى الفرد: (وأما الهوى فهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر مـن الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً)[٤]. ومن أخطر ما يفضي إليـه الجهل واتباع الهوى أن يقرأ الإنسان القرآن فيفهمه وفق مزاجه وهواه مخالفاً بذلك الأصول الصحيحة في فهم القرآن الكريم، والأدهى من ذلك أن يوجه إلى الصواب فيصر على رأيه لأن في ذلـك هـواه وميله، ومثال ذلك الفهم المغلوط الذي نراه عند كثير من الناس للضوابط التي وضعها القـرآن فـي تأديب الزوجة التي يخاف نشوزها وذلك فـي قولـه تعـالى: "وَٱلَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا

---

[١]- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨، ص٦٠٦.

[٢]- ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام، الحسنة والسيئة، تقديم محمد غازي، دار الكتب العلمية، لبنان، ص٥٨.

[٣]- ينظر: الراشد، محمد أحمد، العوائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٧، ١٩٩٧م، ص٦١.

[٤]- الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب، أدب الدنيا والدين، اعتنى به: محمد أبو الخير، محمد شرقاوي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٨.

كَبِيرًا" (النساء:٣٤)، وكذلك الفهم المغلوط لقوامة الرجل على المرأة وأن له عليها درجة، وموضوع

تعدد الزوجات، وبر الوالدين، وغير ذلك. ومن أراد أن يستزيد ويتعرف على الفهم المغلوط للآيات التي طرحت تلك الموضوعات فليرجع لتفسير المنار للأستاذ محمد رشيد رضا والذي تناول تلك المسائل فأجاد وأفاد فيها.

ويوضح الغزالي في الإحياء أثر الهوى في الحجب عن القرآن الكريم وذلك في عرض حديثه عن موانع فهم القرآن الكريم، فيقول: (أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلىً في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه وهو كالخبث على المرآة فمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة،والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة)[١].

وحتى يتسنى للمسلم أن يفهم القرآن ويتدبره ويفيد من مواعظه وإرشاداته عليه أن يغالب هواه ويستجيب لتعاليم القرآن وأوامره حتى لو خالفت هواه.

ثانياً: الدخول إلى القرآن بمقررات وأفكار مسبقة :-

إن من أخطر ما يشوش فهم القرآن الكريم وفق مراد الله ويصرف عن مقاصده وأهدافه أن يدخل قارئه ساحته بأفكار ومقررات مسبقة ويسقطها على فهمه للقرآن الكريم فيفهم القرآن وفق رأيه ومعتقده وفكره، فلا يقبل رأياً يناقض رأيه حتى لو وافق صريح دلالة الآيات القرآنية وقد يكون هذا الرأي أو تلك الفكرة ناشئاً عن موروثات تعلق بها الشخص أو هوى مال إليه أو مذهب يريد أن ينتصر له، يقول د.صلاح الخالدي: (قد يجمع القارئ مقرراته وثقافاته من مصادر عديدة، وقد تكون هذه المصادر متعارضة أو متداخلة أو متناقضة فينعكس هذا على مقرراته التي أخذها وثقافته التي حصلها فيكون مشوشاً في فكره، متناقضاً في تصوراته، متعارضاً في نظراته)[٢]. وتكمن خطورة هذا الموضوع أن الفرد يوقن أنه على حق ، وصاحب رسالة وهو في الحقيقة غير ذلك، فالرسالة بالرواية لا بالرأي، وتقوم على الدليل لا على المزاجية والهوى.

[١]- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص٢٥٨.

[٢]- الخالدي، صلاح، مفاتيح التعامل مع القرآن، ص٩٧.

ومن أهم مظاهر صرف الدخول إلى القرآن بمقررات وأفكار مسبقة:-

١- مادية التصور:

المقصود بمادية التصور: عدم قدرة العقل إلا على استيعاب الماديات المحسوسة المجسدة أمام الناظر، فلا يعي الحقائق المجردة ولا يقبل الغيبيات،وهذه المادية في التصور من ميزات الأطفال، وهي أيضاً ميزة للعقول التي لم ترتق بالإيمان ولم تصل إلى مستوى عالٍ في طريقة الفهم، لذلك شهد التاريخ منذ بزوغ فجر الإنسانية أقواماً لجأوا إلى اتخاذ معبوداتهم من الماديات المحسوسة، سواء كانت تلك الماديات مما يحيط بهم من الأجرام كالشمس والقمر والكواكب والنار، أو كانت تماثيل صنعوها وعبدوها كالأوثان والأصنام التي طالما عبدت من دون الله، وإن بني إسرائيل حينما ذهب موسى -عليه السلام- لميقات ربه عبدوا من دون الله عجلاً جسداً له خوار صنعوه من حليهم وما أوتوا من زينة قال تعالى: "وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ" (البقرة:٥١)،وقال: "قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ" (طه:٨٧-٨٨)،كما أنهم قرنوا إيمانهم بشرط رؤيتهم لله جهرة ، قال تعالى: "وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ" (البقرة:٥٥)، يقول صاحب الظلال في بيان رفض إسرائيل الإيمان بالله حتى يروه جهرة، وتحليل ذلك: (ولكن إسرائيل هي إسرائيل، هي هي كثافة حس، ومادية فكر، واحتجاباً عن مسارب الغيب، فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم الذين اختارهم موسى لميقات ربه ... ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عياناً ... إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم للمعرفة)[1].

ومن مظاهر كون مادية التصور صارفاً عن فهم القرآن الكريم:

---

[1]- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج١، ص٧٢.

أ- عدم القدرة على استيعاب كثير من الغيبيات التي طرحها القرآن الكريم كاليوم الآخر والجن والملائكة وحياة البرزخ، وغير ذلك، فكيف لمن استحكمت المادية على تصوره أن يتخيل أنه ملزم بالإيمان بكثير من الغيبيات التي حجبت عن ناظريه؟

ب- الميل إلى التجسيد والتشبيه وذلك فيما يختص بالآيات التي تتحدث عن صفات الله وإثبات اليد والعين والاستواء وغير ذلك له، مثل قوله تعالى: "بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ" (المائدة:٦٤)، وقوله: "يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ" (الفتح:١٠)، وقوله: "وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ" (طه:٣٩)،وقوله: "ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ" (طه:٥)، ويلحظ أن هذه الأشياء التي أثبتها الله لنفسه، والتي لا يمكن للعقل أن يثبت كيفيتها، انحرفت بكثير من الناس عن فهم تلك الآيات فجعلتهم يشبهون ويعطلون ويؤولون، وأوقعتهم في متاهات صرفتهم عن روح القرآن الكريم.

ومن عظم البيان القرآني أنه تعامل مع العقل البشري بشتى تصوراته، فقرب له كثيراً من الصور كما هو الحال في الآيات التي تتحدث عن الجنة والنار والصراط والميزان وغير ذلك من متضمنات اليوم الآخر، يقول صاحب المنار في تأويل قوله تعالى: "وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ" (المائدة:٤٨) : (أي ولكن لم يشأ ذلك بل جعلكم نوعاً ممتازاً يرتقي في أطوار الحياة بالتدريج، وعلى سنة الارتقاء، فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من أطوار حياته في جميع أقوامه وجماعاته، وآتاكم من الشرائع والمناهج في الفهم والهداية في طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه ما يصلح له، وفي طور تمييزه وغلبة الوجدانات النفسية عليه ما يصلح له)[١] إن هذا القول وإن ورد في سياق تعليق صاحب المنار على مناسبة الشرائع السابقة مع طبيعة تفكير أهلها -إذ الآيات تتحدث عن أهل الكتاب- إلا أن ذلك لا يمنع أن تكون الشريعة المحمدية تستوعب تلك الأطوار المتباينة في تفكيرها، وترتقي بها، فترى القرآن الكريم يضرب الأمثال ويصور الأشياء الغيبية بما يقرب صورتها للعيان، ويعين على فهمها في الأذهان، وهذا من روعة أسلوب القرآن الكريم وإعجازه وسمو بيانه.

٢-الغلو في الدين:

من التصورات المسبقة التي يمكن أن تصرف من يلج ساحة القرآن عن تدبره وفهمه على الوجه الذي يتناسب مع القرآن الكريم: الغلو في الدين ، ومعنى الغلو: (تجاوز الحد في الشيء

---

[١]- رضا،محمد رشيد، المنار، ج٦، ص٣٤٧.

إفراطاً)[1]، وقد أفسد الغلو في الدين على أهل الكتاب دينهم، فشددوا على أنفسهم، واتبعوا أهواءهم باتخاذ أنبيائهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: "يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ" (النساء:١٧١). يقول صاحب المنار في حديثه عن غلو أهل الكتاب في دينهم: (الغلو الإفراط وتجاوز الحد في الأمر، فإذا كان في الدين فهو تجاوز حد الوحي المنزل إلى ما تهوى الأنفس، كجعل الأنبياء أرباباً ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، واتخاذهم لأجل ذلك آلهة يعبدون فيدعون من دون الله أو مع الله)[2] وقد وصل الغلو في الدين بأهل الكتاب إلى الضلال والإضلال والذي تمثل في البعد عن الحق الذي جاءهم، وبالتالي رفض شريعة السماء الخالدة الممثلة برسالة المصطفى ﷺ وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله: "قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ" (المائدة:٧٧)، ومعنى سواء السبيل: القرآن الكريم والذي هو منهج الحق المبين[3]، وهذا ما أوقع النصارى في التثليث، وفي بيان غلوهم في دينهم يقول الله تعالى: "وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَـٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا" (الحديد:٢٧)، ويمثل الغلو في الدين صارفاً عن فهم القرآن الكريم من حيث كون المغالي يدخل ساحة القرآن وفي تصوره أن الدين مجموعة من الطقوس تقيد صاحبه وتفقده القدرة على الاستمتاع بحياته وتحقيق مراده، فهو كالنصارى الذين أدى بهم الغلو في الدين والرهبنة إلى خلل في حياتهم أوصلهم في النهاية إلى فصل الدين عن الدنيا، ونرى كثيراً من الدعاة يوصلون الدين إلى العامة على أنه مجموعة من المحرمات والمنهيات أو الطقوس الشاقة التي تجعل من يلتزم بالدين يشعر أنه يرتقي جبلاً وعر المسالك، ويكبل نفسه بقيود لا فكاك له منها، وهذا بعيد عن روح الدين ويسره وسماحته، فقد جاء بما يوافق طبائع البشر ويرتقي في أمور دنياهم ويقيم حضاراتهم، ولا يخفى أن الأصل في الأشياء الإباحة، وأن دائرة المحرمات ضيقة

---

[1]- الأصفهاني، المفردات، ص٣٦٥.

[2]- رضا، محمد رشيد، المنار، ج٦، ص٤٠٣.

[3]- ينظر: الطبري، جامع البيان، ج٦، ص٣٧٥.

محدودة، وهذا ما يفسر حصرها في إشارات في بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ قال تعالى: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ" (الحج:٧٨).

ومن صور الغلو في الدين الاهتمام بالوسائل على حساب الغايات والأهداف، ومثاله أن كثيراً من الناس يهتمون بالقراءة والحفظ وتعلم ما تسنّى لهم من القراءات والروايات والطرق والتدقيق على المخارج والصفات على حساب فهم المعاني، وتمثل الآيات في الواقع يقول الغزالي في معرض سوقه لموانع الفهم: (أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكّل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله –عز وجل– فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني؟)[١]، وليس المقصود من ذلك إهمال تعلم الطريقة الصحيحة لقراءة القرآن الكريم، بل المقصود الجمع بين الحفظ والفهم واتخاذ الوسائل طرقاً لتحقيق الأهداف والغايات المرجوة، ولا شك أن علم التجويد والقراءات ذو أثر فاعل لا يمكن إنكاره في توضيح المعاني وتوثيق العلاقة بين الإنسان وكتاب ربه علماً وعملاً.

٣– حمل أفكار ومقررات وإسقاطها على القرآن الكريم وتأويل آياته وفقها:

لا يمكن افتراض خلو العقل المقبل على القرآن من الأفكار فهذا ليس خللاً أو عيباً ولكن المنكر أن تكون تلك الأفكار محكمة في فهم القرآن الكريم، ومصدراً له. ومن هنا يجب التحذير من أن يسقط قارئ القرآن ما يحمله من أفكار إذ إن ذلك يشكل بحق صارفاً وحائلاً دون فهم القرآن الكريم، فإن ذلك الشخص يستجدي من القرآن ما يوافق فكرته فيتكلف في الاستدلال عليها بما يؤدي به إلى ليّ عنق النص وتحميله ما لا يحتمل من المعاني؛ فعالم التاريخ قد يتكلف في الاستدلال بآيات على أحداث تاريخية ليثبت أن القرآن كتاب تاريخ، والمتعصب لمذهب عقدي أو فقهي معين يوجه دلالات الآيات بما يخدم فكرته ويدحض فكرة غيره، ولا يعني هذا فقد الخلاف في الرأي، فلولا الاختلاف ما توصلنا إلى مرونة الدين وشموله واتساعه، ولكن المذموم التعصب للرأي والفكر الذي يجعل من الشخص عدواً لغيره ممن يخالفون فكره ورأيه[٢]. وتكمن خطورة هذا الموضوع في محاولة بعض المتملقين تنصيب آيات لأفكار تعلي من شأن من يتملقون لهم من أصحاب السيادة والشأن والرياسة ليستجدوا رضاهم ويتزلفوا لهم، وقد ساق د.صلاح الخالدي جملة من الأمثلة الواقعية على قيام بعض الأفراد بتوظيف آي القرآن الكريم لخدمة أفكارهم ومصالحهم: (منها ذلك الذي أراد أن يستدل من القرآن على

---

[١] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج١ ، ص٢٥٧.

[٢] ينظر: الدغامين، زياد، التفسير الموضوعي، ص٨٨.

أن الأديان السماوية كلها وحدة واحدة وأن أتباعها كلهم في الجنة وأن اليهود والنصارى – بعد نزول القرآن– هم مقبولون عند الله ويتوكأ في كل هذا على قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (المائدة:٦٩)، .... وإذا والوا النصارى وأحبوهم وقربوهم برر لهم ذلك بآية: " وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" (المائدة:٨٢)، .... وإذا طلبوا فتوى في الفائدة الحرام والربا المقيت وجدوها فـي آيـة: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً" (آل عمران:١٣٠) .... وذلك الذي يركن إلى الحكام الظـالمين المحاربين لله ورسوله ولدينه، فيبحث لهم عن آية توجب طاعتهم وتنفيذ أحكامهم فيعتمد علـى قولـه تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ" (النسـاء:٥٩))[١] فالأصل إذاً أن يقرأ الفرد القرآن ويستقرئ آياته مستجمعاً أدوات التدبر والتلقي ليس له شغل ولا هم إلا فهم القـرآن كما عبر عن نفسه ونطقت بالحق آياته فيستمد منه العبر والعظات ويتربى على هداه ويصقل تفكيـره وفق منهجه فهو المحكم، وهو القائد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، قـال تعـالى: "وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام:١٥٣).

ثالثاً: الجـــدل :-

يعد الجدل من أهم الصوارف المعرفية والمنهجية التي تحجب عن فهـم القـرآن الكـريم، إذ إن المجادل يقبل على القرآن الكريم وفي نيته الجدل في آياته ودحض الحق الذي جاء به بالباطل الزائف

---

[١]- الخالدي، صلاح، مفاتيح التعامل مع القرآن، ص٩٩.

الذي يحمله، والجدل في اللغة من الفتل: يقال: جدل فلان الحبل إذا فتله؛ بمعنى أحكم ربطـــه، وهــو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة[١].

يقول (أبو حامد) الغزالي: (حد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم)[٢].

والجدل الذي يصرف عن فهم القرآن الكريم هو الجدل المذموم، أما الجدل الذي ينطلق صـــاحبه فيه عن علم ويهدف لإحقاق الحق ودحض الباطل فهذا هو الجدل المحمود المطلـــوب، ويقـــوم علـــى معرفة القواعد والأدلة وطرائق الاستدلال بها لإثبات رأي أو دحضه[٣].

ذكر القرآن الكريم الجدل بنوعيه: المحمود وذلك في قوله تعـــالى:"وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ" (النحـل:١٢٥)،كما ذكر الجدل المذموم وأشار إلى مقوماته والبواعث عليه، قال تعـــالى:" وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ" (الحج:٣)، وقال: " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ" (الحـــج:٨)، وقـــال:" ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَـٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" (غـــافر:٣٥)، هذه الآيات الثلاث تبين أن الجدل المذموم هو الذي ينطلق من غير علم ولا بينة ولا منطق ولا قـــوة حجة، لا همّ لصاحبه إلا الانتصار لرأيه وإبطال حجة خصمه[٤]، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل" ثم تلا قوله تعالى: "بل هم قوم خصمون"(الزخرف: ٥٨)[٥]، ولقـــد عدّ القرآن الكريم الذي يجادل في آيات الله كافراً، قال تعالى: " مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ "(غافر:٤)، فهو يجادل بالباطل ليـــدحض بـــه الحـــق، قـــال تعـــالى: " وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَـٰطِلِ

---

[١]- ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٩٧.

[٢]-الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٠٣.

[٣]- ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر، مصر ٢٠٠٤م، ج ٣، ص ٩٦٥.

[٤]- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٩٢، ص٢٠٧، ج١١، ص١٤٢ .

[٥]- أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، رقم ٤٨.

لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ" (الكهف:٥٦)، وإن المجادل في آيات الله بغير سلطان وقوة برهان يعد مستكبراً عنها، قال تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ" (غافر:٥٦)، ويوضح القرآن أثر الجدل في الانصراف عنه بقوله تعالى: " أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ " (غافر:٦٩)، ومعنى يصرفون: يبعدون عن الهدى والحق الماثل في آيات الله (وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك، فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدلهم في آيات الله، فجملة "ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله" مستأنفة للتعجب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البينة)[1] .

ومن صور الجدل في آيات الله والتي من شأنها أن تصرف عن فهم القرآن الكريم:

اتباع المتشابه، وإثارة المسائل الخلافية، ومعنى المتشابه: الشيء الذي يقارب غيره في هيأته، يقول ابن قتيبة: (وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر والمعنيان مختلفان، قال الله –عز وجل– في وصف ثمار الجنة: " وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ " (البقرة: ٢٥)، أي متفق المناظر، مختلف الطعوم. وقال: "تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ " (البقرة: ١١٨)، أي يشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة. ومنه يقال: اشتبه عليّ الأمر، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما)[2].

والمتشابه في القرآن الكريم: هي الآيات التي تحوي ألفاظاً ذات دلالات متعددة، وقد يطلق على الآيات التي توهم التعارض في ظاهرها مع أنها في الحقيقة غير ذلك، ونظير ذلك قوله تعالى: "وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ" (الصافات:٢٤)، وقوله: " فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ " (الرحمن:٣٩)، وقد دلّ القرآن الكريم على أنه محكم على وجه العموم، قال تعالى: " كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ

---

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١، ص٢٠٠.

[2]- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١، ص٦٨.

ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (هود:١)، بمعنى أنه غاية في الإتقان والإحكام، كما دل على أنه متشابه بوجه عام، قال تعالى: " ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا " (الزمر:٢٣) ، بمعنى أنه متشابه في جودة سبكه وكونه في أعلى مستويات البلاغة، فلا تفاوت بين الآيات في بلاغتها وجودة سبكها، ورصف مبانيها، واتساق معانيها، أما عن الآية التي فرقت بين المحكم والمتشابه وهي قوله تعالى: " هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ" (آل عمران:٧)، فالمعنى أن هناك آيات واضحة في دلالتها، ظاهرة في الوفاء بمعناها لا تلبس بغيرها وهي أم الكتاب: أي الأصل والمرجع الذي ترد إليه الآيات المتشابهة؛ وهي تلك التي تختلف دلالاتها وتتنوع في معانيها -كما سبق الذكر-[1].

١- ومما يدل على أن اتباع المتشابه قد يكون من صور الجدل الصارف عن فهم القرآن الكريم: أن المجادل يقتحم ساحة القرآن وفي نيته التسلح بتلك الآيات المتشابهة ليثبت مهارته في الجدل، وقوة منطقه في المحاجة، لا ليتعلم ويزداد بالآيات إيماناً، فتذرعه بالمتشابه ومخاصمته به يصرفه عن فهم المحكمات التي هي أم الكتاب إذ ليس له همّ إلا التشكيك في القرآن وإثارة المساءلة حوله، يقول الطبري في عُرض تأويله لقوله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ" (آل عمران:٧): (فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرفه في وجوه التأويلات باحتماله المعاني المختلفة إرادة اللبس في نفسه وعلى غيره احتجاجاً به على باطله الذي مال إليه قلبه دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من آي كتابه)[2]. ويلاحظ أن كثيراً من الناس في هذه الأيام يتشبثون بالمسائل الخلافية في أحكام القرآن وتفسيره، ويفنون جُلّ أوقاتهم في شأنها مع أنها قليلة إذا ما قيست بالمحكمات الواردة في القرآن والتي هي أمه وأصله.

والأخطر من ذلك قيام بعضهم بالجدل في مسائل الغيب كالجنّ والملائكة وحياة البرزخ وصفات الله وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه ولم يبرز منه إلا ما يربي النفوس ويرقى بالمعتقد.

---

[1]- ينظر: المجالي، محمد خازر، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط٣ ، ٢٠٠٦م، ص١٧٠.

[2]- الطبري، جامع البيان، ج٣، ص٢٠٧.

ومن رشاقة اللفظ القرآني أن الله حينما ذكر أنه نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ذكر صنفين من الناس: قوم قاسية قلوبهم من ذكر الله فهم في ضلال مبين عن إدراك كنه تلك الآيات وإعجازها، ممـــا أخفتَ النور في صدورهم وأورث القسوة قلوبهم، وقوم ارتقوا بتلك الآيات وتذوقوا إعجازها وبلاغتها وسموا بسمو هداياتها، فاقشعرت جلودهم ولانت قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، فكانوا من أهل هـــداه وتقواه، قال تعـــالى: "أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ" (الزمر:٢٢-٢٣)[١].

وقبل الختام تجدر الإشارة إلى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن وقواعـــد النظر فيه وحدود تدبر آياته، فلا يقتحمون باب الغيب بما يصرفون به ألفاظ الآيات عـــن ظاهرهـــا، وينطلقون في تأويلهم لآي القرآن الكريم الواقعة تحت إدراك العقل من قولـــه تعـــالى: "وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا" (طه: ١١٤) ، وقوله: "لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا" (المدثر:٣١)

رابعاً:حجب الحواس:-

إن ما سبق ذكره من الصوارف يلقي بظلاله على القلوب فيختم عليها ويحجبها عن فهم القرآن الكريم، وعلى الآذان فيصمها عن سماع الحق، وعلى قنوات الإبصار فيصدها عن النظر في آيات الله الكونية وتدبر آياته المتلوة؛ لذلك فإن القرآن الكريم ذكر حال قلوب أولئك وحال سمعهم وأبصارهم مع آيات الحق المبين، وبادئ بدء لابد من التنويه إلى أن آلات الاستقبال تكمن فـــي الســـمع والأبصـــار والأفئدة، لذلك فقد وصف القرآن الكريم تلك الآلات الثلاث بما يلي:

١- **وصفه للقلوب** :يعد القلب المركز الرئيس للوعي والإدراك، وتمييز الغـــث مـــن الســـمين، والحق من الباطل، وقد ذكر ابن القيم حال القلوب مع القرآن فقال : (هذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها :قلب يفتتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد إيماناً وتصديقاً، وقلب يتيقنه فتقوم عليه الحجة،

---

[١]- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١، ص٣٨٠.

وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به)[١]، وإن الناظر في القرآن الكريم يلاحظ أنـــه ذكـــر عدة ألفاظ تعبر عن حال القلوب المحجوبة عن الحق فتارة ينسب إليها الختم، قـــال تعـــالى: "خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ" (البقرة:٧)، وقال: "قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَـٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم" (الأنعـام:٤٦)، وتارة يشير إلى الطبع عليها، قال تعـــالى: "كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَـٰفِرِين" (الأعـراف:١٠١)، وقال:"كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ" (يـونس:٧٤)، وتارة يذكر أنها في أكنة، قـــال تعـــالى: "وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ" (فصلت:٥)، وتارة يلفت النظر إلى أنها مغلقة بأقفال، قـــال تعـــالى : "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ" (محمد:٢٤)، وتارة يذكر أن عليها الران، قال تعـــالى: "كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ" (المطففين:١٤).

والجامع بين التعابير السالفة الذكر أن تلك القلوب معرضة عن الحق منكرة له، والفرق بـــين الختم والطبع أن الختم غلق للقلوب، يقول أبو السعود: (والختم: الاستيثاق منه بضرب الخـــاتم عليـــه صيانة له أو لما فيه،كما في البيت الفارغ والكيس المملوء، والأول هو الأنسب في هذا المقام إذ لـــيس المراد به صيانة ما في قلوبهم بل إحداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغي وانهماكهم فـــي التقليـــد وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ولا ينفذ فيها الحق أصلاً)[٢].

أما الطبع ففيه دلالة على إحكام إغلاق القلوب[٣]، ومما يدل على ذلك أن القرآن حينما ذكر الختم لم يقرنه بأصناف أولئك المختوم على قلوبهم، كما لم يذكر موجبات الختم وإن ذكرها فلم يفصل فيها،

---

[١]–ابن قيم الجوزية، شمس الدين، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: علي الحلبي، تخريج : محمد الألباني، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ ، ج ١، ص ٥١.

[٢]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج١، ص٥٢ .

[٣]- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٢٥٥ .

وذلك نظير قوله تعـــالى: "أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ" (الجاثية:٢٣).

وغالباً ما ذكر الطبع على القلوب مقروناً بأصناف المطبوع على قلوبهم ونتيجة لموجبات ذلك الطبع، قال تعالى بعد أن ذكر قصص الأمم السابقة ومعاندة أهل الباطل لأنبياء الله وأتباع رسالة الحق: "تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ" (الأعراف:١٠١-١٠٢)، وبعد أن تحدث الله عن المنافقين وتأرجحهم بين الكفر والإيمان، قال تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (المنافقون:٣).

أما الأكنة والأقفال فهي الوسائل التي تحجب بها القلوب عن الحق، فالأكنة هي الأغطية والأستار، وقد عبر عنها القرآن أيضاً بالأغلفة، قال تعالى: "وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ" (البقرة:٨٨)، والأقفال هي المغاليق التي سدت القلوب فلم تدع مجالاً لإزاحة الأغطية عنها أو إزالة الطبع الماثل عليها[١].

وقد نسب إلى القلوب العمى فإذا عميت عين القلب حجبت عن العقل الحق وفهمه، قال تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ" (الحج:٤٦)، ومن بديع التعبير القرآني أنه شبه ورود براهين الحق الساطعة الكامنة في القرآن الكريم الذي ينطق بلسان الحق الأبلج وعدم إدراك عين القلوب لها ونفاذ بصيرته في تدبرها بالعمى الذي يصيب العين فيحجبها عن رؤية ما يتوارد عليها من صور مهما بلغت درجة وضوحها وانكشاف حقيقتها، قال تعالى: "وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ

---

[١]- ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٤٠١، ٤٤٤.

ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ" (فصلت: ٤٤).

٢- **السمع** : تناول القرآن الكريم السمع على النحو التالي: قال تعالى: "خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ" (البقرة: ٧)، وقال : "وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ" (الجاثية:٢٣).

يلاحظ أن الختم على السمع اقترن بالختم على القلب يقول صاحب الكشاف: (فإن قلت اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية فعلى أيهما يعوّل؟ قلت: عل دخولها في حكم الختم لقوله تعالى: "وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً" (الجاثية:٢٣)، ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم)[١].

أشار القرآن إلى آلة السمع وما يعتريها من الصمم، قال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا" (الكهف:٥٧)، وقال: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ" (لقمان:٧)، ومعنى الوقر: الثقل في الأذن والذي من شأنه أن يعيق السمع، وقد وصف الله الكافرين والمعرضين عن الحق بالصم، قال تعالى: " وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ " (الأنعام:٣٩)، وقال: "وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ" (الأعراف:١٧٩).

والمقصود بصمم الآذان: فقدانها لحاسة السمع، وبه يوصف من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله[٢]، والسمع وسيلة مهمة في تلقي الذكر المتلو ، وقد ذكر الله حال أولئك الذين ينصرفون عن القرآن الكريم فلا تجاوز آياته آذانهم ولا ينفذ إلى قلوبهم، قال تعالى: "وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ

[١]- الزمخشري، الكشاف، ص٤٣ .

[٢]- الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٥٤٤،٢٩٠.

عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ " (محمد:١٦)، فليس المقصود بالسمع المذكور في آيات الله مجرد تشغيل آلته،إنما المقصود الإصغاء و التدبر الذي يورث فهم آيات الله ووعيه لها.

٣- **الأبصار:** وصف القرآن الكريم الأبصار بأن عليها غشاوة، قال تعالى: " وعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ" (البقرة:٧)، وقال: " فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ " (يس:٩)، وقال: " وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً " (الجاثية:٢٣)، ومعنى الغشاوة: الغطاء الذي من شأنه الستر[١]، كما أنه عبر عمن لا يبصرون الحق بأنهم عمي، قال تعالى: " صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ"(البقرة: ١٨)، وقال: " أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ " (الزخرف:٤٠)، وقال: "لَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا" (الأعراف:١٧٩).

إن الفرق في التعبير بين الغشاوة التي غطيت بها الأبصار والأكنة التي سترت بها القلوب: أن آلة البصر ظاهرة بينة في الجسد، وأن الإبصار للشيء يكون بمجرد النظر، لذلك يلحظ صعوبة الرؤية أو انعدامها بمجرد غشيان الغبار للعين، أما القلوب المدركة العاقلة فهي مستكنة في الجسد فلا يصل إليها الذكر إلا بعد أن تستقبله آلات التلقي وذلك ناسب إحاطتها بالأكنة، فعمى البصائر أشد من عمى الأبصار، وإن كان التعبير القرآني بالأبصار فيه دلالة على تلك التي تدركها البصيرة النافذة الثاقبة، فليس المقصود أنهم لا يرون الأشياء بأم أعينهم، إنما المقصود أنهم لا يتأثرون ولا يسمحون لها أن تنفذ إلى بصائرهم فحجب البصائر يحتاج إلى جهد أشدّ من حجب الأبصار، لذلك فالأكنة أوقع في الدلالة على الستر والتغطية وإن دلّ كلاهما على الاشتمال والحجب، فإن قيل لماذا نسب الختم للقلوب والأسماع، والغشاوة للأبصار؟ كان الجواب:(إن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور وهكذا موضع حس السمع وموضع الإدراك من العقل والإسماع في ظاهر الخلقة، وأما البصر فالحاسة منه ظاهرة منكشفة)[٢].

---

[١]- ينظر: المصدر السابق، ص٣٦٣.

[٢]- رضا, محمد رشيد، المنار، ج ١، ص ١٢٥.

ومما يدل على أن حجب الحواس وإغلاق القلوب يصرف عن فهم القرآن الكريم أنه غالباً ما ختم الآيات التي ذكرت ذلك بنفي الإيمان، والتذكر، والفهم، والتدبر، قال تعالى: "وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ " (الأعراف:١٠٠)، وقال بعد أن ذكر تعطيلهم لحواسهم: " أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ " (الأعراف:١٧٩)، وقال: " وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُون" (الجاثية:٢٣)، وقد ذكر الله ختمه على قلوب الكافرين وإغشاء أبصارهم غشاوة عقب ذكر عدم إيمانهم واعتبارهم بالإنذار، قال تعالى: " إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (البقرة:٦-٧)، وقال: " قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" (الأنعام:٤٦)، وقال: "فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً" (النساء:١٥٥)، وقال: "أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ" (النحل:١٠٨)، كل هذه الآيات وغيرها تشير إلى انصرافهم عن القرآن الكريم بحجب حواسهم وتعطيل مداركهم، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا نسب الله الختم والطبع وإغشاء الأبصار إلى نفسه مع أنه حكم عدل قد حرّم الظلم على نفسه؟ والجواب: أن الحكم الرباني هذا كان بما كسبت أيديهم وجنت نفوسهم دون ارتجاع أو إنابة مما أدى إلى إصدار تلك القرارات في شأنهم من قبل الله تعالى فهو المتفضل عليهم إذ أمهلهم وبسط يده إليهم و

استفزّ فطرتهم ليتوبوا ويفروا إليه فهو المقدر للنتائج إلا أن تقديره لها صفة كشفٍ وعلم لا صفة تأثير وتوجيه، والله تعالى أعلم.[١]

لا شك أن ما سبق ذكره من الصوارف النابعة من ذات الكيان الإنساني بمختلف أشكالها تـؤدي إلى هجر القرآن الكريم؛ لذلك فقد وجدت من المناسب في خاتمة هذا الفصل أن أتحدث عن هجر الفرد للقرآن بوصفه أثراً تحصل لديه من جراء انصرافه عن القرآن الكريم.

ومعنى الهجر: المفارقة وترك الوصل[٢]؛ لذلك فإن هجر القرآن الكريم يكون بأن يقطع الفرد صلته به, وقد ذكر الله شكاية رسول الله ﷺ من هجر قومه لكتابهم، قال تعـالى: "وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا " (الفرقان:٣٠)، كما ذكر تمادي قومه في هجر القرآن والاستكبار عنـه بقولـه: " قَدۡ كَانَتۡ ءَايَـٰتِى تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهۡجُرُونَ " (المؤمنون:٦٦-٦٧)، هاتان الآيتان وردتا في سياق الحديث عن الكافرين، وكيلهم التهم الباطلـة لمحمد ﷺ، ومناصبتهم العداء للإسلام وأهله؛ لذلك فإن هجرهم للقرآن يكون بترك سماعه والإعراض عنه[٣]، وقد أشار بعض المفسرين إلى أن هجرهم للقرآن يحتمل معنى التحريض علـى هجـره، وقـد استدلوا لذلك بقراءة نافع (تُهجرون) بضم التاء وإسكان الهاء وكسر الجيم، وهي مضـارع (أهجـر)، وهي من الهُجْر:أي اللغو والسب والكلام السيء[٤].ولا يعني ورود الآيتين في سياق الحديث عن نكوص الكافرين وهجرهم للقرآن الكريم تبرئة أمة الإسلام من هجر كتاب ربها وانصرافهم عنه، ومن صور هجر القرآن الكريم والتي تنطبق على بعض أبناء الإسلام:

١- **هجر قراءته:** لاشك أن قراءة القرآن مفتاح مهمة للتعامل معه والانتفاع بهديه، وهي مقدمـة مهمة لتدبره وفهمه، فكيف يكون الفهم والتدبر من غير قراءة أو سماع لما يتدبر أو يفهم؟ لذلك كثرت الآيات التي تدعو إلى قراءة القرآن، قال تعالى:" فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ " (المزمل:٢٠)، وإن أول آية

---

[١]- ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٥٧.

[٢]- ينظر: الأصفهاني، المفردات، ص ٥٤١، وابن منظور: لسان العرب، باب الراء، فصل الهاء.

[٣]- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨، ص٢٨٦، ص٤٥٥.

[٤]- ينظر: البناء، شهاب الدين أحمد، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص٤٠٤-٤٠٥.

نزلت على الإطلاق تأمر بالقراءة قال تعالى:" ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ " (العلق:١)، ويلاحظ أن كثيراً من المسلمين يغفلون قراءة القرآن الكريم فلا يقرأونه إلا في المواسم كرمضان وبيوت العزاء وغيرها، ومنهم من تمر سنون حياته دون أن يختم المصحف ولو مرة واحدة فتراه يتعثر عند قراءته للقرآن الكريم فلا يتقنها.

لقد دعا العلماء إلى أن يكون للمسلم ورد من القرآن الكريم يقرؤه وإن قل لكي يبقى على صلة بكتاب ربه ولو بالسماع، فإن السماع قد يؤدي الأغراض التي قد تؤديها القراءة؛ لذلك دعا القرآن الكريم إلى الاستماع إليه في قوله تعالى: " وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ " (الأعراف:٢٠٤).

٢- هجر تدبره وفهمه:

سبق الحديث عن أهمية تدبر القرآن وما يعين عليه انطلاقاً من أن التدبر هو وسيلة الفهم وباعث العلم والعمل، قال تعالى: " كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ "(ص:٩)،

وإن تدبر القرآن لا يتأتى إلا إذا انبثق عن قراءة متأنية واعية؛ لذلك نهى رسول الله ﷺ عن الاستعجال في قراءة القرآن الكريم على حساب تدبره وفهمه، فقد قال رسول الله ﷺ : "لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"[١] حتى يتحصل من القراءة التدبر والفهم، وقد وردت آثار عن كثير من الصحابة تنهى عن الهذرمة[٢]،ونثر الدقل في قراءة القرآن، لما في ذلك من المنع من الفهم والتدبر، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: (لا تهذوا القرآن هذّ الشعر[٣] ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة)[٤]، فعلى القارئ إذاً أن يقرأ القرآن بما يتناسب مع إمكانية التدبر والفهم، وذلك وفق ما يناسب وقته وجهده، يقول ابن قدامة: (وأولى الأمر ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة ولا يؤذيه في بدنه ولا يفوته معه الترتيل والفهم)[٥].

---

[١] أخرجه ابن ماجه: سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب ختم القرآن، رقم ١٣٤٧.

[٢]- الهذرمة: السرعة في القراءة. ابن منظور: لسان العرب، باب الميم، فصل الهاء.

[٣] الهذ: سرعة القراءة. المصدر السابق: باب الذال، فصل الهاء.

[٤]- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ، كتاب الصلوات، باب في قراءة القرآن، حديث ٨٧٣٣.

[٥]- ابن قدامة: مختصر منهاج القاصدين، ص٤٩.

٣- هجر العمل به وتطبيق أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه :

قد يقرأ الإنسان القرآن ويتدبره ويفهم معانيه إلا أنه يقصر في تطبيق أحكامه والعمل بمقتضاه فتراه يقرأ آيات النهي عن الربا ويفهمها جيداً إلا أنه يودع نقوده في البنوك الربوية ويأخذ عليها الفوائد، وتراه يقرأ الآيات التي تتحدث عن أصول النظام الأسري وحسن العشرة بين الزوجين ولا يعرف من ذلك بشيء، إذ هو يقصر في حقوق زوجه وهي تقصر في واجباتها تجاه زوجها وأسرتها. لذلك كثرت الآيات التي تحث على العمل وتبعث عليه، قال تعالى: "وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (التوبة:١٠٥)، وقال: "وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا" (الإسراء:١٩)، ويشترط أن ينبثق العمل عن تدبر وفهم للقرآن الكريم وعلم به حتى تكون العبادة عن علم لا على حرف قال تعالى: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ" (الحج:١١) قال عبد الله بن عمر:(لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل)[١].

٤-هجر الاحتكام إليه وتحكيمه:

أمر الله سبحانه وتعالى بأن يحتكم إلى كتابه ويتخذ منهجاً للحكم بين الناس قال تعالى: "وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ" (المائدة:٤٩)، وقد قيد الإيمان بالاحتكام إلى ما أنزل الله، قال تعالى في شأن المنافقين: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

[١]- البيهقي، أحمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، كتاب الحيض، باب البيان "أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤوهم إن من مضى من الأئمة كانوا يسلمون كباراً فيتفقون قبل أن يقرؤوا أو مع القراءة"، رقم ٥٠٧٣.

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا" (النســـاء:٦٥)،

وإن تحكيم رسول الله ﷺ فيما شجر بين الناس يعد تحكيماً لوحي الله -عز وجل- إذ لا بد أن يحكم المصطفى ﷺ بما أنزل الله.

إن هجر الأمة لتحكيم شرع الله تعالى والاحتكام للقوانين الوضعية أوردها المهالك وأورثها الضعف والخسران. ولسائل أن يسأل كيف ينطبق هذا النوع من الهجر للقرآن الكريم على الأفراد؟ وكيف يكون نابعاً من ذات الكيان الإنساني؟

والجواب إن رفض الفرد للحكم بما أنزل الله، ورضاه بتحكيم شريعة غير الله، واقتناعه بصلاحية القوانين الوضعية للحكم في يسير أموره وعظيمها يعد هجراً وتغييباً لمنهج الله المتمثل في كتابه، فقد أمر الله أن يحكم بالعدل ولو كان ذا قربى وهذا واقع تحت سيطرة الأفراد بلا شك، قال تعالى: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (الأنعام:١٥٢)

وقال: "إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (النحل:٩٠).

٥- هجر تعليمه وإبلاغه للناس:

قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ" (المائدة :٦٧) ولا شك أن الأمر بالتبليغ لرسول الله ﷺ أمر لأمته إذ الأصل أن يبادر حامل العلم والعامل به إلى إبلاغه غيره، فمن عرف حجة على من لم يعرف. فمنذ فجر الإسلام والقرآن يتناقل بالتعليم والتعلم، وإن في حلقات العلم الشرعي التي كانت تعج بها بيوت الله شاهداً قوياً على ذلك؛ لذلك فإن هجر تعليم القرآن الكريم وإيصال معانيه ومقاصده للناس يعد صارفاً قوياً عن فهم القرآن الكريم، وهجراً صريحاً له.

ومن الملحوظ أن هناك غياباً لحلقات تعليم القرآن الكريم في كثير من المجتمعات والأقطار خاصة تلك القرى والبوادي النائية والدول غير الإسلامية.

٦- هجر الاستشفاء به من علل القلوب وأدوائها:

قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ" (يونس:٥٧) وقال: "وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا" (الإسراء:٨٢). القرآن يذهب حزن القلوب وهمها، ويخلصها من القسوة والحقد والحسد، ويشفي العقول من زلل الفكر، وإن هجر القرآن يقسي القلوب ويزيد أسقامها، قال تعالى: "وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا" (طه:١٢٤-١٢٥)[١].

يضيف ابن القيم صورة أخرى من صور هجر القرآن الكريم وذلك بعد أن ذكر أنواع هجره: (كذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه تارةً يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقاً من عند الله، وتارةً يكون من جهة التكلم به أو كونه مخلوقاً من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به، وتارةً يكون من جهة كفايته وعدمها وإنه لا يكفي العباد بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء والسياسات، وتارةً يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة، فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته، كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا في صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء)[٢].

إن الحرج الواقع في الصدور من القرآن الكريم والذي ذكره ابن القيم وتناول عدة صور له من شأنه أن يؤدي إلى هجر القرآن الكريم، فإن من كان في صدره حرج من كتاب ربه آثر هواه على ما جاء به الله، وبالتالي فإنه ينصرف عن تناول كتاب الله في حياته وتحكيمه في شؤونه. وحتى لا يكون

---

[١]- ومن الجدير بالملاحظة أن الاستشفاء بالقرآن لا يقصد به إغفال الطب، بل إن الإسلام يدعو إلى التداوي وطرق باب التقدم العلمي في كافة المجالات والتي منها الطب في مختلف أشكاله.

[٢]- ابن القيم الجوزية: شمس الدين بن عبد الله محمد بن أبي بكر، الفوائد، تحقيق:أبو عرام أحمد المقدسي، دار البيت العتيق الإسلامية، الأردن، ٢٠٠٤م، ص٩٠.

الإنسان هاجراً لكتاب ربه عليه أن يلزم قراءته ولو صفحة في اليوم "فخير الأعمال أدومها وإن قل"[١] كما يجب أن تكون قراءته قراءة المتدبر الفاهم لتلك القراءة التي تبعث على العمل وتعين على التعليم (فالقرآن غني في معانيه ودلالاته والآيات تنشر على القارئ من معانيها ودلالاتها حسب حالتــه فــي التعامل معها ودرجة استعداده في التلقي عنها، وهذا القرآن لا يعطي القارئ إذا كان قاعداً عن العمل به، والحركة به والجهاد به، إنه لا يفتح كنوزه إلا لمن يتحرك به ولا ينشر ظلاله إلا على من يقبــل عليه؛ ولهذا لا بد للقارئ من سلوك الطريق المضمونة الصحيحة لفهمه والتعامــل معــه واســتخراج كنوزه ومعانيه وحقائقه)[٢].وإن التاريخ ليشهد أن أمة الإسلام لم تقم لها قائمة ولم تحقق التقدم العلمــي غير المسبوق في الميادين كافة إلا بعد أن استمسكت بكتاب الله– عز وجل –كتاب العلم والحضــارة والبناء، وإن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن ضربت بتعاليم الكنيسة عرض الحائط وتخلت عن دينها الذي وقف حاجزاً أمام التقدم العلمي والإبداع الفكري.

---

[١]– أخرجه مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل،

[٢]– الخالدي، صلاح، مفاتيح التعامل مع القرآن، ص١٤٧.

الفصل الثاني

صوارف نابعة من البيئة المحيطة وعلاجها

تم الحديث في الفصل السابق عن بعض ما يمكن أن يصرف الفرد عن قـراءة القـرآن الكـريم وتدبره وفهمه مما هو نابع من كيانه وذاته، وتبين أن تلك الصوارف قد تكـون متعلقـة بعقيدتـه، أو بنوازعه النفسية التي تمخض عنها خلقه وسلوكه، أو بجملة معارفه ومنهجيته في التعامل مع القـرآن الكريم. كما تبين أن تلك الصوارف إما أن تكون منبثقة عن طباع درج عليها الفرد، أو رد فعل ذاتي لتأثيرات تعرض لها فحدد من خلالها طريقته في التعامل مع القرآن الكريم.

وحتى تستكمل الصورة سيتم في هذا الفصل الإشارة إلى تلك العوامل التي من شأنها أن تؤثر من قريب أو من بعيد في فهم القرآن الكريم بمعناه المرجو والمطلوب فتصرف عنه. وبدهي أن تكون تلك التأثيرات ناشئة عن البيئة التي ترعرع فيها الإنسان علمية كانت، أم ثقافية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم غير ذلك. فبناء الفكر وتحديد آلية الفهم وبالتالي التطبيق والعمل لا يتوقف على الفرد وحده، بل لا بد أن يكون للبيئة أثر بارز وملحوظ في ذلك.

وقبل الحديث في تأثير البيئة في صرف الفرد عن فهم القرآن الكريم لا بد من توضـيح مفهـوم البيئة وعلاقة الفرد بها.

إن مفهوم البيئة في أصل اشتقاقه اللغوي مرده إلى (بوأ) بمعنى نزل وحل، يقول صاحب اللسان: (البيئة هي المنزل الموضوع، يقال: تبوأت منزلةً أي نزلتها، وبوأ له منزلاً وبوأه منزلاً هيأه ومكن له فيه. ومنه قوله تعالى: " وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ " (يوسف :٥٦) وقولـه :

"وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ " (الحشر: ٩) [١].

والبيئة بمعناها الاصطلاحي هي: ذلك المكان الذي يعيش فيه الشخص ويمارس فيه نشاطاته فـي مختلف المجالات، كما أنها تؤثر فيه، وتسهم في بناء شخصيته من النواحي جميعها، فهو يؤثر فيهـا ويتأثر بها، ومفهوم البيئة قد يطلق على الجو المحيط بالإنسان بما فيه من هواء وماء وأشـياء، وقـد يطلق على المجتمع الذي يحل فيه ذلك الإنسان؛ لذلك فلا بد أن يكون للمجتمع الذي درج فيه أثر فـي

[١]– ابن منظور: لسان العرب ، باب الهمزة، فصل الباء.

بناء توجهاته وتحديد علاقته مع القرآن الكريم بوصفه المنهج الذي يؤمر كل مسلم باتباعــه والعمــل بمقتضاه[1]. فالثقافة السائدة في المجتمع بما فيها تلك الثقافة الغالبة على مناهج التأليف في تفسير القرآن الكريم، وتوضيح معانيه وأحكامه، ومنهج التعليم والتلقي، والطبيعة الفكريــة، والبيئــة الاجتماعيــة، والبيئات المجاورة لبيئة الفرد، لا بد أن تلقي بظلالها على آلية تعامل الفرد مع كتاب ربه -عز وجل- فهماً وتدبراً وعملاً، سواء أكان التأثير سلبياً بمعنى أنه صارف عن فهم القــرآن الكــريم، أم إيجابيــاً بمعنى أنه مساعد في العيش مع النص القرآني وتثويره[2]واستنطاقه ليكون فاعلاً في واقع الفرد والأمة.

يقول طه جابر العلواني في بيانه لأثر البيئة في تأزيم الفكر: (فمشاكل الفكر تبدأ بــالظهور مــع الفكر نفسه كأي شيء إنساني؛ ذلك أن الفكر لا ينطلق من فراغ ولا يتجه إلى فراغ، بل هو تفاعل بين المنطلق والغاية والعقل والواقع واللغة والزمان والمكان والإنسان والحركة والتاريخ والحياة كلهــا)[3]. وسيتم توضيح ذلك في المباحث التالية.

---

[1]- ينظر: الحوسني، طلال بن سيف العبد الله، حماية البيئة الدولية من التلوث، مجلة الحسينية، بحث منشور على الانترنت، ٢٠٠٥م، موقع: www.Alhosanilaw.net.

٢- بمعنى البحث عن معانيه وعلمه .

[3]- العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، كتاب قضايا إسلامية معاصرة، الكتاب الثاني عشر ١٤١٩-١٩٩٨م.

المبحث الأول

أثر البيئة الثقافية والتعليمية في الصرف عن فهم القرآن الكريم

إن المتتبع لمسيرة القرآن الكريم مذ بدأ نزوله على هادي البشرية محمد ﷺ إلى يومنا هذا لا يجب أن يغيب عن ذهنه أنه تنوقل من جيل إلى جيل بطريقة تعتمد على محورين رئيسين:

الأول: تلقين القرآن الكريم بآيه وسوره مشافهةً، وذلك من خلال دور تحفيظ القرآن الكريم وتدريس كيفية قراءته.

والثاني : تعلم أحكام القرآن الكريم ومقاصده وما حوى من قصص وأخبار وعلوم ومعارف إما من خلال المحاضرات التي تلقى في المساجد والمحافل والمؤسسات التعليمية، أو من خلال تلك الكتب التي يعكف أصحابها منذ عصر تدوين العلوم على تفسير القرآن الكريم وتوضيح مفاهيمه، ومن هنا كان الجمع بين الحفظ والفهم للقرآن الكريم.

ولا يخفى أن حفظ القرآن وفهمه وتعليمه ذو أثر فاعل في الإقبال على النص القرآني واغتراف مكنوناته والحياة وفقه، وقد يكون أيضاً مانعاً من الوصول إلى النص القرآني صابغاً للعقل بصبغة تحجبه عن روح النص إما بليّ عنقه، أو بإخراجه عن سياقه، أو بحشو تفسيره بوابل من الموضوعات والإسرائيليات والفلسفات والكلاميات التي تجعل تفسير القرآن الكريم أمراً شاقاً على عامة الناس، محصوراً بفئة من المختصين.

من هنا كان للبيئة الثقافية والتعليمية أثر في الصرف عن فهم القرآن الكريم.

وقبل البدء بجوانب صرف البيئة الثقافية والتعليمية عن فهم القرآن لا بد من توضيح معنى الثقافة والتعليم وعلاقتهما، وكيف يشكلان مجتمعين بيئة صارفة عن فهم القرآن وتدبره.

الثقافة لغةً تعني: الفهم والفطنة والحذق لما يحويه العقل من العلوم والمعارف، فهي إذاً ردة فعل عقلية لتلك المعارف والعلوم والأفكار الداخلة إليه، يقال: رجل ثقف لقف أي حذق فطن[١].

والثقافة بوجه عام تعني: معرفة عملية مكتسبة، تنطوي على جانب معياري، وتتجلى في سلوك الإنسان الواعي في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود[٢]

ومفهوم البيئة الثقافية يعني: تلك العلوم والمعارف التي ترد العقل مما يحيط به في مجتمعه، حيث يقوم العقل بتنقيته وتمحيصه واستخلاص المعاني التي من شأنها أن توجهه إلى الخير فتقيم أمره على الحق، (فهو يركز في المعرفة على ما يحتاج الإنسان إليه طبقاً لظروف مجتمعه وبيئته، وليس على

---

[١]– ينظر:ابن منظور، لسان العرب، باب الفاء، فصل الثاء.

[٢] السيد، عزمي طه، الثقافة الإسلامية، عمان، جامعة القدس المفتوحة، ط ١، ١٩٩٧م، ص١٤.

مطلق أنواع المعارف والعلوم وكما يقول ابن منظور: (هو غلام لقن ثقف) أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وهذا يربط مفهوم الثقافة بالنمط المجتمعي الذي يعيش الإنسان في ظله)[١]، فالبيئة إذاً أمُّ الثقافة، والعقل البشري هو الذي يحدد آلية الاستفادة من الثقافات المطروحة حتى يستحق صاحبه لقب المثقف.

أما التعليم: فهو الطريقة التي يتم من خلالها إرسال المعارف والعلوم بواسطة أصحاب الاختصاص وأرباب المعرفة، والتعلم: هو كيفية استقبال تلك المعارف والعلوم من المعلم أو من مصادر العلم والمعرفة. وهكذا تتضح العلاقة بين الثقافة والتعليم فلا يمكن أن تصل الثقافة من مصدرها إلا بالتعليم والتلقي، فهما يشكلان وحدة لا يمكن فصل أجزائها.

ومن أهم جوانب صرف البيئة الثقافية والتعليمية عن فهم القرآن الكريم:

أولاً – عدم الإحاطة والعمق في فهم اللغة العربية ودلالات الألفاظ.

ثانياً – الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم.

ثالثاً– الدخيل في التفسير.

وسيتم تناول هذه المحاور الثلاث من حيث توضيح مفهومها، وكيفية صرفها عن فهم القرآن الكريم، إضافة إلى مقترحات لرأب الصدع الذي شكلته تلك الصوارف.

أولاً – عدم الإحاطة والعمق في فهم اللغة العربية ودلالات الألفاظ:

إن من نعمة الله على البشرية ورحمته بها أن حدد لها منهجاً واختصها برسالة تقوم عليها حياتها، فلا قيمة لحياة تفتقر إلى المنهج والغاية والهدف؛ لذلك أنزل الله القرآن هادياً وبشيراً ونذيراً ليجسد معالم تلك الرسالة ويحدد سبيل الخير لمن سلكه إلى قيام الساعة. وإن حكمته تعالى اقتضت أن يختار اللغة العربية لتكون وعاءً لتعليم تلك الرسالة السامية التي تنتظم فيها سور القرآن وآياته بإحكام عجيب ونسق أخاذ. ولا شك أن اللغة العربية امتازت بميزات تفضل بها سائر اللغات، تؤهلها لاحتواء القرآن الكريم؛ لذا فإن فهم القرآن مرتبط أشد الارتباط بفهم اللغة العربية بما حوت من ألفاظ تعبر عن أنفس المعاني وعن نظوم بديعة صيغت فيها تلك الألفاظ. وإن الضعف أو الانحراف في فهم اللغة العربية ودلالات ألفاظها يلحق خللاً واضحاً في فهم القرآن الكريم. ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن الكريم أشار في أكثر من آية إلى عروبة لسانه، تلك العروبة التي تفصح بأسمى بيان وأقوى برهان عن هدايات القرآن الكريم، ولا يخفى أن بيانه من جوانب إعجازه. فلقد وردت نسبة العروبة للقرآن الكريم

---

[١]– العلواني، طه جابر، إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، كتاب قضايا إسلامية معاصرة، ص ١٠٩.

في أحد عشرَ موضعاً منها قوله تعالى: "وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ" (الشعراء : ١٩٢-١٩٥)، وقوله: "إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ"(يوسف: ٢)، ومن اللافت أن وصف القرآن بالعربي ارتبط بإثارة آلات التفكير والتدبر والفهم "لعلكم تعقلون" "لقوم يعلمون" كما ارتبط بالتقوى والاعتبار في قوله تعالى: "وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا"(طه:١١٣)، كما وصف ذلك اللسان العربي بأنه مبين بمعنى أنه واضح مفصح عن معناه.

ومن مظاهر كون ضعف العلم باللغة العربية أو الانحراف في تحليل قواعدها وفهمها صارفاً عن فهم القرآن الكريم ما يلي :

١- شيوع العامية في الخطاب:

إن من أهم أسباب فهم من نزل القرآن الكريم بحضرتهم لهذا الكتاب المبين فصاحة ألسنتهم، وقوة إحاطتهم بلغة القرآن وفهمهم لها، كيف لا وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان، أولئك الذين كانوا يتبارون من الأشعر ويتنافسون في نظم القصائد والمعلقات، وقد بلغ الأمر بشعرائهم أن يميزوا الشاعر من خلال شعره بمجرد سماعهم له.

لقد أدرك هؤلاء بلاغة القرآن وإحكام سبكه وقوة منطقه وبيانه، فلم يستطيعوا معارضته ولا الإتيان ولو بسورة من مثله، ففروا من رصف الحروف إلى مقارعة السيوف، إذ لم يجدوا بداً من حرب أتباعه، وبذل أقصى الوسع والطاقة للقضاء على الدعوة في مهدها[١].

أما عن الجيل القرآني الأول فقد فهمه حق الفهم، وتأثر به حتى خالط عقله وقلبه، وليس ذلك إلا لتمكنه من فهم لغة القرآن الكريم، فاللغة العربية هي المتداولة في كافة نواحي الحياة الخاصة منها والعامة، فلم نجد الصحابة يحتاجون لتفسير معنى (غاسق)، أو (وقب)، أو غير ذلك من الألفاظ الغريبة التي تناولها القرآن الكريم، وإذا أشكل على أحدهم كلمة في القرآن فليس ذلك طعناً في فصاحته ولكن قد تكون تلك الكلمة غائبة عن ذهن ذلك الصحابي أو غير متداولة عنده، كما حصل مع عمر

---

[١]- ينظر: الخطابي، حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط ٤، ص٢١.

–رضي الله عنه– إذ لم يفهم معنى الأب في قوله تعالى: "وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا" (عبس:٣١)، وكما لم يفهم ابن عباس معنى كلمة (فاطر) إلا بعد أن سمع رجلين يختصمان في بئر فيقول أحدهما أنا فطرتها [١] أي شققتها[٢].

أما اليوم فقد بات من المتعذر على كثير من الناس فهم القرآن أو حتى إتقان قراءة ألفاظه، فترى أحدهم يستعجم القرآن على لسانه فلا يتقن تلاوته وفق حركات الإعراب الصحيحة المتناسبة مع المعنى، كما يجد مشقة في نطق بعض ألفاظه مثل (أنسانيهُ) و(كُفُواً) و(النفاثات) وسبب ذلك ضعف لسانه العربي واستفحال العامية فيه.

وليس هذا فحسب فإن استخدام العامية لا يقتصر على الحياة العامة والتخاطب بين الأفراد بل يتجاوز ذلك إلى مجامع العلم والمؤسسات التعليمية، فنرى أساتذة الجامعات يتحدثون العامية أثناء إلقاء المحاضرات أمام طلابهم، بل إن كثيراً من أصحاب التخصصات فيما سوى العلم الشرعي واللغة العربية لا يجيدون التعبير بالفصحى، ولا حتى فهمها وإذا قرؤوا نصاً من القرآن تعثروا فيه، أما إذا عرض عليهم نص باللغة الإنجليزية فتراهم يسترسلون في قراءته ولا يصيب لسانهم لجاجة، فأنى لمن لم يفهم لغته العربية أن يفهم القرآن الكريم؟! يشير الأستاذ يوسف القرضاوي إلى هذه الآفة الاجتماعية فيذكر أن كثيراً من الناس يؤوّلون معاني الألفاظ في القرآن الكريم وفق العرف المتداول عندهم، فقد قال له أحدهم يوماً إن المرأة خلقت قبل الرجل وإن آدم –عليه السلام– خلق منها بعد ذلك، فقد قرأ مطلع سورة النساء وفي ذهنه أن الزوج للذكر والزوجة للأنثى كما هو متداول في عرف الناس، وفي الآية: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" ولم يقل زوجتها[٣].

ومما يؤسف حقاً أن كثيراً من أصحاب الفكر وأهل العلم ممن تأثر بدعوة إحياء العامية وإعلاء شأنها واتخاذها بديلاً عن الفصحى في التعلم والتعليم، مستجيبين لدعوة سبيتا، وكارلو لندرين، وغيره من المستشرقين، فهم يدعون أن العربية الفصحى صعبة على العامة ولا تفي بحاجات البشر كما لا تستوعب كافة صنوف الأدب، وقد غاب عن ذهنهم وذهن من هم على شاكلتهم من أبناء العروبة أن القرآن نزل بلغة عربية فصحى تحمل ما لا يحصى من الكنوز والمعارف التي أحيت أمة وصنعت أروع حضارة عرفها التاريخ. فالقرآن أعيى الأدباء والشعراء بفصاحة منطقه وقوة بيانه. ولا يلقى

---

[١]– ينظر: الذهبي، التفسير و المفسرون، ج١، ٢٦.

[٢]– ينظر: الأصفهاني، المفردات، ص٣٨٤.

[٣]– ينظر: القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص ٤٢٠–٤٢١.

اللوم على المستشرقين من غير العرب فهدفهم واضح وسوء طويتهم لا تخفى على أحد، والحذر منهم متحصل وقائم، لكن الخطر كامن في أولئك الأتباع من أبناء جلدتنا والذين حملوا لواء هـذه الـدعوة واستبسلوا في سبيلها، حتى أفنوا فيها مداد أقلامهم من أمثال سلامة موسى، ولويس عـوض، وقاسـم أمين، وغيرهم. يقول سلامة موسى : (والتأفف من اللغة الفصحى التي نكتب بها ليس حـديثاً إذ هـو يرجع إلى ما قبل ثلاثين سنة[١] حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها فقـال فـي كلمتـه المشهورة : (إن الأوروبي يقرأ لكي يفهم أما نحن فنفهم لكي نقرأ) وقد اقترح أن يلغـى الإعـراب، فتسكن أواخر الكلمات كما يفعل الأتراك)[٢]. إن الغرض من ذكر هذه النقول توجيه النظر إلى أمـرين اثنين :

أ- توضيح حرص أصحاب الرأي من أولئكم على إيجاد هوة بين عامة الناس ولغتهم الأصيلة.

ب-لفت الأنظار إلى أن الهدف وراء هذه الدعوة صرف الناس عن فهم القرآن الكريم وبالتـالي العيش في رحابه. فاستفحال العامية يجعل التعامل مع القرآن الكريم أمراً شاقاً على عامة الناس؛ لذلك يجب الاهتمام برد الناس إلى لغتهم الأم وتراثهم الأصيل واستخدام اللغة العربية الفصحى فـي كافـة مجالات الحياة وعلى وجه الخصوص التعليم، كما يجب إيجاد مصطلحات بديلة لتلـك المصـطلحات الأجنبية السائدة.

٢-صعوبة فهم القرآن الكريم على الناطقين بغير بالعربية:

لا ريب أنّ الإسلام رسالة عالمية خالدة غير مقصورة على العرب وحدهم، فغير العرب مطالبون بالرسالة، فمطلوب منهم فهم متطلبات تلك الرسالة وتعاليمها الواردة في مصادرها الأصيلة (القـرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ). ولأن اللغة العربية هي قالب هذين المصدرين ووعاؤهما بات من المتعذر على غير العرب أن يفهموا معاني القرآن الكريم والسنة النبوية ومقاصدهما، خاصـة أولئـك الـذين يعدون حديثي عهد بالإسلام أو ممن هو مسلم أصلاً إلا أنه غير مختص بالعلوم الشـرعية. ويـزداد الأمر صعوبة إذا ما وضع في الحسبان ذلك الغزو الفكري السافر الذي يسعى حثيثاً لتشـويه صـورة الإسلام والمسلمين، فأنى لأولئك المقبلين على الله أن يفهموا القرآن الكريم ويعيشوا في ظـل منهجـه بعيداً عن المغريات والمكدرات والسموم الفكرية التي يبثها دعاة الباطل؟!

ومن اللافت أننا نجد كثيراً من الأعاجم يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب ويتقنـون أحكـام تلاوته أكثر من العرب أنفسهم، لكنهم إذا ما سئلوا عن معنى آية أو مفهوم لها وقفوا عـاجزين عـن

---

[١]- من تاريخ كتابة ذلك المقال والذي كتب سنة ١٩٢٧.

[٢]- عطار، أحمد عبد الغفور، الزحف على لغة القران، بيروت، الطبعة الأولى١٩٦٥ م، ص ٥٥،٥٦.

الإفصاح. ولا ينكر تأثر أولئك الأعاجم بالقرآن حتى لو لم يفهموا معانيه لكن هذا لا يفي بالغرض المطلوب، إذ الفهم باعث العمل والحياة بالقرآن، فلا بد إذاً أن ينضاف إلى تبليغ كلمات القرآن لأولئكم تفسير معانيه وتوضيح مقاصده ومراميه، فحينما أمر الله رسوله ﷺ بالتبليغ في قوله: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ" (المائدة:٦٧) أراد بالأمر الجمع بين الإعلام والإفهام.

إن في الدعوة لترجمة معاني القرآن وتفسيره ترجمةً تبرز هداياته ومقاصده وواقعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان ولكافة الناس حل لتلك المشكلات وتذليل لتلك الصعوبات التي من شأنها أن تحول بين الأعاجم وفهم القرآن الكريم.

ولا تفوت الإشارة إلى أنه من الصعب بل من المستحيل تحصيل ترجمة حرفية للقرآن الكريم، فما تمتاز به اللغة العربية من القدرة على البيان والإفصاح، والثراء بالتعابير، وغزارة الألفاظ، لا نجده في غيرها من اللغات. ولا جدال في أن الترجمة الحرفية للقرآن الكريم تفقده كثيراً من نواحي إعجازه وروائع أسراره الكامنة في نظمه، وإن مكتباتنا الإسلامية تفتقر إلى كتب التفسير بغير اللغة العربية فلا يوجد إلا كتب اقتصرت على بيان معاني المفردات، وإن كان هناك كتب ألفت عن الإسلام بغير العربية فهي قليلة جداً إذا ما قيست بحاجات العصر، وإن توفرت فقد تكون صعبة المنال لكثير من التواقين للتعرف على الإسلام أو لا تؤدي الغرض كما يجب، أو قد توصل الإسلام بطريقة صعبة التطبيق في أرض الواقع، فمن المهم أن تجلى مرونة الشريعة ويسر الدين إزاء تلك المعركة الشرسة والمؤامرات التي تحاك للقضاء على الإسلام وأهله[١].

وقد بلغ من حرص علماء الإسلام على تعلم الأعاجم اللغة العربية ومحاولة إتقانها بما يؤهلهم لأداء الشعائر الدينية كالصلاة ونحوها أنهم لم يجيزوا إمامة الأعجمي الذي يلحن في القرآن بما يؤثر على معانيه، وقدموا الإمام الفصيح عليه. وفي هذا الصدد يورد الإمام الشافعي –رحمه الله– قصة مفادها أن المسور بن مخرمة قدم إماماً عربياً على ذلك الإمام الأعجمي الذي تقدم للصلاة بالناس في موسم الحج فلم ينكر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– ذلك عليه. يقول الشافعي في تعليقه على تلك القصة: (وأحب ما صنع المسور وأقر له عمر من تأخير رجل أراد أن يؤم وليس بوال وتقديم غيره

---

[١]– ينظر: عبد الرحيم،عبد الجليل،لغة القرآن الكريم ،مكتبة الرسالة الحديثة عمان ،ط ١ ،١٩٨١،ص ٥٣١–٥٧٩ ولمزيد من المعلومات حول أحكام ترجمة القرآن الكريم لغير الناطقين بالعربية يمكن الرجوع إلى الكتب التي تناولت ذلك ومنها: الإتقان للسيوطي ،البرهان للزركشي، التفسير والمفسرون للذهبي وغير ذلك.

إذا كان الإمام أعجمياً، وكذلك إذا كان غير رضي في دينه، ولا عالم بموضع الصلاة، وأحب أن لا يتقدم أحد حتى يكون حافظاً لما يقرأ فصيحاً به، وأكره إمامة من يلحن لأنه قد يحيل باللحن المعنى، فإن أمَّ أعجمي أو لحان فأفصح بأم القرآن أو لحن فيها لحناً لا يحيل معنى شيء منها أجزأته وأجزأتهم، وإن لحن فيها لحناً يحيل معنى شيء لم تجز من خلفه صلاتهم، وأجزأته إذا لم يحسن غيرها كما يجزيه أن يصلي بلا قراءة إذا لم يحسن القراءة)[١].

إن في مقولة الإمام الشافعي هذه تحفيزاً للمسلمين من الأعاجم على الإقبال على تعلم لغة القرآن ليستعينوا بذلك على الفهم والتطبيق، فالإمام الشافعي حين شدد النكير على إمامة من يلحن ليس ذلك إلا لأنه بلحنه يخلف المعنى. فعلى الدول الإسلامية ودعاة المسلمين السعي لنشر دور تعليم اللغة العربية في بلاد العجم، والحرص على أن يكون القرآن الكريم وعلومه محط اهتمام تلك الدور حتى نصل بأولئك العجم إلى تذوق جوانب إعجاز القرآن وفهمه وتطبيقه.

٣- شيوع الضعف في علوم اللغة العربية:

بما أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم فإنه يجدر بمن يريد فهم القرآن وتفسيره أن يقف على علومها المختلفة كعلم النحو والصرف والاشتقاق وعلوم البلاغة كالمعاني والبيان والبديع، فإنها تساعد في تذوق إعجاز القرآن وإتقان قراءته وفهم أحكامه ومعانيه.

(أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلقى بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها)[٢].

وإن الناظر في واقع المسلمين اليوم يلاحظ الضعف العام في علوم اللغة أو على الأقل في النحو العربي، وهذا يؤثر بشكل كبير على قراءة القرآن وفهمه، إذ إن فهم القرآن الكريم مترتب على إتقان قراءته كما نزل على رسول الله ﷺ، وإن أي خلل في القراءة يؤدي إلى خلل في المعنى، فهناك فرق بين قراءة قوله تعالى: "وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ " (البقرة:١٢٤) بنصب (إبراهيم) –عليه السلام– ورفع (لفظ الجلالة) وبين قراءتها برفع (إبراهيم) – عليه السلام– ونصب (لفظ الجلالة)، فالمبتلي هو الله والمبتلى هو إبراهيم –عليه السلام–، فأنى للمبتلي أن يصير مبتلى؟! والأمثلة التي توضح أخطاءً شائعةً في قراءة القرآن الكريم بما يغير معاني ألفاظه كثيرة كقراءة (الجَنة) بدل (الجِنة)، وقراءة(قانتين) بدل (قانطين) وبالعكس، و(أبقارا) بدل(أبكارا).

---

[١]- الشافعي، محمد بن إدريس، مختصر كتاب الأم، تحقيق: حسين عبد الحميد، دار الأرقم، بيروت، ص١٤٠-١٤١.

[٢]- الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار، ج ١، ص ٣٢١.

وقد بلغ ببعض السطحيين في الفهم أن يقولوا بوجود أخطاء نحوية في القرآن الكريم وذلك كقولهم إنه ورد في الآية:"تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ" (البقرة:١٩٦)، والأصل (تلك عشر كاملة) ليخالف العدد المعدود[١].

وقد دافع العلماء عن القرآن ودحضوا تلك المزاعم[٢].

ومن المؤسف أننا نرى كثيراً من طلبة الجامعات وخريجيها من حملة الشهادات العليا من يلحن في قراءة القرآن الكريم، وقلما نجد أناساً يتذوقون لغة القرآن وحسن بيانه من غير ذوي الاختصاص[٣]، ومرد ذلك إلى أمرين:

أ- الجمود والجفاف في طريقة تدريس اللغة العربية وعلومها في المدارس، فإن الطالب يشعر أن حصة النحو والبلاغة جبل جاثم فوق صدره، لأنها تدرس قواعد جامدة لا روح فيها ولا حياة، فتلقي السآمة والملل في قلوب الطلبة.

ب- قلة الاهتمام في تعليم النشء الكيفية الصحيحة لقراءة القرآن الكريم، فإن ما يطرح من سور القرآن الكريم في المناهج المدرسية يعد قليلاً نسبياً إذا ما قيس بالقرآن كله. فالحل يكمن في أن تدرس علوم اللغة بمنطق القرآن الكريم وروعة أسلوبه وبيانه، وأن يحرص على وضع برنامج تعليمي يصل بطالب المدرسة إلى إتقان قراءة القرآن الكريم من الألف إلى الياء، وتدعيم ذلك بحلقات التفسير التي تقوي الملكة اللغوية لدى الطالب وتجعل لعلوم اللغة روحاً. وإذا كانت الإحاطة بأساسيات علوم اللغة ضرورية لمن يريد فهم القرآن الكريم فهي بالمفسر أولى. ومن قراءة كتب علوم القرآن وكتب التفسير نجد أن كثيراً من العلماء والمفسرين يولون ذلك عنايتهم بدعوتهم من يفسر القرآن إلى الإحاطة بعلوم اللغة المختلفة.

فبعد أن تناول أبو حيان جملة العلوم التي يحتاج إليها المفسر قال : (فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته ولا يمتطي منه صهوته إلا من كان متبحراً في علم اللسان مترقياً منه إلى رتبة الإحسان... وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم أو قصر في إنشاء المنثور والمنظوم فإنه بمعزل

---

[١] - ينظر: عطار، أحمد عبد الغفور، الزحف على لغة القرآن، ص ٣٥.

[٢] - أما عن زعمهم هذا فالصواب قطعاً ما جاء في القرآن فالعدد في الآية يخالف المعدود حيث إن تأنيث (عشرة) يخالف المعدود المذكر وهو (الأيام) في قوله تعالى: " فصيام ثلاثة أيام في الحج"، فإن العرب تقول: عشرة أيام لا عشر أيام.

[٣] – ينظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ص ٤٢٠.

عن فهم غوامض الكتاب وعن إدراك لطائف ما تضمنه من العجب العجاب وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطار وتكرار محفوظ على مر الأعصار)[١].

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن علوم اللغة المختلفة لا بد أن تخدم المعنى وتجليه، فالإعراب فرع المعنى، إذاً فلا يجوز الاهتمام باللفظ على حساب المعنى. فإذا لم تسهم علوم اللغة والبلاغة في إحياء المعنى وإبراز التصوير الفني والنسق المعجز في القرآن الكريم فقد تصل تلك العلوم إلى كونها صارفاً عن فهم القرآن الكريم لا باعثاً عليه؛ لذلك نرى الجرجاني في دلائل الإعجاز، وسيد قطب في الظلال والتصوير الفني، وفاضل السامرائي في مؤلفاته المختلفة وغيرهم ينحون هذا المنحى فيحيون معاني القرآن بتلك اللفتات الجميلة العميقة التي تبعث الحياة في القلوب المتدبرة وتشد العقول والأسماع المصغية إليه.

٤- الخلل في فهم دلالات الألفاظ:

مما لا شك فيه أن اللغة وسيلة لإيصال المعنى المراد من المتكلم إلى المخاطب، فالأصل أن الألفاظ سيقت للتعبير عن معان مختلفة يقصدها أهل تلك اللغة؛ لذلك فإن القرآن الكريم بوصفه رسالة الله تعالى إلى خلقه يعد نظوماً صاغت ألفاظاً لتعبر عن مراد الله تعالى ومقصده من ذلك المنهج الذي اختاره للعالمين، وإن المعنى المراد من اللفظ هو الذي يسمى دلالة اللفظ.

من هنا جاءت أهمية دراسة دلالات الألفاظ لقارئ القرآن الكريم والذي يبغي من قراءته التدبر والفهم في طريقه لامتثال أمر الله والقيام بمهمة الخلافة في الأرض، وإن سوء استنباط المعاني من الألفاظ أو بعبارة أخرى سوء استخدام دلالات الألفاظ يشكل صارفاً عن فهم القرآن الكريم. ومن الملاحظ أن كثيراً من الناس قد يحملون اللفظ ما لا يطيق من الدلالات فيخرجونه عن سياقه الذي ورد فيه، أو إنهم يظنون أن المعاني التي تعبر عنها الألفاظ هي ذاتها المستخدمة في حياتهم، أو إنهم يضيقون دائرة دلالة اللفظ ويلغون شخصية الكلمة القرآنية فيقولون بالترادف[٢]والتكرار ،والزيادة والتناوب في الحروف[٣]، والتضمين في الأفعال[١].

---

[١] أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر، طبعة جديدة بعناية صدقي محمد جليل، ج١، ص ١٧.

[٢] وهو الدلالة على المعنى الواحد بأكثر من لفظ كأن يقال أتى بمعنى جاء، وأعرض بمعنى صد، وسمع بمعنى أصغى.

[٣] ومعنى التناوب: حلول حرف مكان حرف في جملة معينة بحيث يعطي معناه ويؤدي وظيفته كأن نقول في بمعنى على.

وقد خلص محمد حسن عواد في نهاية بحثه المتعلق بالتناوب والتضمين إلى حقيقتين مهمتين:

الأولى: بطلان نيابة بعض حروف الجر عن بعضها وأن كل حرف يؤدي معنى خاصاً به لا يؤديه غيره.

الثانية: بطلان مسألة القول بالتضمين بطلاناً تاماً، فالأصل حمل القول بتعدد المعاني المستفادة من اللفظ الواحد على تعدد دلالات الألفاظ واتساعها، وإن القول بالتضمين يضيق دائرة المعاني المستفادة من الألفاظ الواسعة في دلالاتها[٢].

ولا يقصد من ذلك الانتقاص من قدر علماء اللغة الأفذاذ الذين قالوا بكل ما سبق ذكره، ولكن كلما بقي اللفظ القرآني على حقيقته وعبر عن معناه المراد منه كان ذلك أدعى إلى أحسن الفهم لمعاني القرآن الكريم فلكل حرف ولفظ دلالة لا يؤديها غيره من الحروف والألفاظ.

ومن أهم ضوابط القول بدلالات الألفاظ بما يتناسب مع الفهم الصحيح المنضبط للقرآن الكريم ما يلي:

١- تفسير اللفظ وفق دلالته إبان نزول القرآن الكريم وليس حسب التطور الدلالي للألفاظ:

من مرونة اللغة العربية أن اللفظ قد يدل على أكثر من معنى، وأنها تستوعب التطورات المتوالية على مر العصور، فلفظ السيارة مثلاً كان يستخدم للقافلة التي تسير، أما اليوم فهي علم على واسطة النقل المعروفة بين الناس، ويستفاد من هذا أن القرآن الكريم عندما نزل تعلقت ألفاظه بدلالات معينة واكبت العصر الذي نزلت فيه، أو أنه ابتكر دلالات شرعية لألفاظ مسوقة في آياته، هذه الألفاظ بات لها دلالات حديثة تختلف عن تلك التي كانت إبان نزول القرآن، فلا يجوز لقارئ القرآن أن يفسر ألفاظه وفق ما هو متداول في العصر الحديث خاصة إذا تعارضت دلالة اللفظ مع الدلالة القرآنية لهذا اللفظ، وتؤكد بنت الشاطئ هذا المفهوم قائلةً : (إن الألفاظ يختلف استعمالها من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى أخرى، ولا وجه في أن نحمل كلمة في أي نص دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعه)[٣].

ويمكن التعرف على دلالات الألفاظ التي كانت مستخدمة في عصر نزول القرآن من خلال الرجوع

---

[١] عرفه صاحب مغني اللبيب بقوله: (إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمه، ومفاده أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين) ابن هشام أبو محمد جمال الدين ابن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، مطبعة المدني، القاهرة، ج٢، ص٦٨٥

[٢] ينظر: عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجر في لغة القرآن، دار الفرقان، عمان- الأردن، ط١، ١٩٨م، ص٨١-٨٢

[٣] بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان ، ص ٣١٩.

إلى القرآن نفسه والتأمل في السياق الذي وردت فيه، ثم بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير التي عنيت بذلك.

ب- الأصل أن يفسر اللفظ على حقيقته ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة لفظيــة أو عقلية.

الألفاظ في اللغة العربية تنحصر في دلالاتها على المعاني بين الدلالة الحقيقية والمجازية. ومعنى الحقيقة: استخدام اللفظ لما وضع له أصلاً، والمجاز: استخدام اللفظ لغير ما وضع له أصلاً[١]، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بوجود قرينة صارفة عقلية كانت أم لفظية. أما القرينة العقلية فهــي التــي يستدل عليها بالعقل فهماً من السياق، وأما القرينة اللفظية فهي لفظ موجود في التركيب دل علــى أن اللفظ استخدم على غير ما وضع له في أصل اللغة. من الألفاظ التي استخدمها القرآن علــى الحقيقــة تارةً وعلى المجاز أخرى لفظ (القرية)، قال تعالى: "قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا" (البقرة:٥٨) فلا ريب هنا أن المقصود بلفظ(القرية) مكان ما، أما استخدام لفــظ (القريــة) علــى المجاز فقد ورد في القرآن في أكثر من آية، منها قوله تعــالى: " وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ "(الكهف:٥٩) وقوله على لســان أخــوة يوســف -عليــه الســلام- لأبــيهم: " وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا"(يوسف:٨٢) فمفهوم بدلالة السياق أن الهلاك كان لأهل القرية في الآية الأولى لا للمكان الذي سكنوه، فإن المكان لا يظلم لكن أهله هم الظالمون، ثم إن القرية المذكورة في سورة يوســف لا تســأل إنمــا المسؤول أهلها.

يستنتج من ذلك أن الذي يريد فهم القرآن لا بد له من أن يميز بــين الدلالــة الحقيقيــة والدلالــة المجازية للفظ حتى يستقيم فهمه.

ج- مراعاة المشترك اللفظي للألفاظ عند فهم القرآن الكريم:

من بلاغة اللغة العربية وسعة دلالاتها ومرونتها أن اللفظ قد يجمع بين معنيين فأكثر وهذا يسمى بالمشترك اللفظي، فعلى متدبر القرآن الكريم أن يضع في حسبانه احتمال اشتراك معنيين فــي لفــظ

---

[١] ينظر: الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ج١، ص٢٤٨-٢٤٩.

واحد، ويختار المعنى الأنسب مع سياق السورة بل القرآن كله، وليحذر المفسر من إسقاط كل المعاني المشتركة للفظ على الآية الكريمة.

د- تحكيم السياق القرآني عند النظر في دلالات الألفاظ والترجيح بينها:

يعد السياق حكماً فصلاً عادلاً عند تعدد الدلالات المستقاة من اللفظ الواحد، يقول الزركشي: (دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته)[1]. إن تحديد الدلالة المتناسبة مع السياق من شأنه أن يسهم في الفهم الصحيح للقرآن الكريم، فالسياق يقرر أن المقصود بعسعسة الليل في قوله تعالى:"وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ" (التكوير:١٧) إقباله وهجومه بظلامه مع أن لفظ عسعس يدل على الإقبال والإدبار فقد قوبل بتنفس الصبح بضيائه وانبلاج نوره في الأفق[2].

وقبل ختام هذا الموضوع تجدر الإشارة إلى أن هناك أشياء قد تحجم بها دلالات النصوص الواسعة قال بها العلماء وانتشرت في كتب التفسير، كالمبالغة في ذكر وجوه الإعراب الجامدة على حساب المعنى، والإغراق في المسائل اللغوية الجامدة التي تجعل فهم القرآن أمراً غاية في الصعوبة على عامة الناس حتى طلبة العلم الشرعي، فعلى المفسر أن ينطلق في تفسيره للقرآن من ألفاظه اليسيرة السهلة التي حملت أعمق المعاني وأعظمها والصور الفنية البيانية التي تأخذ العقول والبصائر وتيسر فهم القرآن للعامة وتقوي قدراتهم اللغوية بعيداً عن الإخلال والملل.

ثانياً- الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم:

لم يتنزل القرآن الكريم ليكتب في معلقات على جدران المنازل، أو ليتباهى الناس في زخرفته وتجويد طباعته، أو ليقرأ في بدايات الاجتماعات والمحافل وإذا ما حلت المآتم، أو ليستشفى به إذا حل الداء والبلاء في الجسد فقط، لقد نزل لأكثر من ذلك نزل ليكون منهاج حياة ودستور أمة، وقوام حضارة للبشرية بكل سورة من سوره وآية من آياته وكلمة من كلماته؛ لذلك كان الإخلال في فهم القرآن الكريم وإنزاله المنزل الصحيح سبباً في هلاك الأمة وضياعها.

---

[1] الزركشي ، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط٢،ج٢، ص٢٠٠.

[2] ينظر: الزمخشري، الكشاف، ص ١١٨٣.

إن من صوارف الفهم النموذجي للقرآن الكريم تجزئته إلى فقرات مقطعة الأوصال وانتقاء ما يروق الأخذ به وترك ما لا يروق، أو تطبيق القرآن في جزئية من الحياة وتركه في الباقي، من هنا كان الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم صارفاً من صوارف فهمه.

لقد ذم الله تعالى أهل الكتاب في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم على إيمانهم ببعض القرآن وكفرهم ببعض، وعلى اقتسامهم القرآن عضين أي أجزاء متفرقة والأخذ منها بما يناسبهم، قال تعالى: " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ "(البقرة:٨٥) وبخ الله تعالى أهل الكتاب في هذه الآية على أخذهم ببعض كتابهم حينما فادوا أسراهم، ومخالفتهم لأمره حينما أخرجوهم من ديارهم إذ هو محرم عليهم ابتداءً، كما أنه عد الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض من الكافرين المستحقين للعذاب المهين، قال تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا " (النساء:١٥٠-١٥١) فإن من مقتضيات الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله وكتبه، وهذا ما أقر به المؤمنون بقولهم:" ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ" (البقرة:٢٨٥)، وليس ذلك فحسب بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى أن جعلوا القرآن أجزاء متفرقة يأخذون منه ما وافق هواهم، ويعرضون عما لا يروق لهم كإثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته وغير ذلك مما يتعارض مع المعتقدات المحرفة التي يريدون التمسك والتمسيك بها. قال تعالى: "كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ " (الحجر: ٩٠-٩١)، ذكر الطبري أن المقصود في هذه الآية حسب ما ذكر بعض أهل التأويل هم اليهود والنصارى، وكان اقتسامهم أنهم اقتسموا القرآن وعضوه فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض[١].

[١] ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٤، ص٧٥.

هذه الآيات الثلاث وإن عني بها أهل الكتاب ووردت في سياق الحديث عن مخالفاتهم لأمر الله إلا أنه لا يمنع أن تنطبق في عمومها على أولئك المسلمين الذين عطلوا أجزاءً من شريعة الله فهم يصلون في المساجد ويعطلون فريضة الجهاد في سبيل الله، ويقصرون في أداء الحقوق إلى أصحابها، فلا يعطون المرأة ميراثها، ويأكلون أموال الناس بالباطل ويدلون بها إلى الحكام، أليس ذلك الذي يتعامل بالربا وفي الوقت نفسه يصوم رمضان ويحج ويعتمر كل عام مفرقاً لدينه؟! لا يجوز للإنسان أن يكون مزاجياً صاحب هوى حين يتعامل مع نصوص القرآن الكريم فهماً وتطبيقاً كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى حين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعض وقزموا ما أنزل الله وجعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً منها[1]. وليس المقصود بالفهم التجزيئي غير المنضبط التعامل مع تفسير القرآن آية آية بغية تسهيل فهمها وإبراز ما فيها من لطائف ونكات ومسائل علمية -كما يمكن أن يتبادر إلى البعض- إنما المقصود التعامل مع الآية بوصفها وحدة مستقلة عن أخواتها خارجة عن الدائرة التي وضعت فيها، هذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره من اجتزاء القرآن بالأخذ به مع تعطيل كثير من أحكامه وعدم تطبيقها في الواقع المعيش[2].

إن المنهج التجزيئي غير المنضبط في التعامل مع القرآن الكريم من قبل الأفراد يعد انعكاساً ناشئاً من البيئة المحيطة المتمثلة بالثقافة السائدة في منهج التعامل مع القرآن وأسلوب التعليم المتبع في ذلك، وإن منهج التعامل مع القرآن من شأنه أن يساعد في الفهم التجزيئي له.

ومن أهم مظاهر الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم والتي تشكل صارفاً مهماً من صوارف تدبره وفهمه مايلي:

١- بتر الآية من سياقها:

ينتظم القرآن في سور تؤلفها آيات منتظمة المباني، متسقة المعاني، آخذ بعضها بعناق بعض، فلا يمكن فهم الآية إلا بربطها بما يجاورها من الآيات، كما أن ربط السورة بما يجاورها يساعد في فهمها والإحاطة بمعانيها ومدلولاتها ومقاصدها. وإن إحكام نظم القرآن يقتضي أن يفسر على أنه كيان واحد لا يمكن نقض عراه؛ لذلك جاءت أهمية دراسة السياق القرآني عند تفسير سورة من سور القرآن الكريم أو آية من آياته.

---

[1] ينظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، مفاتيح التعامل مع القرآن، ص١٠٢.

[2] ينظر: الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، ط٢، بيروت،١٩٨١، ص ١٩-٢٣.

والسياق لغةً: هو انتظام الأشياء في سلك وصف واحد، يقول ابن فارس : (السين والواو والقاف أصل واحد وهو حدو الشيء، كالساق للإنسان وغيره والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها)[١].فكل شيء يشكل عضواً في مجموعة يعد جزءاً من سياقها.

والسياق في اصطلاح أهل التأويل يعني: (تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال)[٢]. وبمعنى آخر فإن السياق هو الفلك الذي تنتظم فيه المعاني المقصودة من الآيات المسوقة في السورة القرآنية وحتى في القرآن كله.

تشكل دراسة السياق محوراً مهماً في تدبر القرآن وفهمه، فمعظم الآيات لا تفهم إلا بإلقاء الضوء على سياقها سواء في السورة ذاتها أو في القرآن كله، وإن النظر للآية على أنها وحدة مستقلة عما يجاورها، وتجزيء القرآن أبعاضاً يحجمه ويخل في فهمه وفق مقاصده والهدف المرجو من إنزاله، خاصة إذا أراد الشخص الذي يفسر تلك الآية أن ينتصر لفكرته أو مذهبه كالذين فسروا قوله تعالى: "وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ" (الصافات:٩٥)، بأن الله قد خلقهم وخلق أعمالهم، فهم بذلك يجردون عبدة الأصنام من المسؤولية عن فعلتهم ويلغون وظيفة العقل في الاختيار، والحقيقة أن سياق الآية بعيد عن هذا التأويل، فالآيات تتحدث عن سيدنا إبراهيم – عليه السلام– وتسفيهه لعبادة قومه بعد أن حطم أصنامهم التي اتخذوها آلهة تعبد من دون الله، والمقصود بـ (ما تعملون) هنا بدلالة السياق تلك الأصنام التي صنعتموها وعبدتموها، فهي خلق لله تعالى، فهو خلقكم وخلق الأصنام التي صنعتموها وتعبدونها.[٣]

وتؤكد بنت الشاطئ أهمية تحري السياق عند التفسير بقولها: (من وجوه الدقة في النص القرآني استحالة تفسير صيغة من صيغه أو عبارة من عباراته مبتورة من سياقها الخاص في الآية والسورة ومن سياقها العام في المصحف كله)[٤]. ومن أمثلة مخالفة التفسير للسياق حكاية قوله تعالى: "ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ " (يوسف:٥٢) منسوبة إلى يوسف –عليه السلام–، والمقصود بالقول: العزيز الذي اشتراه من مصر، إلا أن السياق يرجح بأن القائل امرأة

---

[١] ابن فارس، أبي الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ١١٧.

[٢] المثنى، عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، دار وائل للنشر، ط ١ ،٢٠٠٨م، ص ١٥.

[٣] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٦، ص ١٤٩–١٥٠.

[٤]– بنت الشاطئ، القرآن وقضايا الإنسان، ص ٣٢١.

العزيز في سياق اعترافها بمراودة يوسف –عليه السلام– عن نفسه، وإقرارها بشهادة الحق التي تقطع ببراءته حيث كان يوسف –عليه السلام– رهين محبسه أثناء استجواب الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومما يؤكد ذلك أنها هي المتحدثة من قبل ومن بعد، فكيف يقطع السياق بكلام يوسف –عليه السلام– الذي لم يكن حاضراً آنئذٍ؟![1] ومما يسهم في انحراف الآية عن سياقها:

ا– الاستدلال بسبب نزول بعيد عن السياق وقد يكون غير صحيح وتفسير الآية القرآنية وفقه، ومثال ذلك إيراد القرطبي سبب نزول قوله تعالى: "وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ" (الحجر:٢٤) حيث قال بما روى النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: (كانت امرأة تصلي خلف النبي ﷺ حسناء من أحسن الناس وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله تعالى الآية)[2] ،وقد علق القرطبي على ذلك السبب بقوله: وهو الأصح أي أصح الأقوال [3]. إن سبب النزول الذي استدل به القرطبي ورجح تفسير الآية وفقه نأى بالآية عن سياقها، والذي يتحدث عن بديع صنع الله في أرضه وسمائه، وعن هيمنته على خلقه، وتوليه زمام الحياة والموت، وعلمه بسابقيهم ولاحقيهم، وأنهم راجعون إليه في يوم الحشر العظيم، فلا علاقة إذاً بين سياق الآية وسبب النزول الذي أورده المفسرون.

ب– قد يقتطع المفسر من الآية كلمة فيقصر تفسيره على الإسهاب في تلك الكلمة ويشطط في بيان الفوائد وجوانب الإعجاز فيها مجرداً تلك اللفظة من السياق الذي وردت فيه، فها هو رائد التفسير العلمي في العصر الحديث طنطاوي جوهري يقف على كل لفظ يعتقد أن فيه ولو إشارة بسيطة لإعجاز علمي فيسهب في بيان وجوه الإعجاز فيه فهو إذ يتحدث عن الآية التي ورد فيها ذكر النملة التي قالت لصويحباتها: (ادخلوا مساكنكم) يشير باختصار إلى المعنى الإجمالي ثم يسهب في الحديث عن ذلك المخلوق العجيب وطبيعة حياته وعجيب خلقه وتنظيم أموره وبناء بيته وغير ذلك مما يتعلق به وبعظيم صنع الله فيه ويكتب ذلك في عشرات الصفحات مما يبعد بالآية عن سياقها. وصحيح أن دأب المفسر في تناول عظيم صنع الله بالدرس والبيان من خلال آي القرآن يقوي الإيمان في النفس

---

[1]– ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١٢، ص٢٨٣.

[2] النسائي، أحمد بن شعيب، المجتبى من السنن، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م، كتاب الإمامة، باب المنفرد خلف الصف، رقم ٨٧٠. (قال الألباني: صحيح)

- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحجر، رقم ٣١٢٢. (قال الألباني: صحيح)

[3]– القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب – الرياض، ٢٠٠٣، م٥، ج١٠، ص١٩.

ويسمو بملكة التفكر في خلق الله إلا أنه من شأنه أن يصرف عن فهم النص القرآني ويحجم دلالته، فليس مقصود النص الحديث عن النملة بذاتها إنما يقصد بيان ما اختص الله به نبيه سليمان –عليه السلام– من المعجزات ومنهجه في الدعوة إلى الله وسياسة الناس وفق ما يريد[١].

ج– إهمال التنويه للمناسبات بين الآيات والسور:

علم المناسبات هو العلم الذي يبحث في الروابط الموجودة بين آي القرآن وسوره، وهذه الروابط قد تكون لفظية أو معنوية يقول أبو بكر بن العربي في سراج المريدين : (ارتباط آي القرآن ببعضها البعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله –عز وجل– لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه)[٢]. فعلم المناسبات يرتبط بالسياق ارتباطاً وثيقاً فهو لا يكاد ينفك عنه، فالسياق هو الجسم الذي تنتظم فيه الروابط والصلات التي تجمع بين آي القرآن وسوره.

ومن الملاحظ أن كثيراً من المفسرين لم يطرقوا باب هذا العلم، مما تسبب في البعد عن السياق عند تفسيرهم للقرآن الكريم[٣].

د– قلة الاهتمام بالتفسير الموضوعي:

وسيتم الحديث عن هذه النقطة إن شاء الله عند تناول أثر إهمال التفسير الموضوعي في تعزيز الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم، ويمكن القول إن التفسير الموضوعي يكشف النقاب بجلاء عن السياق إذ هو مرتكزه ومعتمده، فلا قيام للتفسير الموضوعي إلا به.

من خلال عرض ما يمكن أن يحيد بتفسير القرآن الكريم عن سياقه يمكن استخلاص أهم الضوابط التي يجب أن تراعى عند تأويل القرآن بما يتناسب مع سياق آيه وسوره وأهمها :

أ– الاهتمام بعلم المناسبات.

---

[١] ينظر: جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية، ط ٣،١٩٧٤،ج ١٣، ص ١٣٧–١٦٥، وينظر: عباس، فضل حسن، التفسير أساسياته واتجاهاته، مكتبة دنديس، عمان، ط ١،٢٠٠٥ م، ص ٥٩٤.

[٢]- الزركشي، البرهان،ج١، ص ٣٦.

[٣]– ينظر: المثنى، عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني، ص ٣٩–٤٠.

ب- الإكثار من التأليف في التفسير الموضوعي بشتى جوانبه فموضوعات القرآن أكثر مـــن أن تحصى.

ج-الاهتمام بعلم أسباب النزول دراية ورواية، فلا يؤخذ بسبب النـــزول إلا إذا كـــان صـــحيحاً صريحاً في الدلالة على السببية متناسباً مع سياق الآيات التي كانت الحادثة سبباً في نزولها.

د- مراعاة التنوع الدلالي للألفاظ وعدم الخوض في اللغة على حساب السياق، فمثلاً فـــي قولـــه تعالى: "وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ " (التكوير:٢٤)، تحتمل اللغة أن يعود الضمير على الرســـول الكـــريم جبريل -عليه السلام- إذ هو المقصود في قوله تعالى: "وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ"(التكوير:٢٣) إلا أن سياق الحديث في الآيات يرجح الميل إلى عود الضمير (هو) على القرآن الكريم، وقد بدأ الحديث عنه فـــي قوله تعالى: "إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ "(التكوير:١٩)، أي القرآن الكريم فيكون المعنى أن القرآن الكـــريم لا يضن على الغيب بتجليته ولفت النظر إليه، ويتأكد ذلك بملاحظة أن الآيات التالية لتلك الآية تواصـــل حديثها عن القرآن، وعليه فلا نقول إن (على) بمعنى الباء، بل إنها تبقى محافظة على دلالتها متناسبة مع سياق الآيات في السورة، فالأصل أن يعود الضمير على أنسب مذكور حتى لو لم يكـــن الأقـــرب والله أعلم[١].

٢- غلبة ثقافة المفسر على تفسيره :

إن من وجوه إعجاز القرآن الكريم مناسبته لفهم عوام الناس وخواصهم، فقارئ القرآن لا بد له من فهمه دون أن يشعر أن هناك غموضاً أو لبساً، وإن العامي إذا قرأ قصة قرآنية أو آيات تتحدث عـــن صفات الله يتأثر وتملك آيات القرآن قلبه، وما تأثره إلا لفهم تشكل لديه نتيجة قراءته. والمختص يجد في القرآن مأربه ويفهمه بما يتناسب مع قدرته العقلية، وتحصيله العلمي، والجانب الذي بـــرع فيـــه، فعالم الفلك والطب والفيلسوف والفقيه واللغوي وغيرهم كل منهم يعيش مع القرآن ويرتقي بـــه مـــن خلال الطريقة التي تناسب فهمه وفكره[٢]، وليس عيباً أن تختلف زوايا النظر للقرآن فإنه حمال أوجـــه وغالباً ما يكون الاختلاف بين المفسرين فيما توصلوا إليه من اجتهادات اختلاف تنوع لا تضاد، وهذا لا يعيب تفسير القرآن، بل إنه يثري العقول ويفتح آفاق النظر إلى أمور قد تكون غائبة عن المتـــدبر،

---

[١]- ينظر: جرار، بسام، نظرات في كتاب الله الحكيم، نون للأبحاث والدراسات الإسلامية، البيرة، فلسطين، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٢٦.

[٢] ينظر: دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار العلوم، ١٩٨٤م، ص١١٣.

ولكن المشكلة تكمن فيما إذا أدى ذلك الفهم إلى تغييب مقاصد القرآن عن الفاهم والبعد عن هداياته وجوانب إعجازه الأخرى. وتزداد المشكلة تعقيداً إذا كان ذلك المتدبر من أولي الرأي والنهى وأصحاب العلم والتأثير في أهل عصره حيث إن غلبة توجهه العلمي على تفسيره قد يؤدي إلى صعوبة في فهم القرآن لمن يعلمهم ويفسر لهم، فمن كان مختصاً بالفقه وأصوله يفهم القرآن ويفسره بطريقة الفقيه المحلل للنصوص المغرق في النظريات والمسائل والخلافات الفقهية، وعالم العقائد يغرق في المسائل العقدية والتفريعات الفلسفية والكلامية، فيصبح تفسيره عبارة عن سرد لآراء الجهمية والمعتزلة وغيرهم من علماء الكلام وأصحاب الفرق مما يجعل تفسيره يحتاج إلى تفسير، ومنهم من يحشو تفسيره بجملة من الروايات والخرافات التي ليس لها أصل[١].

ومن صور غلبة ثقافة المفسر على تفسيره في العصر الحديث ما نراه من مؤلفات صبغت بما يوضح الاتجاه المنحرف الذي يتبناه مؤلفوها، كما أنها أخلت بقدسية النص القرآني، فهؤلاء تناولوا النص كله وفق منهج القراءة المعاصرة والتي تبنت ما يسمى عندهم باللسانيات اللغوية، حيث يزعمون أن النصوص تظل دائماً وأبداً قابلة للتفسير ولا تقف عند حد، ومن رجالاتها محمد أركون وله مؤلفات منها التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ومحمد شحرور صاحب الكتاب والقرآن، ونصر أبو زيد الذي سلك منهج نقد القرآن وعلومه، ومن مؤلفاته مفهوم النص في علوم القرآن. كما لم يسلم القصص القرآني من كثير من الدسائس والأباطيل التي نسبت له من قبل أصحاب الاتجاهات المنحرفة، فمنهم من يقول بالخيال والرمزية في القصة القرآنية وينأى بها عن واقعيتها، وكذلك فهم كثير من المؤولين لآيات القصص، فهم يلوون أعناق النصوص ويحملونها ما لا تحتمل من المعاني الباطلة المنحرفة، ومنهم من يصبغها بآرائه الشخصية، ويقصد بهم أولئك الذين يسقطون آراءهم ومتبنياتهم الشخصية على مفهوم آيات القصص القرآني[٢].إن السبب الكامن وراء تلك التخصصية المعرفية الثقافية في التفسير ليس إلا غياب النظرة الشمولية للقرآن الكريم، فهو كتاب فقه وبيان إضافة إلى كونه كتاب توحيد وسنن وواقع أمم، كيف لا وهو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم؟! هذا ما خلفته ضلالات الغرب من الملاحدة أولئك الذين فصلوا الدين عن الدنيا، وحجموا العقول في دائرة من العلوم الدينية الضيقة ليطمسوا كون القرآن منهج دين تقوم عليه الدنيا[٣].

---

[١] ينظر:رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، ج١، ص٧.

[٢] ينظر: الدقور، سليمان، اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، رسالة دكتوراه، ٢٠٠٥م، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ص ٢٧٨-٢٨٠.

[٣] ينظر: الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، ص ٨٨، ٨٩.

ويضيف الدكتور فضل عباس في سياق تشخيصه للمشكلة قائلاً: (إن حديثنا عن قواعد التفسير ودعائمه من لغة ومأثور وسياق وما يتصل بذلك كله إنما يكون مجدياً ومفيداً إذا كان القارئ أو المفسر متجرداً من جميع المؤثرات الخارجية والداخلية، أعني أن لا يكون متكئاً على قول ما أو معجباً برأي ما يريد أن يحمل القرآن عليه، ولقد رأينا من يتحمل في فهم القرآن الكريم ويتكلف تكلفاً يبعده عن مواطن الحق والصواب)[1]. إن غلبة ثقافة المفسر على تفسيره بما ينأى بالقرآن عن واقعيته وروحه وسياقه وهداياته كل ذلك من شأنه أن يعزز الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم بما يصرف عن فهم القرآن وفق ما يحقق الهدف من إنزال الله تعالى له، والصواب أن يضع كل مفسر نصب عينيه مقاصد القرآن الكريم وشموليته وصلاحيته لكل زمان ومكان ولكافة البشر، وأنه كتاب كون وحياة بما حوى من الإشارات إلى سنن الله في الكون والفرد والمجتمع والتي تعزز كون القرآن رسالة الله الخالدة إلى قيام الساعة، والمرجعية الأولى والعليا إلى خليفة الله في أرضه.

٣- الاهتمام بالتفسير التجزيئي على حساب التفسير الموضوعي:

السمة الغالبة على طريقة العلماء في التفسير أنها تتناول المصحف الشريف من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وتتناول كل سورة وفق سرد آياتها من مبتدئها إلى منتهاها، وهذا ما دأب عليه المفسرون منذ بداية التأليف في تفسير القرآن الكريم، ولا شك في أن هذه الطريقة تخدم كتاب الله تعالى وتجلي ما فيه من وجوه البيان وأفانين اللغة والأحكام الفقهية وغير ذلك، إلا أنها سرعان ما تصبح طريقة تقليدية مكرورة في التعامل مع القرآن الكريم؛ لذلك ظهر توجه في العصر الحديث ينادي بتفسير القرآن وفق موضوعاته، لما في تلك الطريقة من التجديد في التفسير بما يبرز واقعية القرآن الكريم ومناسبته كافة الأعصار والأمكنة، فموضوعات القرآن لا تنفد، فلا بد أن يجد فيه الباحث كماً هائلاً من الموضوعات التي تفي بحاجة كل عصر. ويدور التفسير الموضوعي بمجمله حول:

أ- دراسة الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

ب- دراسة ما طرقه القرآن من موضوعات شتى في مختلف المجالات، كالأمن الاقتصادي في القرآن، سمات الشخصية الإسلامية في القرآن، العلم في القرآن وغير ذلك.

ج- دراسة اللفظة القرآنية وكيف وردت وما هي دلالاتها في القرآن الكريم.

---

[1] عباس، فضل حسن، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص ٣١٧.

وإن المفسر الموضوعي للقرآن الكريم ينطلق من القرآن للواقع ومن الواقع إلى القرآن، مما يعزز منهج القرآن وفاعليته في الواقع، ويبرز مقاصده وأحكامه، ويضفي على حياة الأفراد والمجتمعات والأمم الصبغة القرآنية المطلوبة[١].

إن الاقتصار على التفسير التجزيئي للقرآن من شأنه أن يحجم وظيفة القرآن في الكون والمجتمع، وينأى به عن واقعيته وشموله، فالمفسر التجزيئي يبدأ من القرآن وينتهي إليه، لا هم له إلا توضيح المعاني المشكلة والصعبة، والإشارة إلى ما في آي القرآن من قواعد علوم اللغة المختلفة، إضافة إلى ما تيسر له من العظات والأحكام المختلفة[٢]. وإن التفسير التجزيئي الذي يعتمد على النظرة الموضعية للقرآن يشكل صارفاً عن فهمه من حيث:

أ-مجانبته للسياق في السورة القرآنية بل في القرآن كله وهو ركيزة مهمة في الفهم الموضوعي للقرآن الكريم بما يعزز وحدة الكيان الإنساني.

ب- مجانبته لعلم المناسبات وهو علم يعزز الفهم الموضوعي للقرآن ويوضح اتساقه وانتظامه.

ج- إنه يغض النظر عن كثير من الموضوعات العصرية والحيوية والمقاصد الهدائية التي نزل القرآن ليعززها ويقيم الحياة على منهجها.

د- إنه يصرف النظر عن كثير من وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لا تتجلى في نظم القرآن بشكل واضح ومباشر كالإعجاز التشريعي والنفسي والعلمي وكثير من جوانب الإعجاز البياني. ولا حل لتلك المشكلة إلا بمزيد اهتمام بالتفسير الموضوعي بكافة أشكاله.

٤- فصل التفسير عن قضايا الأمة والواقع المعيش:

قدر الله تعالى أن يتنزل القرآن في مجتمع يشكله أفراد، فها هو القرآن تترى سوره وآياته خلال ثلاثة وعشرين عاماً لتجسد أنموذجاً لخير أمة أخرجت للناس، وتبني خير حضارة عرفتها الأرض منذ فجر التاريخ.

ولم يقتصر تأثير تلك الحضارة على المجتمع الذي نزل فيه القرآن بل انتشرت وعم خيرها من أقصى البلاد إلى أقصاها في غضون العصور الإسلامية الزاهرة.

---

[١] ينظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٧، ص ٢٩-٣٠.

[٢] الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص ١٥.

وإن الحكمة من تهيئة تلك البيئة القرآنية بيان أن القرآن تنزل ليتجسد في أفراد وأمم ويشكل أساساً لانطلاق الحضارات على مر العصور، فهو مجرد عن حدود الزمان والمكان، وإن أسباب النزول وهي تلك الأسئلة والأحداث التي كانت تطرأ فتفضي إلى نزول جملة من سور القرآن وآياته ما هي إلا محطات تجلي فكرة واقعية القرآن الكريم، وأنه قوام الحياة فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا تؤتي التربية أثرها المرجو إلا إذا ناسبت واقع المتربي.

إن الفهم التجزيئي غير المنضبط للقرآن الكريم يؤدي إلى تغييب القرآن عن أرض الواقع، وتعطيل كثير من الحلول المناسبة لما لا يحصى من قضايا الأمة ومشكلاتها، فأعداء الإسلام لا يفتؤون يبذلون قصارى جهودهم للنيل من الإسلام وأهله، والنفاق لا يزال يستفحل في أعماق المجتمعات، والولاء والبراء مسألة تغيب مدلولاتها عن كثير من الناس فتدعهم يتخبطون على غير هدى. كل هذه المسائل وغيرها عالجها القرآن بوصفها تشكل حلاً مفصلياً لكثير من مشكلات العصر وقضاياه العالقة؛ لذلك فلا يكفي أن يتعلم النشء كيف يقرؤون القرآن ويحققون مخارج الحروف وصفاتها ويستظهرونه من ألفه إلى يائه بل يجب أن ينضاف إلى ذلك كله الإشارة إلى فقه الواقع بكل ما تحمله الكلمة من معنى. والمعلم الناجح هو الذي لا يدع شاردة ولا واردة من قضايا الأمة ومشكلاتها حتى يجسد لها الحل القرآني المنطقي، فإن القرآن الذي تربى عليه الجيل القرآني الفريد الأول منهج صالح بكل المقاييس لبناء أجيال فريدة متميزة على مر العصور إلى قيام الساعة[١].

ثالثاً- الدخيل في التفسير:

يقصد بمفهوم الدخيل في التفسير تلك الروايات والأقوال والشطحات التي يغرق فيها من يريد تفسير القرآن الكريم، فتؤدي به إلى الانحراف عن سياقه وظاهر لغته ومقاصده. ولا شك أن ما يداخل التفسير من تلك الأشياء يؤدي إلى الصرف عن فهم القرآن الكريم، فإن قارئ التفسير من عامة الناس إما أن يجد فيه صعوبة تمنعه من المواصلة فيبقى على ما هو عليه من التعثر في الفهم، أو تؤدي به إلى أن يحشو عقله بموضوعات وإسرائيليات تشغله عن تدبر القرآن الكريم وإذا كان ذلك القارئ من المتصدين لتدريس القرآن لعامة الناس ومن الذين ينقلون ما يقرؤون نقلاً تقليدياً من غير تمييز بين الغث والسمين، فتلك هي الطامة الكبرى. من هنا تكمن الخطورة في كون معظم كتب التفسير محشوة بالروايات الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات وغير ذلك مما يؤثر تأثيراً ملموساً في البيئة الثقافية والتعليمية المهيئة لدراسة القرآن الكريم وتدريسه.

---

[١] ينظر: الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص ٧٨.

وسيتم تناول تلك الأمور التي داخلت تفسير القرآن الكريم من حيث تعريفها، وأسباب وجودها في كتب التفسير، ومظاهر صرفها عن فهم القرآن الكريم وذلك على النحو التالي :

١- الروايات الضعيفة والموضوعة:

ارتأى العلماء إلى تقسيم تفسير القرآن الكريم إلى قسمين رئيسين: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، وقد اختلف العلماء في تحديد المقصود من التفسير بالمأثور الذي ينضبط تحت هذا المسمى، والذي يظهر أنه تلك الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ في تفسير آي القرآن الكريم[1]، وهذه الروايات المأثورة عن رسول الله ﷺ قد تكون صحيحة أو ضعيفة أو موضوعة، فما صح منها وتناسب مع الآية المفسرة قبل، وما كان منها ضعيفاً أو موضوعاً فلا يجوز التهاون في رده وتخليص كتب التفسير منه، وحتى تتضح الفكرة لا بد من تعريف الحديث الضعيف والموضوع.

أما الحديث الضعيف فهو ما أثر عن رسول الله ﷺمن قول أو فعل أو تقرير ولم تتوفر فيه شروط الصحة أو الحسن كأن يوجد قادح في ضبط الراوي أو عدالته أو يكون فيه خلل في سند الحديث كالانقطاع أو الإرسال أو نحو ذلك من العلل القادحة في سند الحديث أو متنه.

وأما الموضوع فهو الحديث المختلق المنسوب كذباً إلى رسول الله ﷺ بسنده ومتنه[2]. وتنقسم الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي دخلت كتب التفسير إلى قسمين :

أ- أحاديث وضعها الوضاعون واختلقوها من تلقاء أنفسهم انتصاراً لمذهب أو تأييداً لفكرة عندهم.

ب- أقوال منسوبة إلى رسول الله ﷺ ذكرها غيره من الصحابة أو الحكماء أو المتصوفة أو ما يروى من الإسرائيليات المنسوبة إلى الصحابة والتي قد ترفع إلى رسول الله ﷺ . [3]

ومن أهم أسباب دخول الروايات الضعيفة والموضوعة كتب التفسير:

أ- ترغيب الناس في الإقبال على قراءة القرآن الكريم ومن ذلك الأحاديث التي وضعت في فضائل سور القرآن الكريم، فليس كل ما ورد في فضائل سور القرآن صحيحاً.

---

[1] فإن تفسير القرآن بالقرآن قائم على الرأي والاجتهاد إلا ما فسره رسول الله ﷺ من استدلاله بآيات على تفسير آيات كما ورد في تفسيره لقوله تعالى:(الأنعام: ٨٢) مستدلاً بقوله تعالى (لقمان: ١٣) أما أقوال الصحابة والتابعين فلا تعد من قبيل التفسير بالمأثور خاصة إذا كان رأي الصحابي واضحاً في هذا التفسير، حيث إن الصحابة اختلفوا في تفسير كثير من الآيات، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ قد فتح أمام عقولهم باب الاجتهاد في فهم كتاب الله

[2] ينظر : ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، مقدمة ابن الصلاح، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص٢٥،٥٦.

[3] ينظر:أبوشهبة، محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات في القرآن الكريم، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢، ص١٤.

ب- حرص المفسر على أن يستشهد بالمأثور في تفسيره للقرآن الكريم، وذلك واضح عند كثير من المفسرين كالطبري والقرطبي، إلا أن الطبري كثيراً ما كان يسوق أسانيد للروايات التي استدل بها، فكما قال علماء الحديث من أسند إليك فقد أحالك.

ج- الانتصار للفكرة أو المذهب كما فعل كثير من مفسري غلاة الشيعة وأتباع الفرق الباطنية الضالة.

د- قلة باع المفسر بأصول الجرح والتعديل، مما جعل تمييز الغث من السمين أمراً شاقاً على من يجند نفسه لتمحيص تلك التفاسير [1].

ومن مظاهر تشكيل تلك الروايات صارفاً عن فهم القرآن الكريم:

أ- إن هذه الروايات غالباً ما تحتوي على غرائب تشغل عن فهم القرآن الكريم.

ب- قد تكون تلك الروايات بعيدة عن سياق الآيات وواقعيتها فكثير ما يلحظ تعارض بين الآية والرواية.

ج- كثيراً ما تحوي هذه الروايات أفكاراً تبرز التعصب لمذهب أو فكرة صاحبها وذلك من شأنه أن يحصر التفكير في ذلك المذهب والفكرة التي أسقطها المفسر على معنى تلك الآية. ولا تفوت الإشارة إلى أن تلك الروايات قد يستدل بها في بيان سبب النزول للآية أو في تأويل معناها، وعلى أي حال فلا بد من تمحيص التفاسير وتنقيتها مما يشوبها أو على الأقل التنبيه على ما فيها من الضعيف والموضوع، فإن التربية على منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة تعد تربية متوازنة.

٢- الإسرائيليات :

إن لفظ الإسرائيليات ارتبط ببني إسرائيل وعلى الأخص اليهود، فهم الذين كان لهم احتكاك مباشر بالعرب إبان نزول القرآن الكريم، فقد كانوا يسكنون المدينة المنورة، فلا شك إذاً أنهم عاصروا تنزلات القرآن الكريم، والمراحل التي مرت بها دعوة الإسلام وعلى الأخص بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، ولا يخفى أن اليهود أصحاب كتاب، كما لا يغيب عن الذهن أنهم حرفوا كتابهم واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا، فلقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي بينت تحريف أهل الكتاب لكتابهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق واستخفافهم بعقول العامّة مما أورث قلوبهم القسوة وجعل عقولهم تنغمس في جدليات مقيتة صدتهم عن الحق وصرفتهم عن الهدى، قال تعالى: "وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (آل عمران:٨٧)، وقال تعالى: " فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم

[1] ينظر: المرجع السابق، ص ١١٣، وينظر: الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ج١،ص١١٠.

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ" (النساء: ١٥٥)، فلا ينتظر من أولئك الذين حرفوا كتبهم أن يسمعوا كلام الله أو يؤمنوا لرسوله ﷺ وهم الذين كفروا بعد إذ جاءهم ما عرفوا وأنكروا وانحرفوا بعد أن تبين لهم أن النبي الذي بشر به موسى وعيسى والأنبياء–عليهم السلام– والذي ذكرت أوصافه في كتبهم ليس إسرائيلياً مثلهم، قال تعالى: "أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقرة:٧٥-٧٦)، من هنا بدأت دسائس أهل الكتاب وعلى وجه الخصوص اليهود منهم تنفذ إلى عقول أهل الإيمان لتصرفهم عن كتابهم وتصدهم عن سبيل الهدى والرشاد، قال تعالى: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم" (البقرة:١٠٩)، وقال: "وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ" (البقرة:١٢٠)، لقد بدأ تأثير أهل الكتاب على المسلمين منذ عصر الصحابة –رضي الله عنهم– حيث كان عدد منهم يسألون من يخالطونهم من اليهود عن بعض الأشياء في دينهم خاصة تلك القصص وأحداث التاريخ التي جاء بها القرآن الكريم وطوى التفسير فيما لا يلزم من شخوصها وأحداثها، إلا أن أثرهم لم يكن فاعلاً آنئذ لأن رسول الله ﷺكان بين ظهرانيهم يرجعون إليه في كل أمرهم، إضافة إلى أن كثيراً ممن كانوا يرجعون إليهم لم يقبلوا ما أخذوه منهم على وجه التسليم بل كانوا يعملون عقولهم ويحكمون دينهم فيما يأخذون ويردون.

وبعد عصر الصحابة كثر الأخذ عن أهل الكتاب خاصة من آمن منهم ككعب الأحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه، ومع مرور الزمن تزايد الاعتماد على مرويات أهل الكتاب في تفسير القرآن الكريم، وبعد تدوين كثير من كتب التفسير وجد أن كثيراً من المفسرين يضمنون تلك المرويات تفسيراتهم[1]. وأولئك المفسرون ينقسمون إلى قسمين :

الأول: علماء نبهوا إلى وجود تلك المرويات في كتبهم معتبرين ما رووا منها من قبيل ما لا يعارض القرآن الكريم، كابن كثير والذي ذكر في مقدمة تفسيره إنها تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، فهو يقول بعد أن ساق جملة من الروايات المنسوبة لابن عباس –رضي الله عنهما– في أصل خلق إبليس وإنه من الجن : (قد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف غالبها من الإسرائيليات التي تنقل

[1] ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار العلم للجميع، بيروت، ج١، ص ٤٣٩-٤٣٠.

لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان)[١].

والثاني: علماء ضمنوها كتبهم دون أن ينبهوا عليها أو يشيروا إلى خطرها ومعارضتها للقرآن الكريم.

ومن أهم أسباب دخول الإسرائيليات إلى كتب التفسير:

أ- رفع بعضها إلى رسول الله ﷺ ونسبتها إليه، وتكمن خطورة هذا الأمر في أن كثيراً منها قد حذفت أسانيدها، وأن رواتها قليلو الباع في علم الجرح والتعديل ورجال الحديث.

ب- ميل العقول إلى الإغراق في الماديات والتفصيلات، وهذا ما نجده في الروايات الإسرائيلية خاصة في القصص التي أجملها القرآن ولم يقتصر من ذكر أحداثها إلا على ما فيها من عبر ومواعظ، فنجدهم مثلاً يذكرون أسماء أصحاب الكهف ونوع الشجرة التي أكل منها آدم -عليه السلام- وزوجه وأنواع المخلوقات التي حملها نوح -عليه السلام- في سفينته وغير ذلك[٢].

وهذا ما جعل تلك الروايات متداولة بين العامة ورائقة لديهم.

ج- الحرص على الكيد للإسلام وتشويه تفسير القرآن للانحراف بالعامة عن نبعه الصافي ونهجه القويم، وإن التاريخ ليشهد أن اليهود هم الذين أصلوا لكثير من الفرق الباطنية الضالة كغلاة الشيعة والبابية والبهائية وغير ذلك، وتحكي الروايات أن عبد الله بن سبأ وهو من أقطاب الرافضة الذين يؤلهون علياً كان يهودياً فهو الذي وضع حديث لكل نبي وصي ووصيي علي[٣].

د- رواية بعض المفسرين لها على أنها أشياء مسكوت عنها ولا تعارض ولا تخالف ما صح من أمور الدين وما علم منه بالضرورة، فذلك من باب ما لا يحتمل الصدق ولا الكذب[٤] باعثهم في ذلك حديث رسول الله ﷺ "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[٥].

ومن مظاهر صرف تلك الإسرائيليات عن القرآن الكريم ما يلي:

أ- إنها تشغل قارئها بما فيها من الماديات والغرائب والخرافات، فالنفس تميل إلى سماع القصص والتي لا يخفى مالها من الأثر في البناء أو الهدم الفكري والثقافي.

---

[١] ابن كثير، عماد الدين، تفسير القرآن العظيم، دار صبح – بيروت ، ادفيست – الدار البيضاء ج٣، ص٩٣.

[٢] -ينظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، م١، ص١٤٢، م٧، ص٤٣٧، م٣، ص٨٢.

[٣]- ينظر: أبوشهبة، محمد، الإسرائيليات والموضوعات في القرآن، ص٢٠.

[٤]- ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أحمد، مقدمة في أصول التفسير، مؤسسة الريان، ط٢، ٢٠٠٢، ص ٦١.

[٥]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب "بلغوا عني ولو آية"، رقم ٣٤٦١.

ب- إنها كثيراً ما تنأى بفهم القرآن الكريم عن سياق آياته ومقاصده وتبعث الشك في قلوب ضعاف الإيمان وعوام الناس خاصة بما ألصقه اليهود بأنبيائهم من الأباطيل التي تنتقص من قدرهم، فنراهم يتهمون سليمان -عليه السلام- بأنه انشغل عن صلاة العصر بالخيل حتى توارت الشمس بالحجاب، ونراهم يتهمون داوود -عليه السلام- بالجور في الحكم وأنه لم يسمع من الطرفين وهو الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب ويتهمون يوسف العفيف -عليه السلام- بأنه همَّ بامرأة العزيز، وغير ذلك من الأباطيل التي كادت أن تصير مسلمات يتداولها كثير من الناس[١].

ج- إن ورود تلك الإسرائيليات في بطون كتب أئمة أعلام يكسبها مصداقية ويزيد الثقة بها ويعزز قبولها لدى الناس والتقليديين من أهل العلم، فإذا ما حاول عالم أن يلفت النظر إليها أو يحذر منها ويصحح مفهوم خاطئاً ترتب عليها فإنه يواجه بوابل من النقد والتسفيه، وقد يتهم بالتطاول على العلماء. وإن من شاء أن يستزيد من تلك الأباطيل فإن فيما ورد في تفسيرات قصص القرآن الكريم وما أشار إليه من أحداث التاريخ ما يفوق الحصر والإحصاء.

ولا بد بعد هذا العرض الذي يجلي الخطورة في وجود تلك المرويات في كتب قد يتناولها أناس لا قبل لهم بتمييز السمين من الغث أن يتخذ أولوا البصائر والنهى ممن فتح الله لهم أبواب العلم والمعرفة ما استطاعوا إليه سبيلا من الإجراءات التي من شأنها أن تحذر الناس من تلك الدسائس وتنير بصائرهم وعقولهم ليقبلوا على القرآن الكريم بعقل نقي مستنير و ليمحصوا تلك التفاسير ويحققوها ويشيروا إلى ما فيها مما قد يصرف الناس عن روح القرآن الكريم.

وهناك سؤال يُطرح مفاده ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه تلك الإسرائيليات حتى يتجنب خطرها ويتخذ جانب الحذر منها؟

تبين مما سبق حجم الخطورة المترتبة على إقحام الإسرائيليات عالم تفسير القرآن الكريم، فإن تلك الروايات منبثقة عما حرفها أهل الكتاب من كتبهم وانتقصوا فيه قدر أنبيائهم ورسلهم لذلك يجب اتخاذ الإجراءات التالية إزاء الإسرائيليات، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- الاسترشاد بالموقف النبوي في التعامل مع التراث اليهودي، ويتمثل ذلك فيما ورد من أحاديث توضح كيفية التعامل مع ما يمكن أن يحدث به أهل الكتاب المسلمين. ويمكن إجمال الموقف النبوي فيما يلي:

---

[١]- ينظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، م٢ص ٦٢٢-٦٢١، م٢ ص ١١٣٣ نسخة دار الرسالة.

١- اتخاذ مبدأ الشك والريبة في موقفنا من مروياتهم، ويتجلى ذلك في قول رسول الله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"[١] ويعني هذا اتخاذ موقف الحياد إزاء تلك المرويات وعدم الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

٢- عدم مبادرة أهل الكتاب بالسؤال عمّا يتعلق بأمور دينهم خاصة تلك الأشياء التي ذكرها القرآن الكريم، ويؤيد هذا ما ورد عن حبر الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- حين قال: "يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث الكتب بالله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروا ما كتبوا بأيديهم، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا، أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ لا والله ما رأينا رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم"[٢].

يمكن استنتاج أمرين مهمين من كلام ابن عباس:

الأول: تبرئة ابن عباس -رضي الله عنهما- مما قد يلصق به من رواية الإسرائيليات.

والثاني: عدم الخوض فيما يسمى بحوار الأديان الذي من شأنه أن يرجح كفة الباطل ويعلي لواءه، والتعامل مع غير المسلمين وفق ما أمرنا به القرآن من غير مداهنة أو مسالمة إلا إذا كانت المبادرة من قبلهم، فمعلوم أن جل ما في الديانتين -اليهودية والنصرانية- قد أخضع للتحريف وأنهما تحويان كثيراً من المفاهيم التي تعارض ما جاء في القرآن الكريم. فيجب على المسلم أن يعتز بدينه وكتابه ويبذل ما في وسعه لاستمالة غير المسلمين لدينهم وترغيبهم بالدخول فيه، قال تعالى: "ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل:١٢٥).

ج- (التحصن بالحق الذي بعث به نبينا ﷺ والذي يأخذ معنى الحصار الذي يجب أن يفرض على التراث اليهودي، وبهذا يتجه الهدي النبوي إلى إقامة حد فاصل بين التراث التفسيري اليهودي وبين الثقافة والعقلية الإسلامية والتفسير القرآني لتصل في النهاية إلى حد القطيعة)[٣] أما عن قول رسول الله ﷺ : "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" فلا يقصد منه نقل مروياتهم والاهتداء بهديهم، إنما المقصود التحديث عنهم بما حدث القرآن الكريم من ذكر صفاتهم ومسائل دينهم[٤].

---

[١] أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، باب قول النبي: لا تسألوا أهل الكتاب، رقم ٧٣٦٢.

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام ، باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، رقم ٧٣٦٣.

[٣]- الدغامين، زياد خليل، موقف الوحي من التعامل مع التراث الديني اليهودي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد٣٩ ، ١٩٩٩، ص ١٠٧.

[٤]- ينظر: المرجع السابق، ص١٠٧.

٢- إن مرويات أهل الكتاب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: ما يوافق ما ورد في القرآن، وهنا يستغنى بالقرآن عما رووا، وما عارض القرآن الكريم ولم يوافق هديه وتعاليمه، وهذا لا يجوز التهاون في رده، أما ما لم يوافق ولم يخالف فلا حاجة لنا به وقد صرح بعض العلماء بجواز الاستدلال به للاستشهاد لا للاعتقاد[1].

٣- التنبيه على تلك الإسرائيليات الواردة في كتب التفسير والتحذير من خطرها وبيان نقاط الضعف فيها، وجوانب مخالفتها لهدي القرآن الكريم.

ومن الأشياء التي داخلت كتب التفسير ما يوجد في بعضها من الإيغال في الفلسفات والكلاميات والعلوم التي تنحرف عن سياق القرآن ومقاصده، والحكايات والظنون المختلقة من غير الإسرائيليات، وهي الأخبار والقصص والأساطير والمنامات المخترعة المسوقة في تفسير آية من آيات القرآن الكريم مما لا أصل له من الكتاب أو السنة الصحيحة أو إجماع الأمة. وإن في تفسيرات المتصوفة وكتب التفسير الإشاري كثيراً من تلك المنامات والحكايات التي ينشغل قارئ التفسير بها عن الآيات المفسرة[2].

وحتى يتوصل إلى بيئة ثقافية وتعليمية قرآنية نموذجية صالحة لبناء ثقافات الأفراد والتأثير فيهم لا بد أن تكون المرجعية الأولى للقرآن الكريم وهذه المرجعية تقوم على الاعتبارات التالية:

١- شمولية النظرة للقرآن الكريم.

٢- الاهتمام بالسياق.

٣- الفقه الواقعي للقرآن الكريم.

٤- الاهتمام بالتفسير الموضوعي والإكثار من التأليف فيه.

٥- الاهتمام بإيصال المنهج القرآني الصافي إلى غير العرب.

٦- الاهتمام بعلوم اللغة العربية ودلالات الألفاظ بوصفها منطلقاً مهماً في تفسير القرآن الكريم.

٧- الاعتماد على السنة الصحيحة فقط في تفسير القرآن بالمأثور وأن تكون تلك الأحاديث صالحة لتنطبق على تفسير الآية المراد تفسيرها متناسبة معها.

٨- اتخاذ الموقف الحازم واللائق إزاء ما داخل كتب التفسير من الشوائب المعيقة لفهم القرآن وتحذير الناس من خطرها وتوضيح كيفية التعامل معها.

---

[1]- ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أحمد، مقدمة في أصول التفسير، ص٦٢.

[2]- ينظر: يعقوب، طاهر محمود محمد، أسباب الخطأ في التفسير، دار ابن الجوزي، ط١، ج١، ص١٩٤.

المبحث الثاني

أثر البيئة الاجتماعية والفكرية في الصرف عن فهم القرآن الكريم

لقد تم الحديث في المبحث السابق عن أثر البيئة الثقافية والتعليمية في الصرف عن فهم القرآن الكريم، وفي هذا المبحث سيتواصل الحديث حول أثر المجتمع والبيئة الفكرية في تعامل الإنسان مع القرآن الكريم.

إن الإنسان منذ ولادته يبدأ بالتأثر بالبيئة الاجتماعية التي تحيط به، فهو نتاج أسرة تتكون من أفراد ينتهجون طريقة معينة في التعامل معه، وهو ابن مدرسة يتأثر بأساتذته وأقرانه، ثم هو ابن مجتمع واسع يتأثر بالأنماط والعادات السائدة في مجتمعه. ومن هنا جاء قول رسول الله ﷺ : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"[١].

إن المجتمع المحيط بالفرد على اختلاف أشكاله لا بد أن يصبغ الفرد بصبغته الاجتماعية والفكرية، فمن عاش في مجتمع غربي يتأثر به ويصقل فكره في ضوئه، فنراه يستقل عن أسرته ويفعل ما بدا له دون اعتبار لحسيب أو رقيب، والذي يعيش في بيئة إسلامية يُلمس فيه الميل إلى العادات الإسلامية والميل إلى اتخاذ ضوابط معينة، وإن لم يكن ملتزماً بأحكام دينه حق الالتزام، ولا شك أن للمجتمع أثراً في بناء الفكر؛ فالمجتمع الذي يسوده التعسف والقمع ينشئ – في الأعم الأغلب– أفراداً تقليديين، يخافون من الصدع بالحق ومواجهة الباطل، والمجتمعات المتحضرة التي تعطي كل ذي حق حقه تعد بيئة صالحة لإنشاء أفراد مبدعين مفكرين قادرين على الموازنة والوصول إلى الحقيقة.

فمن البدهي أن يكون للبيئة الاجتماعية والفكرية أثر في تحديد آلية التعامل مع القرآن الكريم، فالمجتمعات المتخلفة التابعة لغيرها تنشئ أفراداً مقلدين يتمسكون بتراث الآباء والأجداد دون أن يكون لديهم القدرة الفكرية على تمحيص ما ورثوه وقياسه بميزان الحق والباطل، فنراهم يقولون ما دام الأغلب قال ذلك فليس لنا إلى مخالفتهم من سبيل، وإن كان الأغلب قد جانب الصواب فيما قال.

ويتلخص أثر البيئة الاجتماعية والفكرية في الصرف عن فهم القرآن الكريم بما يلي:

أولاً: التقليدية في الفهم:

إن من ميزات المجتمعات التي يغلب عليها ترابط الأواصر ولحمة العلاقات أن يتأثر الأفراد بعضهم ببعض، فالولد يتأثر بأبيه، والبنت بأمها، والتلميذ بأستاذه، والخليل يتأثر بمن يخالل، وهذا

---

[١]- أخرجه البخاري: الصحيح الجامع، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥.

التأثر أمر صحي إيجابي إذا دل على الخير ودفع إلى الفضيلة، وإذا لم تذب شخصية من تأثر فيمن يؤثر، وما كان غير ذلك فهو التقليد الذي يطمس الشخصية، ويحجم الفكر، ويسيطر على ملكات الإدراك وأدوات التفكير.

والتقليد لغةً: يعني إحاطة شيء بشيء وسيطرته عليه، وقد سميت القلادة بذلك لإحاطتها بالعنق، يقال قلّد الماء في الحوض إذا جمعه فيه[1].

والتقليد في الدين يعني اتباع علماء الدين ورجاله في كل ما دأبوا عليه أو مالوا إليه من غير دليل ولا رأي يتحرى، يقول صاحب المنار: (المراد منه اتباع بعض الناس لمن يعظمه أو يثق به أو يحسن الظن فيه من غير ما يخالفه أحق هو أم باطل، وخير أم شر، ومصلحة أم مفسدة)[2].

ولا يكون التقليد بمعناه المذموم إلا بانتفاء الدليل والاتباع الأعمى ممن يقلّد لمن يقلّد، يقول الإمام الرازي في بيان حقيقة التقليد المذموم: (إنك إذا قلدت من قبلك، فذلك المتقدم كيف عرفته؟ أعرفته بتقليد أم لا بتقليد؟ فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد، لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفاً له، فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوته إلى نفيه فيكون باطلاً)[3].

لقد ذم القرآن التقليد أي ذم! ونعى على المقلدين أشد النعي في أكثر من موضع، قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ" (البقرة:١٧٠)، وقال: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ" (المائدة:١٠٤) شبه القرآن الكريم أولئك الذين يسيرون على دأب آبائهم بغير هدى ولا علم بالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، والمعنى كالراعي الذي ينادي على الماشية دون أن تعي نداءه، قال تعالى: "وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (البقرة:١٧١).

---

[1] ينظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٤١٢ .

[2] رضا، محمد رشيد، المنار، ج١٢، ص٨٢.

[3] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٥، ص٧.

ومن الواضح أن أولئك المقلدين لآبائهم وأجدادهم من المشركين يقلدونهم على غير تعقل ولا علم بما هم عليه من الباطل، بل إن منهم من عبد أحبارهم ورهبانهم واتخذوهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: "ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ" (التوبة:٣١) مع أن كثيراً من أولئك الأحبار والرهبان يصدون عن سبيل الله ويأكلون أموال الناس بالباطل، قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ" (التوبة:٣٤) وفي بيان أن أولئك المقلدين ساروا على درب أسلافهم من غير نهج يحتذى قال تعالى: "أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ" (الزخرف:٢١-٢٣) ولم يقفوا عند هذا الحد بل بلغت بهم الوقاحة والصلف أن أصروا على كفرهم اتباعاً لموروثات آبائهم، قال تعالى: "قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ" (الزخرف:٢٤) وقد وصل بهم الأمر أن نسبوا فعلهم الفاحشة لما وجدوا عليه آباءهم وذكروا أنهم فعلوا ذلك استجابة لأمر الله قال تعالى: "وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ" (الأعراف:٢٨).

إن الغرض من ذكر هذه الآيات بيان أن الكافرين انصرفوا بتقليدهم الأعمى عن إجابة دعــوة الحق فلم يؤمنوا بها، ولم يتركوا لها مجالاً لتنفذ إلى عقولهم وتأخذ مكانها في قلوبهم.

ولسائل أن يسأل كيف يمكن أن تنطبق تلك الآيات على أبناء أمة الإسلام؟ للإجابــة علــى هــذا التساؤل لا بد من التنويه على أن القرآن ليس حكراً على أحد، ولا على زمان أو مكان محددين، وأن العبرة في الغالب بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإذا كان الله تعالى قد ذم الكافرين بسبب تقليــدهم فدخول المنتسبين إلى الإسلام من المقلدين بالذم أولى إذ هم الذين أقروا برسالة السماء فالأولى بهم أن يلتزموا بها كما يريد منزلها بعيداً عن التقليد الأعمى، فإن قال قائل: كيف يعد التقليد صارفاً عن فهــم القرآن الكريم؟ كان الجواب: أن تدبر القرآن وفهمه يقوم على إطلاق أدوات الحس وإثــارة الدافعيــة للتفكر والبحث عن الحقيقة، وإن المقلد الذي يأخذ كل شيء مسلّما ويصادق دون وعي وإعمال فكــر على كل ما يسمع ينصرف بلا شك عن فهم القرآن الكريم.

ومن أهم مظاهر صرف التقليد عن فهم القرآن الكريم ما يلي:

١. التأثر التبعي:

وهو باعث مهم على التقليد ويقصد به التأثر بالأشخاص الناجم عن الحب الشديد لهم والتعلق المفرط بهم مما يسلب المحب إرادته وفكره، فيتماهى فيمن يحب، ويصوغ رأيه وفق رأيه حتى لو كان رأي المتبوع مجانباً للصواب بعيداً عن حقيقة الوحي الذي أنزله الله تعالى، وغالباً ما يكون من قبــل الضعيف للقوي الذي غلبت سيطرته عليه، قال تعــالى: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ" (البقرة:١٦٥)، ذكر المفسرون في الأنداد الذين يحبهم أولئــك المقلّــدون ويَتبعُونهم أقوالاً عدة منها: ما ينطبق على أولئك الذين يتخذون دينهم وقرباتهم من أولئك المشايخ الذين يعلمونهم حتى لو كان رأيهم بعيداً عن الدليل، يشير صاحب المنار إلى هذا المفهوم بقوله: (وأما القسم الآخر من الأنداد فهو من يُتّبع في الدين من غير أن يكون مبيناً للناس ما جاء عن الله تعالى ورسوله فيُعمَل بقوله وإن لم يُعرف دليله، ويُتخذ رأيه ديناً واجب الاتباع وإن ظهر أنه مخالف لما جاء عن الله ورسوله اعتماداً على أنه أعلم بالوحي ممن قلدوه دينهم، وأوسع منهم فهماً فيما نزّل الله تعالى)[١].

[١] - رضا، محمد رشيد، المنار، ج٢، ص٥٤.

وهذا ما يلمس بكثرة بين عامة الناس الذين لا يعرفون عمن يأخذون دينهم، ولا يستطيعون تمييز الغث من السمين من أقوال من يستمعون إليهم.

إن اتباع الأشخاص وحبهم يورث طاعتهم والثقة العمياء بهم وكما قيل إن المحب لمن يحب مطيع. ويعد التقليد الناشئ عن التأثر التبعي والحب غير المنضبط للأشخاص صارفاً قوياً عن فهم القرآن الكريم، فإن التابع يقرأ القرآن بعين متبوعه ويفهمه بعقله فيصير مسلوب الإرادة فاقد القدرة على الفهم والإدراك. وهذه ظاهرة اجتماعية ملموسة في كافة العصور التي ساد فيها ضعف أمة الإسلام ووسد الأمر إلى غير أهله حيث غابت القدوة الحسنة، وعطل المنهج القويم.

ولا شك أن جزءاً كبيراً من المسؤولية يقع على عاتق المتبعين الذين حملوا على عاتقهم زمام التربية والتعليم فقد كان من الأجدر بهم أن يحفزوا من يعلمونهم ويربونهم على استخدام عقولهم في الأخذ والرد عنهم وتحفيزها على الاجتهاد وعدم القطع بأن ما يأخذونه عنهم هو الفهم الصحيح الذي لا يجوز مخالفته خاصة وإن كان ذلك الفهم يعتمد على دليل يحتمل فهوماً شتى؛ لذلك فحينما يعترض أولئك المتبعون على إضلال من اتبعوهم لهم بقولهم: "رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِ" (الأعراف:٣٨)، يجيبهم الله تعالى بقوله: "لِكُلٍّ ضِعۡفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ" (الأعراف:٣٨)؛ ذلك أن على المتبعين جريرة التقليد الأعمى واتباع الضلال، وعلى المتبعين جريرة الضلال والإضلال.

إن الإسلام دين الفكر واستعمال العقل؛ لذلك كثرت الآيات المختومة ب(لعلكم تعقلون)، (لعلكم تتفكرون)، (إن في ذلك لآيات لأولي النهى). يقول الأستاذ العقاد مؤكداً هذه الفكرة: (الدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة ... ولن يتجه الخطاب القرآني إذاً إلا إلى عقل الإنسان حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب)[1].

فالإسلام دين حرية الفكر والانقياد إلى الله تعالى ورسوله بوحي منه سبحانه.

٢- التعصب المذهبي:

ويقصد به الولاء التقليدي الجامد غير المنضبط بدليل لمذهب فكري أو فقهي أو عقدي حيث يرى المتعصب الرأي الصواب والقول الفصل فيما تعصب إليه وأن ما سواه باطل يجب دحضه. والفرق

[1]- العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، دار الكتب العربي، بيروت، ط٢، ص٢١.

بين التأثر التبعي والتعصب المذهبي أن الأول تقليد واتباع لأشخاص، أما الثاني فهو تقليد لفكرة وحمل لها دون تمحيص أو تحقق.

ومما يؤكد أن التعصب المذهبي ذو بعد بيئي اجتماعي فكري أنه غالباً ما ينجم عن التربية التي درج عليها الفرد في مجتمعه، يقول الأستاذ بكار: (وكثيراً ما يكون الدافع قهرياً لا حيلة للمرء فيه[1] حين تكون التربية الاجتماعية المتوارثة قائمة على رؤية للأشياء والأحداث والأفكار ذرية، وهذه الرؤية تكون في الغالب عاجزة عن إبصار القضايا الكلية وعقد الموازنات ورؤية الألوان المتعددة، وحين تستمر تلك التبعية فترة طويلة من الزمن فإنها تنشئ مرضاً خطيراً للغاية هو التركيب العقلي الأحادي الذي يكون في العادة عاجزاً عن الاستفادة من أكداس المعلومات المتاحة له؛ لأنه يمتص ما يغنيه انحرافاً لا ما يعدله ويصححه)[2].

ومن أهم أسباب التعصب المذهبي ما يلي:

١- غياب المنهجية الصحيحة في النظر والاجتهاد مما يؤدي إلى تسليم غير المتعقل لأهل العلم وإن لم يكونوا على بصيرة أو جانبوا الصواب في آرائهم.

٢- ضعف الوعي وغياب القدوة الحسنة التي تبصر الناس بكيفية أخذ العلم وضوابطه.

٣- التخصصية المذهبية في التعليم، ففي كثير من البلدان نرى مساجد تعتمد في إقامة الشعائر فيها على ما ورد في المذهب الحنفي أو الشافعي مثلاً، كما نرى كثيراً من دور العلم تتصبغ بالطابع الفكري والعقدي للمسؤولين عنها، فالشيعة يتخصصون في تدريس ونشر مذهبهم بعيداً عن الإنصاف والاعتراف بالحق لأهله، وهذا أيضاً ينطبق على كثير من أتباع المذاهب ممن يتصدون لتعليم تفسير القرآن الكريم، مما يؤدي إلى تفرق الناس شيعاً متناحرين يلتمس كل منهم المحاذير لغيره ويتصيد له العثرات، وكثيراً ما يلقي بظلاله على طريقة التعامل بين أفراد المجتمع الواحد، فتابع حزب ما مثلاً يكيل التهم والنقد اللاذع لمن ينتمي إلى حزب آخر ... وفي أمثال أولئك يقول تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ" (الإنعام:١٥٩) ويقول: "فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ" (المؤمنون:٥٣) ولا يقصد بذلك مجرد

---

[1]- وهذا لا ينافي كون المرء محاسباً عن أعماله وقراراته، فقد وهب الله العقل للإنسان ليحكم به على الأشياء ويميز الحق من الباطل وفق تعاليم الإسلام الصحيح فلا عذر له إذاً في اتباع العادات الموروثة والتعصب للضلال

[2]- بكار، عبد الكريم، فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم دمشق، ط٤، ٢٠٠٥م، ص١٨٦.

الخلاف الذي لا يفسد للود قضية ويقوم على الخلاف في فهم الدليل إنما المقصود الخلاف الذي لا ينبثق عن بينة ويتشبث المتخالفون فيه برأي ضعيف، لا همّ لهم إلا دحض حجة الفريق المقابل وإبطال رأيه، يقول الإمام الشوكاني –رحمه الله– موضحاً خطر ذلك النوع من التقليد في الصرف عن فهم تعاليم وتشريعات القرآن: (وأما مجرد الدعاوي والمجازفات في شرع الله تعالى فليست بشيء ولو جازت الأمور الشرعية بمجرد دعاوى لادّعى من شاء ما شاء، ولقال من شاء ما شاء)[1].

ومما يوضح أن التعصب المذهبي صارف عن فهم القرآن أن المتعصب يعتمد في فهمه لآي القرآن على الرأي لا على الرواية فيسقط رأيه على الفهم الذي توصل إليه، وهذا ما نلاحظه في تفسيرات كثير من الشيعة الباطنية والذين ينطلقون في تفسيراتهم من أن للقرآن ظاهراً وباطناً، كما أنهم يعظمون مشايخهم وذلك ملحوظ عند الشيعة الإمامية الذين يقولون بأن ولاية الإمام تمثل الجانب الباطني للنبوة[2].

يقول الإمام الغزالي في توضيح انعكاس التعصب المذهبي على رأي صاحبه مما يصرفه عن فهم حقيقة الدليل ويعمي بصيرته عن الصواب: (فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين له بطلان مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو يخالف معتقد آبائك؟... ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها كثير من الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم)[3].

٣– أمية العقل وإمعية التفكير:

وهذا مظهر خطير من مظاهر التقليد الذي من شأنه أن يصرف عن فهم القرآن الكريم، ومعنى أمية العقل: عدم قدرته على التمييز والاجتهاد فكأنه في مرحلة الطفولة المبكرة لا يعتمد إلا على ما يتلقاه، وأما إمعية التفكير فهي نتاج متحصل عن أمية العقل، وتعني: التقليد الأعمى والتأسي غير المنضبط بالآخرين من غير تمييز لما هم عليه من حق أو باطل، وهذا ديدن من يقبل ما يلقى إليه بالتسليم المحض دون تفكير أو مساءلة، ويسارع إلى التطبيق حتى لو كلفه ذلك ما لا يطاق من المشاق. وأمثال هؤلاء موجودون في كل أمة وفيهم يقول تعالى في حديثه عن أميي أهل الكتاب:

---

[1]- الشوكاني، علي بن محمد، إرشاد الفحول، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط١١٩٣٧، ص ٢٦٩.

[2]- ينظر: ابن حيون، النعمان التميمي، أساس التأويل، تحقيق: عارف تامر، دار الثقافة، لبنان، ص٣٠، ص٤١.

[3]- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج١، ص٢٥٧.

"وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ" (البقرة:٧٨)، ومعنى الآية: أنّ من أتباع الكتاب أناس عوام جهلة لا يعلمون من الكتاب إلا ما يمليه عليهم علماؤهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلزمون أولئك المساكين باتباعه، ويحثونهم على ذلك بأباطيل كاذبة وخرافات ليس لها أصل ولا تقوم على حجة ولا برهان[١].

وفي أمثال أولئك الأميين يقول رسول الله ﷺ : "لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن!"[٢].

يوضح الغزالي أن أمية العقل من مخلفات البيئة الاجتماعية والفكرية وأنها نوع من التقليد الصارف عن تدبر القرآن وفهمه، فيقول: (والأمية العقلية تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق وحسن تسخيرها ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه)[٣].

ومن مظاهر هذا النوع من التقليد في المجتمعات مضاهاة غير المسلمين في ملبسهم ومأكلهم وأنماط حياتهم والاحتفال بمناسباتهم الدينية والتراثية كعيد الميلاد، والفصح، والنيروز، وشم النسيم، وحتى في تعاملنا مع ديننا بفصل الدين عن الدنيا والحياة العامة، وهذا ما يعكس تخلف الأمة وتبعيتها الزائفة العمياء لأهل الباطل وقادة الضلال ضاربة عرض الحائط بأمجادها ومنهجها الذي صنع أمة وحقق شهوداً حضارياً لم يعرف له التاريخ نظيراً[٤].

من هنا كان لا بد من فهم القرآن الكريم وفق ما يحقق التميز للأمة الإسلامية ويؤهلها لقيادة العالم.

٤- اتباع الظن :

يعد اتباع الظن مظهراً من مظاهر التقليد، حيث إنه لا يستند إلى دليل، ويعتمد على موروثات ومعتقدات وتعاليم تتبع من غير دراية ولا رواية.

---

[١]- ينظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج١، ص٣٥٨.

[٢]- أخرجه البخاري: الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٥٦.

[٣]- الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن ، ص١٤.

[٤]- ينظر: العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، ص١٧٤-١٧٥.

والظن يعني: الشك، وهو متأرجح بين القرب لليقين والبعد عنه، فإذا قل قرب من اليقين، وإذا زاد بعد عنه.

لقد ذم الله تعالى أولئك الذين يقيمون عقائدهم على اتباع الظن بغير دليل ولا هدى، قال تعالى في سياق الحديث عن المشركين وبيان أن عبادتهم قائمة على هوى في نفوسهم: "إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ" (النجم:٢٣).

ومن الملاحظ أن غالب الآيات التي تتحدث عن ذم اتباع الظن جمعت بين أمرين:

الأول: إثبات نشوء معتقد متبعي الظن عن هوى في نفوسهم وعدم رسوخ معتقدهم فهو قائم على غير علم، قال تعالى: " وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" (الزخرف:٢٠).

والثاني: أنه اقترن بضده بمعنى أن الله تعالى أعقب اتباع الظن بذكر بديله وهو الأساس المتين والركن الركين الذي يجب أن يستند إليه وهو العلم اليقيني المنبثق عن دليل وقوة حجة وبرهان؛ لذلك قال تعالى بعد أن ذكر أنهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس: "ولقد جاءهم من ربهم الهدى" وقال في آية أخرى بعد ذمهم: " وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ" (يونس:٣٧)، وفي عرض بيان أن الظن ناشئ عن تقليد موروثات الآباء والأجداد قال تعالى في شأنهم: "أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ"(الزخرف:٢١-٢٣).

إن اتباع الظن لا يقل أثره على العقل عن غيره من مظاهر التقليد الأخرى، فهو يعطل قدراته على التمييز بين الحق والباطل، ويسلبه وظيفته في المحاكمة والاسترشاد، فالعقل السليم البعيد عن الهوى والتقليد لا يقبل شيئاً على وجه التسليم، ولا يبني فكره إلا على برهان، من هنا كان اتباع الظن صارفاً عن فهم القرآن الكريم، يقول صاحب المنار في تأويل قوله تعالى: "وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا"(يونس:٣٦) أي: (من الإغناء ولو قليلٌ أي: لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون الظن بدلاً من اليقين في شيء يطلب فيه اليقين كالدين، فإن الحق هو الأمر المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يزلزل ويزول إذا عصفت به عاصفة الشبهات... واستدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقاديات وأن إيمان المقلدين غير صحيح)[١].

يتبين مما سبق أن التقليد يعد آفة عضالاً من شأنها أن تؤزم الفكر، وتودي بطاقات العقل، وتقف في طريق فهم القرآن وفق ما يحقق تقدم المجتمعات ورقيها[٢]؛ لذلك فلا بد من تضافر الجهود لبث التوعية، والدعوة إلى الطريقة الصحيحة في التمحيص والتفكير وتكوين الرأي، وذلك من خلال عقد الدورات والاهتمام بذلك في أسلوب التربية والتعليم.

ثانياً- تقديس التراث:

يعد التراث من الركائز الرئيسة للحضارات التي تقوم عليها كل أمة، فموروثات الماضي من مؤلفات في مختلف العلوم والميادين تشكل محصولاً للتراث العلمي والفكري الذي تفتخر به كلّ أمة إذ هو نتاج ما وصلت إليه من الرقي والتقدم، فمن لم يكن له خير في ماضيه فلا خير له في حاضره ولا مستقبله.

والتراث هو ما نقله اللاحق عن السابق من معارف معنوية أو أشياء مادية، وهو مشتق من الفعل ورث، قال تعالى: "وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا" (الفجر:١٩).

١-رضا، محمد رشيد، المنار، ج١١ ص٣٦٤.

٢- ينظر: بكار، عبد الكريم، فصول في التفكير الموضوعي، ص١٩٢-١٩٣.

وفي معنى التراث يقول الأستاذ بكار: (نعرّف التراث بأنه: مجموعة عطاءات الآبـــاء والأجـــداد على المستوى الروحي والمادي عبر تفاعلهم مع الدين وضمن خضوعهم لقيود الزمان والمكان اللذَين تم الإنجاز فيهما)[١].

إن التعامل مع تراث الآباء والأجداد مما كتبه العلماء السابقون سلاح ذو حدين؛ فهو يسهم في رقي الأمة وتحضرها من جهة، وفي تحجيم فكرها وحصرها في بوتقة الماضي وتخلفها وتراجعها عن ركب الحضارة والتقدم من جهة أخرى، وهذا يختلف باختلاف النظرة إلى التراث التي تستمد غالباً من المجتمع وتلقي بظلالها على الفكر، فإذا درج في المجتمع أنّ الأول لم يترك للآخر شيئاً، وأنّ الخلـــف ليسوا إلا عالة على السلف، فهذا هو التقليد الذي يورث الفكر ضيق الأفق وعدم القدرة على الاجتهاد.

من هنا يتبين أنّ النظر إلى التراث بعين القداسة يعدّ صارفاً من صوارف فهم القرآن الكريم، يقول الغزالي في بيان أثر تقديس التراث في الصرف عن فهم القرآن الكريم: (وقد يكون المفسر قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة)[٢].

وإذا ذُكر التراث الذي يشكل تقديسه صارفاً عن فهم القرآن الكريم قصد به تلك المؤلفات التي كتبت في علوم القرآن وتفسيره وأصّلت له، هذا ولا يعد الكتاب والسنة من التراث إذ لا قداسة إلا لهما.

ومن صور صرف تقديس التراث عن فهم القرآن الكريم:

١- تقديم ما ورد في تفسير القرآن الكريم من أقوال لأعلام المفسرين واتخاذها منهجاً منضبطاً في تأويل آي القرآن حتى لو تعارضت مع صريح مدلول النص القرآني، ويدل ذلك على ضعف الاعتماد على العقل في الوصول إلى الحقيقة مما اضطر أولئكم إلى التشبث بكل ما ينقل إلـــيهم دون تحـــرّ أو تحقق، وفي ذلك يقول الغزالي: (هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث، ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة، ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين، ثم هجروا أقوال المقلدين وتزمتهم إلـــى الجهـــال وتخبطهم)[٣].

---

[١]- بكار، عبد الكريم، من أجل انطلاقة حضارية، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠١م، ص٣٠.

[٢]- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج١، ص٢٥٨.

[٣]- الغزالي، محمد، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٥، ١٩٦٥م، ص٤٦.

ومثال ذلك قولــه تعــالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الحج:٥٢)، يـــذكر الدكتور نوفل في كتابه الذي يدور حول معنى هذه الآية أن معظم المفسرين ينحون فـي هـذه الآيـة منحى مغايراً لحقيقة معناها وواقعية دلالتها، مستشهدين بسبب نزول لا يصح الاعتماد عليه لكونه من الروايات الموضوعة التي دست في تفسير تلك الآية ومفادها: (أن رسول الله ﷺ جلس يوماً في نادٍ من أندية قريش كثير أهله، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفر عنه، فأنزل الله عليه: " وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ"(النجم:١-٢)، فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلـغ: "أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ" (النجم:١٩-٢٠) ألقى الشيطان كلمـة: تلـك الغرانقـة العلـى، وإن شفاعتهن لترجى، فتكلم بها ثم مضى، فقرأ السورة كلها فسجد في آخرها وسجد القوم جميعـاً معـه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود، فرضـوا بما تكلم فلما أحس أتاه جبرائيل -عليه السلام- فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتـين ألقـى الشيطان عليه بهما قال ما جئتك بهاتين! فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت عليه ما لم يقـل، فما زال رسول الله ﷺ مغموماً مهموماً حتى نزلت الآية)[١].

ومع أنّ العديد من المفسرين يميلون إلى أن تلك الرواية ساقطة لا يصلح الاستدلال بها إلا أن اللاحق منهم يقتفي أثر السابق ويسير على خطاه دون تمحيص أو رجوع لأصـل اللغـة أو المعنـى الواقعي للآية.

وفي توضيح مفهوم الآية يسوق الدكتور أحمد نوفل المعاني المختلفة التي وردت فـي كتـب اللغة للتمني، فهو يعني: حديث النفس بالشيء مع الرغبة فيه وحبه وتشهي حصـوله، وينقـل عـن صاحب اللسان أنها بمعنى تلا من التلاوة[٢].

وبعد أن ذكر أقوال المفسرين المختلفة في معنى الآية وسبب نزولها ونـاقش تلـك الأقـوال وحللها خلص إلى القول: (في ضوء سياق سورة الحج واستقراء اللفظة في القرآن والتفاسير الأصولية

---

[١]- الطبري، جامع البيان، ج ١٧، ص ٢١٩-٢٢٠.

[٢]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، باب الميم، فصل الياء.

الأصلية المعتمدة صريح النقل وصريح العقل نجد أن التمني لا يخرج عن معناه المشهور والمتبادر في اللسان وفي السياق سيان، وهو ترجي إسلام القوم وهدايتهم، ولكن الشيطان الذي نذر نفسه وجندها لحرب كلمة الله ودعوته وقف للمدعوين بالمرصاد يثير في عقولهم الشبهات وفي أنفسهم الشهوات ليصدهم عن سبيل الله ودعوة أنبيائه، لكن الله الذي كتب لرسوله الغلبة ولكلمته التمام وللحق الظهور والبقاء أزهق وساوس الشياطين وأظهر دعوة رسله وخاتمهم وذهب الزبد جفاءً وانتشرت شمس الحق واندحرت جيوش الظلام... أما أن يتمكن الشيطان من الوحي ومن رسول الله فهذا وهم المبطلين)[١].

كما يؤكد الدكتور أنه ليس بالضرورة أن تنطبق جميع المعاني الواردة في كتب اللغة للكلمة على تفسير الآية بل يؤخذ منها ما يتناسب مع السياق والواقع.

٢- تأويل آي القرآن الكريم على غرار المذاهب الفقهية حتى لو جانب مدلول الآية وسياقها وفقه الواقع:-

ومثال ذلك ما ورد في تأويل قوله تعالى: "وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا" (النساء:٤٣) من أن عدم وجود الماء مسوّغ للتيمم بالنسبة للمريض، أو المسافر، أو المحدث حدثاً أصغر أو أكبر، ومعنى ذلك: أنه لا يجوز للمسافر أن يتيمم مع وجود الماء، والصحيح الذي يتناسب مع ظاهر النص القرآني أن التيمم رخصة للمريض والمسافر حتى لو وجد الماء لحصول المشقة باستخدامه، وإن قيد "فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً" خاصاً بالمحدث حدثاً أصغر أو أكبر لأن المحدث هو الذي يلزمه استخدام الماء لإزالة حدثه، فعدم وجود الماء مسوّغ لهما للتيمم، ولو عددنا جواز التيمم للمريض أو المسافر مقروناً بعدم وجود الماء لما كان لتخصيصهما بالذكر وجه، يقول صاحب المنار بعد أن ذكر هذا القول في رده على جمهور المفسرين والفقهاء فيما نقله عن الأستاذ الإمام: (المعنى: أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المحدث حدثاً أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط، هذا ما يفهمه القارئ من الآية نفسها إذا لم يكلف نفسه حملها على مذهبٍ من وراء القرآن يجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه، وقد طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً فلم أجد فيها غناء ولا رأيت قولاً فيها يسلم من التكلف، ثم رجعت إلى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحاً جلياً، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه وأظهره، وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية مفرداتها وأساليبها إلى تكلفات فنون النحو وغيره من

---

[١]-نوفل، أحمد إسماعيل، إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، دار الفضيلة- عمان، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦٧-١٦٨.

فنون اللغة عند حافظي أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة – إلى آخر ما أطال به في الإنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقاً ظاهراً)[١].

يفهم من قول الأستاذ الإمام أن العمدة في تأويل القرآن الأصل أن يكون القرآن نفسه، وأن ما كتب في تفسيره يساعد في فهمه وفق مدلولاته ولا يعد حكماً عليه.

إن مقولة ما ترك الأول للآخر شيئاً من شأنها أن تورث التقليد لفكر الأمة، وتغلق باب الاجتهاد، وتطعن في صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان، والصحيح القول إن الأول قد ترك للآخر كثيراً من الكنوز المدفونة في آي القرآن الكريم ومن العلوم والمفاهيم التي تتطلبها العصور اللاحقة والتي لا يمكن التوصل إليها إلا بإعمال الفكر، وطول التدبر، وإحسان الفهم لآي القرآن الكريم.

وقد يسأل سائل: ما الطريقة المثلى للتعامل مع التراث التفسيري للقرآن الكريم؟

والجواب: إن التراث التفسيري الضخم الذي أتحفنا به أعلام المفسرين يعد ركيزة مهمة في فهم القرآن الكريم، إلا أن الناظر في كتبهم يجب عليه أولاً أن يضع نصب عينيه أنهم رجال قد يصيبون وقد يجانبون الصواب، فلا يأخذ ما أثر عنهم مسلمات لا يمكن الاعتراض عليها أو مناقشتها، كما لا يجوز له بالمقابل أن يقفز عما أبدعوه من مؤلفات في تفسير القرآن الكريم ويضربوا به عرض الحائط إلا إذا خالف صريح دلالات آي القرآن وحاد عن مقاصده، يقول الغزالي: (فالقضية مفزعة أن يكون التراث الذي يشكل في الأصل مفتاحاً لفهم القرآن والسنة أو لاستجماع فهوم الآخرين وكيف كانوا ينظرون للقرآن والإفادة من فهومهم بإخصاب الرؤية في العودة للقرآن يصبح حاجزاً يحول بين المسلمين وبين مصادرهم الأساسية، وكون تلك الفهوم تأخذ شيئاً من القدسية، فهذا يعني أنه ضرب بليل طويل بين المسلمين والقرآن، وقد يكون الوجه المقابل والأخطر القفز فوق التراث ومحاولة الاتصال بالكتاب وتقرير الأحكام دون تحقيق للشروط المطلوبة لذلك)[٢].

وهذا يدل على أنّ الإسلام أرسى قواعد النظر الواعي أمام العقول، وفتح الباب أمام أولي النهى لإعمال فكرهم والإدلاء بما وصلت إليه أفهامهم من جراء تدبر القرآن، إلا أنّ المرجعية العليا في تقييم ما وصلوا إليه لا تكون إلا للكتاب والسنة؛ لذلك قال تعالى راداً على أولئك الذين يتبعون

---

[١]- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج٥، ص٩٧.

[٢]- الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، ص١٦٤.

موروثات الآباء والأجداد على غير هدى معلماً إياهم قواعد الأخــذ والــرد: " أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ"(البقرة:٧٠).

ثالثاً- أثر الأسرة والمجتمع في الصرف عن فهم القرآن الكريم:

إن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي لا يمكن أن يعيش بعيداً عن محيطه الذي وجد فيه، ولا شك أن للمجتمع الصغير المتمثل بالأسرة المكونة من الوالدين والأبناء والأخوة، والمجتمع الأوسع المتمثل في الأقران والمدرسة والجامعة ومن ثم الوسط العملي أثراً في صرف الإنسان عن القــرآن الكــريم أو توجيهه إليه.

وسيتم الحديث عن أثر كل من الأسرة والأقران في الصرف عن القرآن الكــريم بوصــفهما ألصق شيئين بالفرد فهما يلازمانه في مختلف أطوار حياته، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

١- أثر الأسرة في الصرف عن فهم القرآن الكريم:

إن الأسرة هي المحضن الأول لكل فرد من أفراد المجتمع، فهي ذلك المجتمع الصغير الــذي ينطلق منه الفرد ويعود إليه، من هنا قالوا إن الأسرة نواة المجتمع فبصلاحها يكون صلاحه، وبفسادها يكون فساده، وإن للوالدين الذين يشكلان عماد تلك الأسرة وقوامها ويتوليان زمام التربية والإنشاء فيها أثراً بارزاً في تحديد موقف أولادهما من القرآن الكريم. فكثيرٌ من الآباء يحرصــون علــى القــراءة اليومية للقرآن ويؤدون الشعائر الدينية فيربون أولادهم على ما دأبوا عليه، فنرى الطفل يقــف إلــى جانب أمه إذا صلّت، ويرافق والده إلى المسجد، ويتأثر بسلوك والديه وأخلاقهما في التعامل مع النفس والغير. وبالمقابل نرى كثيراً من الآباء لا يؤدون الصلاة ولا يقرؤون القرآن ولا يرتادون المســاجد فأنى لأبنائهم أن يتخلقوا بمحاسن الأخلاق ويدرجوا على الخير الذي لم يروه ولم يستشعروه؟!

وليس ذلك فحسب فنراهم يتفاخرون بأنهم يرسلون أبناءهم إلى مدارس تنصيرية أو علمانية فأنى لأولئك الأطفال أن يتربوا على منهج القرآن الكريم؟!

لقد شهد التاريخ والواقع حرص كثير من الآباء والأمهات على رواية قصص القرآن والأنبياء والصالحين لأبنائهم، كما حرصوا على دفع أبنائهم إلى المساجد ودور القرآن الكريم منذ سني أعمارهم الأولى فأنشؤوا نوابغ وعلماء، فها هو الإمام الشافعي يحفظ القرآن وهو صغير، وتصحبه أمه إلى البادية لتعلمه اللغة العربية وآداب العرب، وإلى المدينة ليتتلمذ على يد إمام دار الهجرة مالك بن أنس ويتعلم الحديث والفقه[١].

---

[١]- ينظر: البيهقي، أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، دار التراث، ط١، ١٩٧١، ج١، ص٨٥ و٩٢-٩٣.

وبالمقابل هناك أمهات وآباء يربون أبناءهم على الفسق والكذب وسوء الخلق، ويهملون تعليمهم القرآن وإرسالهم إلى محافل العلم والخير، ومنهم من يحرم ولده تعلم القرآن خشية مخالفة فكره المنحرف، أو ليجيره لخدمته وعونه على تحقيق مكاسب دنيوية زائلة، مما يؤدي إلى نشوء جيل لا يجيد النظر إلى المصحف وقراءة القرآن فكيف له أن يجيد فهمه؟! يقول تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ" (التحريم:٦)، إن وقاية الأبناء من النار من قبل الآباء تكون بدفعهم إلى الخير المتمثل في القرآن الكريم وتعاليم الإسلام.

وحتى يتسنى إنشاء جيل قرآني متميز لا بد من الجمع بين الحفظ والفهم في تعليم النشء القرآن، وتشجيعهم على المساءلة وإعمال عقولهم للوصول إلى الحق والاستيضاح حول ما لا يمكنهم فهمه من آي الذكر الحكيم، ولا مانع من استقدام من يدرس القرآن الكريم للأبناء وعقد حلقات أسرية أسبوعية لتدارس القرآن بما يتناسب مع طبيعة المرحلة العمرية للأبناء، قال رسول الله ﷺ :"من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان لا تقوم بهما الدنيا فيقولان : بما كسينا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن"[١].

٢- أثر الأقران في الصرف عن القرآن الكريم:

لا غنى للمرء عن صاحب يشد أزره ويعينه على مواصلة طريقه في حياته، قال تعالى: "ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ" (الزخرف:٦٧)، هذه الآية تبين أن الأقران نوعان: فإما أن يكون قرين خير يدعو إلى الهدى ويستميل إلى سبيل الرشاد فيحشر مع قرينه في زمرة المتقين، وإما أن يكون قرين سوء يصد عن سبيل الله ويصرف عن الهدى وينفر خليله من قبول الحق الماثل في القرآن فلا ينفعه ولا ينتفع به يوم القيامة، قال تعالى: " فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ" (الصافات:٤٩-٥٦)، وقد ذكر القرآن أثر صاحب السوء في الصرف عن الذكر المتمثل في هدي القرآن الكريم قال تعالى: "وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ

---

[١]- أخرجه الحاكم، المستدرك على الصحيحين وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م،

باب ذكر فضل سور وآي متفرقة، رقم ٢٠٤٢.

يَـٰلَيۡتَنِى ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِى لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِلۡإِنسَـٰنِ خَذُولاً" (الفرقان:٢٧-٢٩)، ومعنى (أضلني عن الذكر): أي صرفني عن الهدى والإيمان، و(الذكر) آي القرآن الكريم الذي يمثل هدايات الله تعالى[1].

ومما يؤكد أن رفاق السوء قد يسهمون في الصرف عن فهم القرآن أن هذه الآيـات أتبعـت بشكوى رسول الله ﷺ من قومـه، قـال تعـالى: "وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا" (الفرقان:٣٠).

قالوا قديماً الصاحب ساحب فكم من شاب نشأ في طاعة الله وتعلق قلبـه بالمسـاجد فـابتلي بصاحب سوء فلم يعد يعرف للمسجد طريقاً وانغمس في الدنيا، وكم من ضال تغير مجـرى حياتـه وسلك طريق الحق بعد أن يسر الله له رفيقاً تقياً مؤمناً؛ وفي توضيح ذلك قال تعالى: "وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَٮٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا" (الكهف:٢٨) وقال رسـول الله ﷺ :"الرجـل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"[2]. ولا شك أن على الوالدين متابعة أبنائهما وتـوجيههم إلـى حسن انتقاء أقرانهم وعدم الاغترار بصاحب السوء فإن المرء قد يتأثر بأقرانـه أكثـر مـن والديـه ومربيه[3].

وحتى تتهيأ بيئة اجتماعية وفكرية مساعدة على الإقبال على قراءة القـرآن وتـدبره وفهمـه يوصى بما يلي:

١- تربية العقل على التدبر والنظر في القرآن الكريم، وعدم قبول ما يلقى إليه على أنه مسلمات لا تقبل الأخذ ولا الرد.

---

[1]- ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١، ص١٤.

[2]- أخرجه الترمذي: سنن الترمذي، باب ما جاء في أخذ المال، رقم ٢٣٧٨.

[3]- ينظر: علوان، عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام، ط ٩، ١٩٨٥م، ج١، ص١٣٣- ١٣٥.

٢- أن يكون المرجع الذي يرتكز عليه في الأخذ والرد الرواية والــدليل لا الــرأي المــوروث والهوى والتعصب المذهبي.

٣- لا قداسة لشيء إلا لكتاب الله والسنة الصحيحة فكل ما ألف في التراث التفســيري يجــب أن يعرض عليهما ويوزن بميزانهما.

٤- الإنصاف في التعامل مع التراث الذي من شأنه أن يسهم في العون على فهم القرآن الكريم بما يرتقي بالأمم، فلا يجوز تقديسه والتسليم بأنه منتهى ما يتوصل به إلى الصواب في فهم القرآن كما لا يجوز تجاوزه والتقليل من شأنه.

٥- لا بد من تهيئة أسرة نموذجية وبيئة اجتماعية صالحة تعين على اتباع منهج الله وتذكي ملكة الفهم الصحيح للقرآن الكريم بعيداً عن التبعية العمياء والتقليد المقيت.

المبحث الثالث

أثر البيئة السياسية في الصرف عن فهم القرآن الكريم

لا شك أنّ سبب الصراع المتجدد بين الأمم وبين أنصار الحق وأنصار الباطل منذ فجر التاريخ يهدف إلى إثبات الكينونة والوجود لكل فريق من الفرق المتصارعة وإن الوجود يقتضي أن يتربع الفريق الفائز على عرش القيادة والحكم ويسوس من يخضع لقيادته ليضمن بقاءه واستمراره وتحقيق هيمنته على البقعة الجغرافية التي استحوذ عليها.

والسياسة هي: القيام بقيادة جماعة ما في بقعة جغرافية من الأرض و تنظيم أمورهم وإدارة شؤونهم[١]. ولا غرو في أن سياسة الأمم ذات أبعاد اقتصادية وإعلامية وعسكرية ذلك أن سياسة الناس تتحقق بتحقيق الهيمنة الفكرية المترتبة على التعليم والإعلام والأمن والانتعاش الاقتصادي والحماية من العدوان ليترتب على ذلك قطعاً الشعور بالأمن النفسي الذي يجعل المسوس يخضع للسائس ويطيع أمره من هنا كان الصراع المتمثل بين قوى الإسلام وقوى الكفر.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ السياسة العادلة التي تفرض هيمنتها بالعدل والإحسان وتعطي كل ذي حق حقه دون تمييز لقوي على ضعيف أو لغني على فقير والتي تتخذ إحقاق الحق وإبطال الباطل منهجاً هي التي تضمن لنفسها الكينونة والدوام طالما استمسكت بمنهج العدل والحق، ومن هنا كان للبيئة السياسية الباطلة والتي سادت وأرست دعائمها إبان ضعف الأمة الإسلامية أثر في صرف المسلمين عن القرآن قراءة وتدبراً وفهماً فإن الصرف عن قراءة القرآن والتوجه إلى منهجه وينبوعه الصافي من شأنه أن يصرف بالمحصلة عن فهمه واتخاذه منهج حكم وحياة؛ إذ إن هدف أهل الباطل أن يحافظوا على وجودهم وبسط نفوذهم ولا يتأتى لهم ذلك إلا بضمان بعد المسلمين عن قرآنهم وتفرقهم شيعاً، ومن أهم مظاهر صرف البيئة السياسية عن فهم القرآن الكريم:

أولاً: الحرب الإعلامية.

ثانياً: الحرب الاقتصادية.

ثالثاً: إظهار العداء للإسلام والتنكيل بأهله.

وسيتم توضيح ذلك على النحو التالي:-

---

[١] ينظر: الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد، دار النفائس، ط١، ١٩٨٤م، بيروت، ص٩.

أولاً: الحرب الإعلامية:-

يعد الإعلام لسان حال الأمم فهو الميدان الذي يعبر فيه كل كيان قائم عن وجوده السياسي والاقتصادي والفكري والثقافي والعسكري وغير ذلك من مجالات الحياة المختلفة، وبدون الإعلام لا تُعرف الأمم ولا تصل الفكرة ولا تنتعش الحضارة، وهو كذلك السلاح المعنوي الذي يشكل إظهاراً لقوى الكيان من جهة وسيفاً مصلطاً على أعدائه من جهة أخرى، لذلك كان للإعلام أثر بارز في إلقاء الضوء على سياسات الأمم ونظمها وكذلك كان له أثر بارز في تحقيق مآربها[١].

والإعلام في اللغة يعني الإخبار: نقول أعلمته بمعنى أخبرته، والإعلام مختص بما كان بإخبار سريع[٢].

والإعلام بمعناه الاصطلاحي: هو التعبير عن الرأي والفكرة وجوانب الحياة المختلفة بما يتاح من الوسائل المحققة لذلك كالوسائل المقروءة والمرئية والمسموعة بغية إيصال الرأي العام للجماهير أو النطق بلسانهم[٣].

وإن المتتبع للحركة الإعلامية في العالم وفي دول العالم الثالث على وجه الخصوص يلاحظ أن الإعلام بمختلف أشكاله وطرق إيصاله يوجه من قبل أرباب السياسة ويخدم أغراضهم ويحقق مآربهم وبما أن الرأي العام الذي يتصدى لإدارة شؤون معظم دول العالم يهدف إلى حرب الإسلام وأهله، وإيقاف مدّه والحيلولة دون وصوله إلى قيادة العالم، فإن الإعلام والحالة هذه يخدم هذا الهدف بالسعي الحثيث والعمل الدؤوب واستنفاذ الطاقات في ابتكار ما يتاح من وسائل صرف الناس عن الإسلام والذي يتمثل في الدرجة الأولى بالقرآن الكريم قال تعالى: "يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ" (التوبة:٣٢)، إن لفظ أفواههم في الآية يشير إلى استخدام اللسان الناطق بالكلمة والقلم لإطفاء نور الله بصرف الناس عن ذلك النور والذي هو كما يراه

---

[١]- ينظر: عبده، عزيزة، الإعلام السياسي والرأي العام، دار الفجر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٤٢.

[٢]- ينظر: الأصفهاني، المفردات، ص ٣٤٨.

[٣]- ينظر: الفتياني، خالد إبراهيم، التفسير الإعلامي لسورة النور، دار طوباس، ط١، ١٩٩٣م، ص٨.

بعض المفسرين أنه القرآن الكريم بما حوى من تعاليم وأسس لبناء الأمم وصناعة الأمجاد والحضارات[1].

ويمكن تلخيص أثر الإعلام في الصرف عن القرآن الكريم قراءة وفهماً من خلال قوله تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ" (فصلت:٢٦).

إن هذه الآية الكريمة تبرز جانبين رئيسين اتخذهما الإعلام سلاحاً في حربه للإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية من لدن آدم – عليه السلام – إلى بعثة محمد ﷺ حيث زاد أوارها وعظم خطرها وهذان الجانبان هما:-

١-"لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ" ويقصدون بذلك إبعاد الجماهير عن السماع للقرآن وبالتالي عن قراءته وفهمه حتى لا يتأثروا به وهذا يؤكد يقين أولئك الكافرين بأن القرآن قادر على استمالة القلوب والعقول للحق وتنبيه داعي الفطرة في النفس، يروى أن كفار قريش كانوا يدعون بعضهم البعض إلى عدم السماع للقرآن الكريم وكانوا يمنعون الصحابة من قراءته في البيت الحرام أو في بيوتهم حتى لا يتسنى لأحد سماعه والتأثر به؛ فقد جاء في كتب السيرة أن عبد الله بن مسعود عزم يوماً أن يكون أول من يجهر بالقرآن ويسمعه قريشاً في المسجد الحرام فصلى وجهر بسورة الرحمن فما كان من صناديد الكفر إلا أن ساموه سوء العذاب وأوجعوه ضرباً على وجهه كل ذلك يؤكد تأثير القرآن على سامعه وتملكه لعقله وقلبه فهم إذ لم يجدوا سلاحاً منطقياً يقاوموا به أثر القرآن بالحجة والبرهان لجأوا إلى سلاح الضعيف المتمثل بالقوة المجردة من الحكمة[2].

ومن صور المنع من سماع القرآن وقراءته في عصرنا هذا أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تغرق في عرض الأفلام والمسلسلات والبرامج التي تعبث بعقول شبابنا وتملأ حياتهم بما فيها من وسائل التشويق والإثارة فيبتعدون عن المساجد ولا ينفقون في قراءة القرآن أو سماعه وقتاً، هذا بالإضافة إلى كثير من المجلات التي تغصّ بالقصص والأخبار المثيرة، ولا يخفى ما للشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وغير ذلك من وسائل الإعلام الحديثة من الأثر في الصرف عن القرآن الكريم، وفي ذلك يقول الله تعالى: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ

---

[1] -ينظر: رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١٠، ص٣٤٢.

[2] ينظر: ابن هشام، محمد عبد الملك، السيرة النبوية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٦٨م، ج ١، ص٣٣٨.

عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ" (لقمان:٦)[١]، إن السبب الكامن وراء انشغال الناس عن القرآن الكريم بما تعرضه وسائل الإعلام أنها تقدم ما يوافق الهوى ويثير الغرائز فتجد الشاب أو الفتاة يفضل مشاهدة برنامج تلفزيوني على حفظ سورة من القرآن الكريم أو قراءة تفسيرها وهذا يدل على إحكام سيطرة الإعلام وتوجيهه لطموحات شبابنا وتطلعاتهم[٢].

٢- "وَٱلْغَوْاْ فِيهِ" (أي الغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه كي لا تسمعوه ولا تفهموا ما فيه. وعن مجاهد أي: المكاء والتصفير وتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ، قريش تفعله)[٣]. لم يكتف أهل الباطل بالمنع من سماع القرآن الكريم بل تجاوزوا ذلك إلى تشويه صورة القرآن وأهله في نفوس الناس، فقد كانوا يستهزؤون بالقرآن وحامله ويقولون أنه أساطير الأولين كما وصفوه بأنه سحر وشككوا في كونه من عند الله قال تعالى على لسان الوليد بن المغيرة: " فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ " (المدثر:٢٤-٢٥).

لقد وصفوا رسول الله ﷺ بالجنون -وحاشه من ذلك- قال تعالى: "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ" (القلم:٥١) ووصفوه بالشاعر والكاهن، وإن هذا القرآن كذب افتراه قال سبحانه: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" (الفرقان:٤-٥)، وقال: "بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ" (الأنبياء:٥). إن هذه التهم الباطلة وغيرها والتي ألصقها سدعاة الباطل برسول الله ﷺ

---

[١] ينظر: عبيدات، ذوقان عبد الله، الفضائيات والانترنت، مكتب التربية العربي، الرياض، ٢٠٠٣م، ص٤٠-٥٥.

[٢] ينظر: جريشة، علي، أساليب الغزو الفكري، ص٧١-٧٣.

[٣]- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، ج ٢٤، ص ١٢٩.

متأسين بمن قبلهم من الأقوام الذين بعث فيهم رسل تهدف إلى تشويه صورة حامل القرآن، فإن ذلك من شأنه أن يصرف عن القرآن الذي يحمله[1].

وليس الإعلام المعاصر بمعزل عن ذلك؛ فهو في حربه للإسلام يتّبع وسائل شتى في تشويه صورة منهج الدعوة والدعاة في نفوس الناس منطلقين من أن الريبة والشك تصرف عن الحق وتقوي الثقة بالباطل فيحققوا بذلك مآربهم السياسية ويبسطوا نفوذهم الاجتماعي والفكري، ومن أمثلة ذلك:

١- إبراز فكرة أنّ القرآن مقصور على المواسم الدينية كشهر رمضان، وصلاة الجمعة، ومراسم الحداد على الزعماء والقادة وغير ذلك، وإننا نرى أن معظم الإذاعات ومحطات التلفزة تستهل برامجها ببعض آي القرآن الكريم ثم تنطلق على عجالة لتبث سمومها الفكرية الهدامة، وإذا أتبعت تلك الآيات بشرح أو تفسير فلا يعدو كونه ذكر لمعاني كلمات بسيطة أو أسباب نزول وروايات قد يعتريها الضعف.

٢- عرض المسلسلات والبرامج التي تشوه صورة الداعية المسلم فهو شيخ مقطب الوجه ينفر من حوله منه، مزواج لا همّ له إلا أداء شعائر وطقوس في معزل عن الناس لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم وإن خالطهم فلا يفتر عن افتعال المشكلات بما يحمل من الفكر المتشدد البعيد عن واقع حياة الناس ومرونة الدين ويسره وغير ذلك من الأفكار التي تصف المسلمين بأنهم سفاكو دماء وقتلة أبرياء، ولا يخفى ما للنشرات الإخبارية والبرامج السياسية من الأثر البارز والملحوظ في تزييف الحقائق وقلبها، قال تعالى: " وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا " (آل عمران:١٨٦)، إن التعبير بسماع الأذى يشير إلى ما تقوم وسائل الإعلام ببثه مما يلحق الأذى بالإسلام وأهله[2]. كل هذا وغيره من شأنه أن يؤدي إلى نفور الناس من الدين المتمثل في القرآن الكريم وإحجامهم عن التعرف عليه، فكيف لمن فرّ من الإسلام أن يسمح لنفسه باقتحام ساحته وقراءة تعاليمه وفهم أحكامه؟!

لا شك أن الهدف الكامن وراء كل ما تبثه وسائل الإعلام صرف الناس عن فهم منهج القرآن وتحقيق الغلبة لأهل الباطل وهذا ما توضحه خاتمة الآية الكريمة "لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" (فصلت:٢٦) وإزاء ذلك

---

[1]- ينظر: نوفل، أحمد، الحرب النفسية من منظور إسلامي، دار الفرقان، عمان، ص ١٨- ١٩.

[2]-ينظر: عبيدات، ذوقان، الفضائيات والإنترنت، ص٥٠.

الغزو الإعلامي من قبل أعداء الله لابد لأهل الحق أن لا يتوانوا عن نشر دعوتهم وإبــراز الصــورة الحقيقية للقرآن ومن صنع، وبيان أن القرآن جاء ليرتقي بالبشر ويحقق العدالة الاجتماعيــة ويســوس الناس بما يوافق طبيعة خلق الله لهم ويسمو بحاجاتهم وطموحاتهم، ولا مانع مــن تجنيــد الكفــاءات البشرية ومواكبة أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا الإعلام في سبيل نشر الدعوة إلى الله وحث النــاس على الإقبال على القرآن الكريم والاستمساك بهديه، فإن الإعلام منبر يصلح أن يوجه لخدمــة الحــق وخدمة الباطل فلا يجوز لأهل الحق أن يعتزلوا ذلك المنبر ويسلموا الراية لغيرهم.

ثانياً– الحرب الاقتصادية:

يعد المال قوام حياة الأفراد والأمم وسبب انتعاشهم وازدهارهم ونشوء الحضارات فيهم وبالتــالي سوادهم وكينونتهم، من هنا كان الاقتصاد لكل أمة سبباً في سيادتها وكانت الحرب الاقتصادية ســلاحاً يتخذه الساسة لإحكام سيطرتهم على دولهم من جهة واستعمارهم لغيرهم من جهة أخرى.

وتعرف الحرب الاقتصادية بأنها: عملية عسكرية يمكن أن تقارن بعمليات الأسلحة المقاتلة في أن غرضها هو هزيمة العدو وأن وظيفتها حرمان العدو من وسائل المقاومة المادية ونتائجها لا تتحقــق بالهجوم المباشر على العدو فحسب بل أيضاً بالضغط على الدول المحايدة التي يحصل منها العدو على تموينه وإمداده[١]. يتبين من خلال التعريف أن الحرب الاقتصادية ذات أبعاد عسكرية سياسية؛ لذلك فإن الحرب الاقتصادية منذ فجر الإسلام كانت منهجاً اتخذه أعداء الدين للنيل من الإسلام وأهله وتقــويض أركانه والحيلولة دون سواده وانتشاره.

فإن سأل سائل: فما علاقة ذلك بالصرف عن فهم القرآن الكريم؟ كان الجواب: إن حرص أعــداء الدين على حربه تهدف إلى منع انتشاره وسواده في الأرض ولاشك أن منهج الإسلام متمثل بالدرجة الأولى في القرآن الكريم ففهم الإسلام محصلة تلقائية لفهم القرآن الكريم وتطبيقه في واقع الحياة، قال تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ" (الأنفال:٣٦)، إن مفهوم الصد عــن سبيل الله يشير بجلاء إلى الصرف عن القرآن الكريم الذي يتجسد في سبيل الله، هذه الآية وإن نزلــت في أبي سفيان الذي أنفق الأموال الطائلة في حرب المسلمين يوم بدر والإعانة على ذلك يوم أحد فإنها تعم كل ما يقوم به أعداء الإسلام على مر العصور من إنفاق أموالهم للحد من مد الإسلام وانتشاره[٢].

---

[١]–صلاح، نصر، الحرب الاقتصادية في المجتمع الإنساني، ١٩٦٥م، ص٣٧.

[٢] ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٥، ص٤٨١.

ومن أهم صور صرف الحرب الاقتصادية عن القرآن الكريم:

١-الحصار الاقتصادي:

ويعني: منع الدولة المحاربة من التصرف في ثرواتها ومواردها والتحكم في وصول الإمـدادات إليها. إن الحصار الاقتصادي من شأنه أن يهدد أمن البلد إذ إنه تجويع وحرمان من شأنه أن يؤدي إلى انتشار الجريمة وتهديد الأمن، ويلاحظ أن تلك الوسيلة لا تؤثر على الأمن فقط إنما تؤثر على الالتزام بالدين والمبادئ والقيم والمثل، فقد يلجأ ضعيف الإيمان إلى ممالأة أعداء الله للحصـول علـى لقمـة العيش، وقد شهد التاريخ صوراً كثيرة للحصار الاقتصادي منها: قيام مشركي قريش وقبائل العـرب بمحاصرة أتباع الدعوة الإسلامية الوليدة في شعب أبي طالب وتجويعهم حتى اضطروا إلى أكل أوراق الشجر[١].

ومما لا شك فيه أن ذلك الحصار جعل كثيرا من الناس يحجمون عن الإقبال على دعوة الإسـلام من جهة كما أنه حد من قدرة حملة الدعوة الإسلامية على نشر دعوتهم من جهـة أخـرى، وبـذلك يكونون قد صرفوا الناس عن سماع القرآن الكريم وقبول الدعوة الجديدة، والمتتبع لأحداث الماضـي والحاضر وحلقات الصراع الدائرة بين الحق والباطل يجد أن الحصار الاقتصادي سلاح طالما مارسه أعداء الله للنيل من الإسلام وأهله[٢]، ولا أدل على ذلك من حصار اليهود لأهل غزة وفلسطين وتجميد أموالهم في البنوك ومصادرة ممتلكاتهم[٣]، وكذلك الحصار الذي فرض على العراق ردحاً طويلاً مـن الزمن ، ولا شك أن الرخاء والحرية الاقتصادية سبب في انتشار العلم وفتح الباب لسواد الحق.

٢- الإغراء بالمال والمنصب:

لقد حاول أعداء الله شراء الذمم وأنفقوا الأموال الطائلة للنيل من دعوة الإسلام وصرف الناس عن القرآن، يحكي التاريخ أنّ زعماء قريش عرضوا على الرسول ﷺ ملكاً ومالاً وفيراً لصرفه عن رسالته ودعوته، روى ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة قال لرسول ﷺ يوماً: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[٤] في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقـت بـه جمـاعتهم

---

[١] ينظر: ابن هشام،السيرة النبوية، ج١، ص٣٦٧-٣٦٨.

[٢] ينظر: جريشة، علي، أساليب الغزو الفكري، ص١٢٨-١٢٩.

[٣] ينظر: أنطوان، منصور، اقتصادي وصمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٤م، ص٤٠.

[٤]-معنى السطة: يعني من الشرف، يقال فلان من سطة قومه أي من إشرافهم.

وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها قال: فقال رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مـــالا، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا[١].

إن هذه الرواية تؤكد محاولة البعض استمالة الناس بالمنصب والمال لصرفهم عن دعوة القــرآن الكريم، قال تعــالى: "ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ" (التوبة:٩)، ولا شك أنهم مارسوا ذلك مع ضعفاء الإيمان وقادة الدعوة على حد سواء، ومن المؤسف أن كثيراً من الذين في قلوبهم مرض تعاونوا مع أهل الباطل في حربهم للإسلام، فإننا نرى كثيــراً مــن الجواسيس الذين باعوا ذممهم واشتروا بها ثمناً قليلاً والذين كان لهم أثر كبير في تمكن أعداء الله من النيل من قادة الحق وعرقلة مسيرتهم في نشر الإسلام[٢].

إن ما تقوم به قوى الكفر من إغداق المال على حكومات الدول الإسلامية الضعيفة لهو دليل يشير إلى أن الهدف من ذلك منع سيادة الدين وضمان خضوع تلك الدول لهيمنتها الفكرية والسياسية المترتبة على هيمنتها الاقتصادية لذلك يلاحظ أن تلك الحكومات كثيراً ما تتصدى لحرب كل صوت يعلو فوق صوتها وينادي بتحكيم القرآن في الحياة وذلك ناشئ عن حرص قوى الكفر على علمنة تلك الحكومات لضمان انحسار مفهوم الإسلام في نظر الناس.

٣-إنفاق المال في بث السموم الفكرية وزعزعة الإيمان بالقرآن الكريم في نفوس الناس:-

من الوسائل التي تتبعها الدول الاستعمارية في طريقها لإحكام سيطرتها على دول العالم قيامهـــا بإنفاق الأموال الطائلة في إنشاء النوادي والجمعيات التي تعنى بالأمهات والأطفال والشباب والمسنين وتوفر لهم الرعاية وتتيح لهم الفرص لممارسة نشاطاتهم وهواياتهم كما أنها تهتم بعقد دورات التثقيف الصحي والأسري وغير ذلك من الوسائل والأنشطة التي تهدف من خلالها لتوجيه تطلعـــات الشـــباب والمستفيدين من خدماتهم وصرفهم عن تعاليم الإسلام وصدهم عن القرآن الكريم؛ فهم بذلك يدســـون السم في الدسم ويستميلون النشء الصاعد ويعبئونه بالأفكار الدخيلة التي تتناقض مع الإسلام وتعـــزز فكرة العلمانية في نفوسهم، ولا يخفى ما لتلك الجمعيات من الأثر البارز على المــرأة والتـــي تشـــكل نصف المجتمع وتسهم في تربية النشء؛ فتحت شعار تحرير المرأة والحفاظ على حقوقها ومكانتها في

---

[١]-ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٣٢١.

[٢]-ينظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ج٩، ص٥٥٢.

المجتمع يقوم أعداء الدين بالتشكيك في تعاليم الإسلام وأحكام القرآن خاصة فيما يتعلق بالمرأة وعملها وخروجها من المنزل وعلاقتها بزوجها وأطفالها، والمساواة بينها وبين الرجل وغير ذلك.

مما سبق يتبين لنا أن الحرب الاقتصادية ذات أثر بارز وفعال في التأثير على الفكر والمعتقد[١].

ثالثاً- إظهار العداء للإسلام والتنكيل بأهله:

إن ما سبق ذكره من وسائل أعداء الله في الصرف عن القرآن الكريم ما هي إلا لزعزعة الإيمان في النفوس، وإثارة الشك في الدين والانشغال عن القرآن الكريم، فهم إذ لم يتحقق لهم ما أرادوا وباءت محاولاتهم بالفشل الذريع مع أقوياء الإيمان من أهل القرآن يلجؤون إلى استخدام القوة في الصرف عن القرآن والصد عن سبيل الله شعارهم في ذلك: دمروا الإسلام أبيدوا أهله[٢].

ومن الوسائل العدائية التنكيلية التي يستخدمها أعداء الله في الصد عن سبيل الله والصرف عن القرآن الكريم:

١-الاعتداء على دور العلم والعبادة ومنع إقامة شعائر الله فيها:

يشكل المسجد معلماً بارزاً ومرجعاً رئيساً لمن يريد طلب العلم الشرعي وإقامة شعائر الله فهو منطلق القادة والعلماء والدعاة منذ فجر الإسلام؛ لذلك ظهرت محاولات أعداء الله لمنع نشر العلم وإقامة الشعائر في تلك المساجد وما نشأ على غرارها من دور العلم فتراهم يغلقونها تارة ويهدمونها تارة أخرى، فعنهم يقول الله تعالى: "وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ" (البقرة:١١٤)، عنت هذه الآية مشركي قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من أداء العمرة في المسجد الحرام[٣]. ولا شك أنها دللت على ما قام به المشركون من الصد عنه ومنع قراءة القرآن والصلاة فيه.

ومن أمثلة السعي في خراب المساجد: ما قام به الصليبيون إبان الحروب الصليبية من منع إقامة الشعائر في المسجد الأقصى وتحويله اسطبلات لخيولهم، وهاهم اليهود اليوم يمنعون أهل فلسطين من الصلاة فيه ويقفون حجر عثرة أمام أي محاولة لإعمار هذا المسجد وعقد حلقات العلم فيه، فغالباً ما نرى الأقصى خالياً من المصلين وإن وجدوا فهم قلة. لقد شهد التاريخ إحراقاً مروعاً لجزء من المسجد

---

[١] ينظر: جريشة، علي، أساليب الغزو الفكري، ص٣٠- ٣١.

[٢] ينظر: العالم، جلال، قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، دار السلام، ط٨، ١٩٧٨م، ص٥.

[٣] ينظر: الطبري، جامع البيان، ج١، ص٥٧٤.

الأقصى المبارك في ٢١ آب ١٩٦٩م ومحاولات عديدة لهدمه واقتحام ساحاته، ولعل في النفق الـذي يقوم اليهود بحفره تحت المسجد الأقصى شاهداً حياً على ذلك[١]، ولم يسلم مسجد ولا دار علم من أذاهم وبطشهم، فها هو المسجد الإبراهيمي في الخليل يواجه اعتداءً سافراً من قبل أعداء الله لكونه مجاوراً لمستوطناتهم فقد وصل بهم الأمر إلى أن جعلوا قسماً منه مصلىً لهم، وكثيـراً مـا كـانوا يمنعـون المسلمين من الصلاة في قسمه الآخر، وإن سمحوا لهم فقد كانوا يخضعونهم للتفتيش الدقيق والاستفزاز المهين.

إن حرب أعداء الله على المساجد في أصقاع الأرض تعد حرباً على العقيدة والمنهج وصداً عـن سبيل الله وتشكل صارفاً قوياً عن القرآن الكريم حيث لا يوجد مكان يتوجه إليه طلبة العلم لحفظ القرآن الكريم وفهمه.

٢-التنكيل بأهل الإيمان وحملة القرآن:

لم يكتف أعداء الله على مرّ التاريخ بمنع نشر الدعوة في معاقلها بل تجاوزوا ذلك إلى قتال مـن يصدع بالحق لسانه ويجند نفسه لنشر الإسلام وتعليم القرآن الكريم، ولقد شهدت الفترة المكيـة مـن الدعوة الإسلامية قيام مشركي مكة بالتنكيل بمن دخل في دين الله، ومارسوا في هذا التنكيل ما أتـيح لهم من صنوف التعذيب القاسية فقد عذبوا بلالاً وآل ياسر وخباب وغيرهم من معتنقي الدعوة الجديدة وأسكتوا كل صوت يصدح بالقرآن أو يجاهر في إقامة الشعائر في المسجد الحرام حتى وصـل بهـم الأمر إلى أن أخرجوا حملة دعوة الحق من ديارهم وأموالهم وظاهروا على إخراجهم، قـال تعـالى: "ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ" (الحج:٤٠)، وقال تعـالى أيضـاً مبـرزاً محاولاتهم للنيل من قائد الدعوة محمد ﷺ : "وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ" (الأنفال:٣٠)[٢]. ولقد استمرت تلك المحاولات للتنكيل بالعلماء وأتباع الحق بأشكالها المختلفة إلى يومنا هذا، فهاهم العلماء يضيق عليهم الخناق فيقتل بعضهم ويسجن آخرون أو ينفوا من أرضهم.

إنّ الهدف الكامن وراء ذلك كله صدّ المسلمين عن دينهم وصرفهم عن القرآن قراءة وفهماً، قال تعالى: "وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ" (البقرة:٢١٧). لقد كان التنكيل

[١] ينظر: الهزايمة، محمد عوض، القدس في الصراع العربي الصهيوني، ط ٢، ص٢٦٧.

[٢] ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص٣٤١- ٣٤٤.

بأهل الحق صارفاً لضعفاء الناس والذين في قلوبهم مرض عن الإيمان والالتزام بالحق فها هو فرعون لما جاءه الحق من ربه يقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى -عليه السلام- ويستحيي نساءهم ويحاول قتل موسى-عليه السلام- مخافة أن يبدل دين فرعون وقومه، قال تعالى: "فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ" (غافر:٢٥- ٢٦) فلم يؤمن له إلا ذرية من قوم فرعون على خوف من القتل والفتنة، قال تعالى: "فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ" (يونس:٨٣). وما أشبه اليوم بالأمس فإننا نرى كثيراً من الذين في قلوبهم مرض يسارعون إلى التملق لأهل الباطل ويضربون بتعاليم القرآن عرض الحائط، قال تعالى: "فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ" (المائدة:٥٢).

إن قبض العلم لا يكون إلا بقبض العلماء وإن سياسة الحرب التي يشنها أعداء الله على الإسلام وأهله تنطلق من كونها حرباً عقدية من الدرجة الأولى كما صرح بذلك زعماء الكفر فالحرب الصليبية انطوت تحت راية الصليب، وكذلك الحرب التي دارت في البوسنة وحرب أفغانستان والعراق وفلسطين ما هي إلا وسيلة لتكثير سواد عقيدة الباطل، وتكميم أفواه أهل الحق، والحد من انتشار الإسلام[١].

وللوصول إلى بيئة سياسية تتخذ الإسلام دستوراً وتقوي علاقة الأفراد بالقرآن الكريم يوصى بما يلي:

١- أن يوجه الإعلام على اختلاف أشكاله لخدمة القرآن وإيصال تعاليمه وذلك باستخدام أحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا الإعلام وعرض البرامج المشوقة التي تتناسب مع رغبة أفراد المجتمع بعيداً عن التقليدية والملل.

---

[١]- ينظر: العالم، جلال، قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ص٩- ٢٩.

٢-أن يوجه النظر إلى الخطر المحدق الذي يحيق بالأمة من جراء ما تعرضه وسائل الإعلام حتى يتخذ أفراد المجتمع جانب الحيطة والحذر عند متابعتهم لوسائل الإعلام المختلفة.

٣-أن تتضافر الجهود لإنفاق المال في قضاء حاجات الناس وإصلاح الفكر والدعوة إلى الحق.

٤-أن يحرص على الجهاد في سبيل الله بالوسائل المتاحة والمتناسبة مع أحوال الناس وأن توجه الأنظار إلى منطلق الحرب التي يشنها أعداء الإسلام على المسلمين.

٥-أن تعمر المساجد بالعلم والذكر حتى لا يتسنى لأعداء الله أن يقتحموا حماها وأن لا يقتصروا على المباهاة بزخرفتها وتجويد بنيانها، قال تعالى: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ " (التوبة:١٨).

٦-تربية النشء على القناعة الراسخة بأن الإسلام هو الحل لكافة ما يواجه الأمة من مشكلات وأن القرآن هو الجدير بالاتباع حتى تصل أمة الإسلام لسيادة العالم وتحقيق الرخاء والأمن، قال تعالى: "وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا" (النور:٥٥).

الخـــــاتـــمـــة

تناولت هذه الدراسة ما يمكن أن يصرف عن تدبر القرآن وفهمه مما هو نابع من ذات كيان الإنسان أو واقع عليه بتأثير البيئة المحيطة به على اختلاف أشكالها وفي خاتمة هذه الدراسة توصلت إلى النتائج والتوصيات التالية :

١- إن للعقيدة والأخلاق والنوازع النفسية ومعارف الفرد ومنهجه في التفكير والبيئة المحيطة به أثراً في فهمه للقرآن الكريم سلباً أم إيجاباً.

٢- الحرص على أن يتربى آهل القران على تدبره وفهمه وفق الطريقة التي وجه القرآن إليها وذلك باستخدام أدوات الحس وتقوية ملكات الإدراك.

٣-أن يضع متدبر القرآن نصب عينيه أسس الفهم النبوي للقرآن الكريم بوصفه المبلغ الأول عن الله ولأن هذه الأسس هي التي وصلت بالجيل القرآني الأول إلى ما وصلت إليه من التميز من خلال التطبيق الواقعي العملي للقرآن الكريم .

٤- أن تبذل الجهود للارتقاء بالجوانب العقدية والنفسية والسلوكية لدى المقبل على القرآن حتى يتسنى له أن يفهمه حق الفهم ويتخلى عن الموانع التي تحول دون ذلك.

٥-إن تهيأ بيئة تعليمية و ثقافية صالحة لأن يفهم الأفراد القرآن الكريم وذلك بما يلي :

أ- زيادة الاهتمام بتعليم القرآن في المدارس ودور القرآن الكريم قراءة وحفظا وفهما .

ب- الاهتمام بتعليم قواعد اللغة العربية وعلومها للعرب وغير العرب وكذلك التحدث بها بوصفها لغة القرآن الكريم فبفهمها يكون فهمه .

ج-الانطلاق في تفسير القرآن الكريم من أنه كتاب هداية وإعجاز شامل لجميع نواحي الحياة خارج عن حدود الزمان والمكان .

د- تمحيص كتب التفسير وتنقيتها من الروايات الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات وكل ما يمكن أن يعيق فهم القرآن للعامة وفق مقاصده وواقعيته .

ه- الاهتمام بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم والذي يعنى بالسياق القرآني ويطرق موضوعات تهم الأفراد والأمم على مر العصور .

٦- أن يهتم المربون بالبناء الفكري والاجتماعي القائم على فهم القرآن الكريم والحياة به بعيداً عن التقليد والتعصب المذهبي وغير ذلك .

٧- أن يحرص على إسلامية الإعلام غير التقليدية وذلك من خلال :

أ- بث التوعية الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية بأسلوب حضاري مشوق منطلق من تعاليم القرآن الكريم وبكافة اللغات.

ب- بث البرامج الترفيهية المسلية الهادفة وذلك حتى لا يكون الإعلام الإسلامي جامداً منفراً .

ج- توجيه طاقات الشباب والاستفادة منها في مجالات الإعلام المختلفة فالإسلام دين الفن والإبداع.

د- أن تتضافر الجهود لتحقيق الانتعاش والأمن الاقتصادي الذي من شأنه إن يرفع المستوى الفكري والثقافي والعلمي لدى المسلمين.

٨- أن يوجه الباحثون وطلبة العلم إلى الكتابة في موضوعات واقعية ترقى بالفرد والمجتمع وتبرز الصورة الحيوية والحقيقية للإسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه علي عطية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

أبالق، أحمد ثرّيا، **الكفر ومفهومه وعلاجهُ في القرآن دراسة موضوعية**، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، إشراف الدكتور حسيب السامّرائي، ٢٠٠١م.

الأثري، عبد الله بن عبد الحميد، **الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)**، مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٢هـ.

الأصفهاني، الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، ضبطه وراجعه: محمد عيتاني، دار المعرفة، لبنان، ط٣، ٢٠٠١م.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، ضبط نصه وعلق على حواشيه: عبد الخالق علام، دار صبح، لبنان.

بكار، عبد الكريم، **فصول في التفكير الموضوعي**، دار القلم دمشق، ط٤، ٢٠٠٥م.

بكار، عبد الكريم، **من أجل انطلاقة حضارية**، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠١م.

بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، **القرآن وقضايا الإنسان**، دار المعارف، القاهرة.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **مناقب الشافعي**، دار التراث، ط١، ١٩٧١م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام، **الحسنة والسيئة**، تقديم محمد غازي، دار الكتب العلمية، لبنان. بدون طبعة.

ابن تيمية،أحمد بن عبد السلام، **مقدمة في أصول التفسير**، مؤسسة الريان، ط٢، ٢٠٠٢م.

جرار، بسام، **نظرات في كتاب الله الحكيم**، نون للأبحاث والدراسات الإسلامية، البيرة فلسطين، ط١، ٢٠٠٤م.

الجرجاني، عبد القاهر، **أسرار البلاغة**، دار كتب العلمية، بيروت، ط١.

الجرجاني، علي بن محمد الحسيني، **التعريفات**، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

جريشة، علي، **أساليب الغزو الفكري**، نسخة مكتبة الجامعة الأردنية، بدون طبعة.

ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي، **صيد الخاطر**، علق عليه أسامة السيّد، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٩م.

الحاكم، محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م،

ابن حنبل، أحمد، **مسند الإمام أحمد**، تعليق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.

الحوسني، طلال بن سيف العبد الله، حماية البيئة الدولية من التلوث، **مجلة الحسينية**، بحث منشور على الانترنت، ٢٠٠٥م، موقع: www.Alhosanilaw.net

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، دار الفكر للطباعة والنشر، طبعة جديدة بعناية صدقي محمد جليل.

ابن حيون، النعمان التميمي، **أساس التأويل**، تحقيق: عارف تامر، دار الثقافة، لبنان، بدون طبعة.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي**، دار النفائس، الأردن، ١٩٩٧م.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **مفاتيح التعامل مع القرآن**، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠٠٥م.

الخطابي، حمد بن محمد، **بيان إعجاز القرآن**، ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط٤.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، مصر، ٢٠٠٤م.

خليل، عماد الدين، **حول تشكيل العقل المسلم**، الدار الَعالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط٥، ١٩٩٥م.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داوود**، ط١، ١٩٩٩م.

دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، دار العلوم،١٩٨٤م.

الدغامين، زياد خليل محمد، ترشيد الرسول ﷺ مسيرة الصحابة في فهم القرآن والعمل به، **مجلة حولية الشريعة الإسلامية**، عدد١٧، ١٩٩٩م.

الدغامين، زياد خليل، **التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه**، دار عمّار، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م.

الدغامين، زياد خليل محمد، منهج القرآن في صياغة تفكير الإنسان، **مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون**، العدد١، ٢٠٠٥م.

الدغامين، زياد خليل، موقف الوحي من التعامل مع التراث الديني اليهودي، **مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية**، جامعة الكويت، العدد٣٩، ١٩٩٩م.

الدقور، سليمان، **اتجاهات التأليف**، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٥م.

الدمياطي، شهاب الدين أحمد بن محمد، **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، وضع حواشيه أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٣، ٢٠٠٦م.

الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، دار الأرقم، لبنان، بدون طبعة.

الرازي، فخر الدين محمد عمر، **مفاتيح الغيب**، تحقيق دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط٢، ١٩٩٧م.

الراشد، محمد أحمد، **العوائق**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٧، ١٩٩٧م.

رضا، محمد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، دار المعرفة، بيروت، ط٢.

الزمخشري، محمود بن عمر، **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق: عبد الأمير، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.

الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، اعتنى به: خليل مأمون، دار المعرفة، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة.

السيد، عزمي طه، **الثقافة الإسلامية**، عمان، جامعة القدس المفتوحة، ط ١، ١٩٩٧م.

السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تقديم وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق،ط٥، ٢٠٠٢م.

الشافعي، محمد بن إدريس، **مختصر كتاب الأم**، تحقيق حسين عبد الحميد، دار الأرقم، بيروت.

أبو شهبة، محمد بن محمد، **الإسرائيليات والموضوعات في القرآن الكريم**، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م.

الشوكاني، علي بن محمد، **إرشاد الفحول**، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط١، ١٩٣٧م.

صلاح، نصر، **الحرب الاقتصادية في المجتمع الإنساني**، ١٩٦٥م.

الصدر، محمد باقر، **المدرسة القرآنية**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، **مقدمة ابن الصلاح**، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل أي القرآن**، ضبط وتعليق: محمود شاكر،دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

طنطاوي، **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، المكتبة الإسلامية، ط٣، ١٩٧٤م.

ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، بدون طبعة.

العالم، جلال، **قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله**، دار السلام، ط٨، ١٩٧٨م.

عباس، فضل حسن، **التفسير أساسياته واتجاهاته**، مكتبة دنديس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.

العبد الله، جهاد محمد، **الظلم في القرآن الكريم دراسة موضوعية**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠م، إشراف الدكتور: فضل حسن عباس.

العفيفي، محمد، **مقدمة في تفسير الرسول ﷺ للقرآن الكريم**.

العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، دار الكتب العربي، بيروت، ط٢.

العلواني، طه جابر، **إصلاح الفكر الإسلامي**، مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، كتاب قضايا إسلامية معاصرة، الكتاب الثاني عشر، ١٤١٩-١٩٩٨م.

عبد الرحيم، عبد الجليل، **لغة القرآن الكريم**، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط١، ١٩٨١م.

عبده، عزيزة، **الإعلام السياسي والرأي العام**، دار الفجر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

عبيدات، ذوقان عبد الله، **الفضائيات والإنترنت**، مكتب التربية العربي، الرياض، ٢٠٠٣م.

عطار، أحمد عبد الغفور، **الزحف على لغة القرآن**، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

علوان، عبد الله ناصح، **تربية الأولاد في الإسلام**، دار السلام، ط٩، ١٩٨٥م.

عواد، محمد حسن، **تناوب حروف الجر في لغة القرآن**، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٩٨٠م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، مراجعة صدقي العطار، دار الفكر، لبنان، ١٩٩٥.

الغزالي، أبو حامد محمد، **الاقتصاد في الاعتقاد**، تحقيق إنصاف رمضان، دار قتيبة، سوريا، ط١، ٢٠٠٣م.

الغزالي، محمد، **فقه السيرة**، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٥، ١٩٦٥م.

الغزالي، محمد، **كيف نتعامل مع القرآن**، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٩٩٢م.

ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، اعتنى به محمد عوض و فاطمة أصلان، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

الفتياني، خالد إبراهيم، **التفسير الإعلامي لسورة النور**، دار طوباس، ط١، ١٩٩٣م.

الفيروز آبادي، أبو طاهر بن يعقوب، **القاموس المحيط**، اعتنى به:حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان ٢٠٠٤م.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١.

ابن قدامة، أحمد بن عبد الرحمن، **مختصر منهاج القاصدين**، حققه: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر أرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٧٨م.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن**، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ٢٠٠١م.

قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، لبنان، ط٢٥، ١٩٩٦م.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين، **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان**، تحقيق علي الحلبي، تخريج محمد الألباني، دار ابن الجوزي، السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين بن عبد الله محمد بن أبي بكر، **الفوائد**، تحقيق أبو عرام أحمد المقدسي، دار البيت العتيق الإسلامية، الأردن، ٢٠٠٤م.

ابن كثير، عماد الدين، **تفسير القرآن العظيم**، دار صبح، بيروت، ادفيست –الدار البيضاء.

الكواكبي، عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد**، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمود محمد نصار، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب، **أدب الدنيا والدين**، اعتنى به محمد أبو الخير، محمد شرقاوي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

المباركفوري، صفي الرحمن، **الرحيق المختوم**، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٠م.

المثنى، عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني**، دار وائل للنشر، ط١، ٢٠٠٨م.

المجالي، محمد خازر، **الوجيز في علوم الكتاب العزيز**، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط٣ ، ٢٠٠٦م.

مسلم، ابن حجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

منصور، أنطوان، **اقتصادي وصمود**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٤م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.

النسائي، أحمد بن شعيب، **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م.

نوفل، أحمد إسماعيل، **إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته**، دار الفضيلة، عمان، ط١، ٢٠٠٧م.

نوفل، أحمد، **الحرب النفسية من منظور إسلامي**، دار الفرقان، عمّان،١٩٨٥م.

ابن هشام، جمال الدين ابن يوسف، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، مطبعة المدني، القاهرة.

ابن هشام، محمد عبد الملك، **السيرة النبوية**، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٦٨م.

يعقوب، طاهر محمود محمد، **أسباب الخطأ في التفسير**، دار ابن الجوزي، ط١.

OBSTACLES OF UNDERSTANDING THE HOLY QURAN AND METHODS OF DEALING WITH THEM: A THEMATIC STUDY

By
Samia Ahed Mohammad Harb

Superviser
Dr. Mohammad Khazar Al-Majaly

ABSTRACT

This study deals with the obstacles that inhibit a clear and right understanding of the Holy Quran which is described as a book of guidance, miracle and a way of life a book that is right for all times, places and mankind. In general, this thematic study is based on empirical method, extracting the verses which state such obstacles.

The study consists of three chapters: the introductory chapter which deals with the concept of pondering over the Quran from Quranic Prophetic perspective. It deals also with some of the essential and basic concepts related to the study. In chapter one, the researcher points out some of the obstacles related to the addressees, their beliefs, psychological desires, morals and behaviors or their system of knowledge. It also suggests a number of methods for dealing with the Holy Quran. In chapter two the research deals with the obstacles stemming from the educational, cultural, social, intellectual or political environment of the addressee, since s/he is considered one of its integral parts and therefore will be obviously affected by it. It is worth mentioning that each obstacle of understanding is followed by suggestions to handle it. The study concludes that the obstacles that hinder a true and right understanding of the Holy Quran are either related to the individual himself or to the environment around him.

The study recommends that more efforts should be exerted to enhance the people's relationship with the Holy Quran as a book of guidance and a way of life. It draws attention to these obstacles and warns against them in order to raise our children according to the Quranic guidance. It also directs our efforts towards a right interpretation of the Holy Quran and provides an appropriate methodology to deal with it in a way that achieves its intentions and upholds the rule of Allah on Earth. The study, thus, helps human beings to carry out their duty and responsibility on Earth.